عن رائحة الشمس

الكتاب: عن رائحة الشمس
المؤلف: محمد ناجي عبد الله
تصميم الغلاف: محمود سوليمان
تدقيق لغوي: عبد الهادي عباس
إخراج فني: سُكون
رقم الإيداع: 2193/2018
ردمك: 978-977-6549-55-5
الطبعة الأولى: 2018

المدير العام: هالة البشبيشي
المدير التنفيذي: شريف الليثي

تويا
دار تويا للنَشر والتَوزيع

(+2) 01066444204
(+2) 01000706014
dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya
@Dar Toya
@Dar_Toya
٣٥ شارع النصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٧

محمد ناجي عبد الله

عن رائحة الشمس

رواية

تويا للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أول شمسٍ..

بِبَلدتِنَا..

تَبسَّمَت لِتُربَةٍ آسِنَةٍ...

فأنبَتَتْ قَلبًا

العتمـةُ، في الممـرِّ الضيـق، هـي المُهَيمِنـة. لا يقطـع وحشـتَها إلا نـيرانٌ حمـراءُ الوَهَـج، مرتعشـة، تـتراصُّ في صفَّـينِ عـلى طـول الممـر، يُراقصهـا الهـواءُ الحـار. الطريـقُ المؤديـةُ إلى عتمـةٍ أعظـم، حيـث «البحيرة المقدسـة». مسَـطَّحٌ مـن المـاءِ الراكـدِ، إلا مـن دغدغـةِ الهـواء، أحيانًـا، ليُحـرك بعضًـا مـن الحيـاة بسـطحها. شـعلةٌ عظيمـةٌ تُـضيء الكهـف، ومـا بداخلـهِ مـن صخـورٍ مُلونـةٍ، لامعـةٍ، لكنهـا لا تكشـفُ عـما بجـوفِ البُحـيرة الكتـوم. أحدهـم يبكـي، فيـصرخ، ثـم يتقطـعُ بـكاء...

طفل...

يحبو...

يبحـثُ بيديْـه الصغيرتـيْنِ عـن شيءٍ، يتـذوقُ بلسـانه الدقيـق مـا يجـده مـن تـرابٍ و حَـصَى. يهـدأ، ينظـرُ حولـهُ مُحـاولًا استكشـاف الأحجـار العجيبـة، والنـيران الحمـراء المنتصبـةُ مـن قِـدرٍ عظيـمٍ مُعَلَّـق بسلاسـلَ مـن فـولاذٍ أعـلى الكهـفِ... فـوق البُحـيرة. يقـتربُ مـن المـاء، يتسـارعُ حَبْـوُهُ حتـى يوقفـهُ صـوتٌ آتٍ مـن الممـر المظلـم...

أصواتٌ عِدَّةٌ... تقترب...

و ضَحِكاتٌ تتعالى..

– هِيـي... هِيـي... هـوو.. هـوو... فلنمـلأ قلوبنـا قبـل قدورنـا، بميـاه الرحمـة ونـور القداسـة...

يتنبه الطفل، يعتدلُ في جلسته..

– هِيـي.. هِيـي.. هـوو.. هـوو... نمـرقُ في الظـلام باحثـين عـن النـور... فـدَربُ الخطايـا مُعتـم، ودَربُ النـور قريـبٌ..

الأصوات.. التي بدت لأذني الطفل أنها دندناتٌ موسيقيةٌ.. تدفعهُ للتصفيق. يرقص في الظلام، لا يُنير رقصته سوى النيران. يُقهقه ببراءةٍ، ويقترب من البُحيرة. يغرقُ يده بالماء البارد، فتسري قشعريرةٌ بجسده، ويضحك. يتأملُ المكانَ حوله، مرة أخرى، ثم..

يتدحرج..

بالبحيرة..

لَّما يأتِه من خلفه صراخُ أحدهم، فيربكه ليسقط..

- «مَن سمح لهذا بالدخول؟!!... ما هذا الكائن؟!!»...

يركضُ جماعةٌ من اثني عشر فردًا، حاملين شعلاتهم التي زادت من ضَيِّ الكهفِ. يصرخون، ويأمرُ عجوزُهُم اثنين منهم ليلحقا الصغير قبل أن يلمسَ البُحَيرة. لَّما سَقَطَ فيها، لَطم الباقون وجوههم، وبالويلِ تَوَعَّدوا الطفل، الذي لا يفقهُ قولهم. يبادلهم بالابتسام، بينما هم يلتفون حولهُ في دائرةٍ، يتفقدون ذلك الجسد الصغير... شديد البياض، ذا السطح اللامع كالفِضَّة!...

- من أينَ أتيتنا يا هذا؟!!... العينان غير العيون، والأذنان غير الآذان!!

يلمسون جلده، تعلوهم الدهشةُ، للجلد اللامع!!... والجسدُ حليبٌ، لا يغزوه ذَنْبٌ، ولا يُدَنِّسهُ غامِقٌ.

الطفلُ يضحكُ، فيبادلونهُ بالغضب والتكشير. أحد الاثني عشر يزعقُ في فزعٍ...

«تعالوا انظروا... البحيرة!!...»

ترتعشُ النيرانُ على القِدْرِ العظيم أعلى البحيرة... وجميعهم يركضون صوبها.

– ماء البحيرةِ تَدَنَّس!!!...

– كيف؟!

أمرَهم العجوز ألا يتحرك أحدٌ، عدا ثلاثة منهم، يأتون بالحاكم لأمرٍ ضروري... فقد تدنست البحيرة!.

أتى فوجٌ كبيرٌ، من عماليق يتسلحون بسيوفٍ تقطعُ الجِبالَ، ومُهَرِّجينَ يتشقلبون ويُدندنون بأغانٍ مُلَغَّزَةٍ و ضحكاتٍ هيستيرية... وحامِلي العرش، حيثُ يتربعُ رجلٌ بَدِينٌ قاسي الملامح، غاضبُ العينين، يضَعُ أحمَرَ الشِفاه ويُضَفِّرُ شَعرَهُ بحلقاتٍ من ذهبٍ خالصٍ. يتقدمُ الفوجَ حاملو الشُّعلات لإضاءة الممر، ويتبعهم من الخلف مئاتٌ من القوم... أتوا ليشهدوا الغريب الذي ظهر بالكهفِ المُحَرَّم.

– إنه مجرد طفل!!..

قالها أحدُ القوم، يُجادلُ آخرين ثاروا على من تجرأ ولمس ماء البحيرة. الهرجُ والمرجُ ازداد، والقِدرِ العظيم المملوء بنارٍ أعلى البحيرة يتأرجحُ، والطفلُ بدأ يبكي. قَرَّبَهُ أحدهم من الحاكم، ليلقي الأخير بنظرةٍ مرتعشةٍ عليه. يخشى أن يلمسهُ. يقول بأنه لم يرَ من قبلُ مخلوقًا ببياضِهِ ولمعانه. أحدُ الاثني عشر قال بأنهم وجدوه وهم آتون لملء قدور المحبة، والاستعداد لفصل الغفران، وأن الطفل قفز إلى البحيرة، يلهو ويسبحُ، يغتسل منها..

– وربما تَغَوَّطَ فيها أيضًا!!

– الويلُ لمخلوقِ النجاسة!..

المهرجون ذوو المناقير الحادة، والملابس القصيرة التي تكشفُ عن بطونهم، يرقصون ويتقافزون، يرددون..

– ابن الظلامِ، ذو البياضِ الكالِح، لَوَّثَ الماءَ المالح...

حتى انتبه الجميعُ إلى امرأةٍ، تولولُ وتندب حظها...

– الماء!!... ماء البحيرة يا قوم!!..

تذوقت الماء، وصرخت من جديدٍ. تذوق رجالٌ غيرها الماء، ارتعبوا..

– الماء... صارَ حُلوًا!!!...

– البحيرة كُلها!!... صارت حُلوة..

كانوا يغرفون بقدورِهِم الماء من البحيرة المقدسة، يتذوقونه، يجدون حلاوةً حَلَّت ملوحَتَها. يُقبِلُونَ على الشربِ أكثرَ.

انفلتت ابتسامَةٌ من فَمِ الحاكم. أمرَ أحد الاثنَي عشر المقربين بأن يأتيه بِشَربَةٍ مما يشربون. قبل أن يتجرَّع الماء، أزاحهُ أحدُ الاثني عشر... عجوزُهُم... وقال:

– ألا ترى ما حَلَّ بهم أيها «الأخ الحنون»؟!!

– ماذا؟!!.. ماذا حَلَّ؟!..

– انظر... يرقصون!!

كل من شَرِبَ ولو القليل من البحيرة، صار يرقصُ، يدور في دورانات هادئةٍ. كل من ابتُلَّ ريقَهُ بحلاوةِ الماءِ؛ أخذَ يُدندنُ، يبتسمُ للمرةِ الأولى، تفردُ الابتساماتُ عَبَسَهُم... وتُسَطِّحُ تجاعيدهم التي نَمَت من الحُزنِ.

شابٌّ، يافعٌ، من الاثني عشر، يهمسُ في أذن الحاكم، «الأخ الحنون»، ليصمت الأخير، تتجهم ملامحهُ، يزمجر...

- أيها الآسنُ اللعين... دَنَّسْتَ بُحَيرَتَنَا، ولَوَّثْتَ قومي... انتهت الحفلة، لا يدخلنَّ أحدٌ إلى هنا حتى يعودَ الماء المالح... وتعود القدسية!!

خرجَ الجميعُ، واحتَجَزَت العمالِيقُ كُلَّ من شَرِبَ من الماء الحلو، ورَقَصَ، في أقفاصٍ كبيرةٍ جُمِعوا فيها كالخِراف. المهرجون يضحكون بفجورٍ، يتشقلبون، ويُرددون خلف عرش الحاكم وأمامه:

- ابن الظلامِ، ذو البياضِ الكالِح، لَوَّثَ الماءَ المالح...

والطفلُ الذي- ما توقفَ عن البكاءِ، حتى خرجوا من بَطنِ الكهفِ إلى ظلامٍ أشدَّ وَحشَةٍ- أخذَ لَعَانهُ يخبو... حتى انطفأ... فصَارَ كالحًا كئيبًا... يكسرُ كُل أمَلٍ يقعُ على سَطحِهِ.

***

«اِبْيَضْ»

(١)

«هنا وُلِدْتُ... هنا حَيَيْتُ... وهنا سأموتُ»

البلدةُ شديدةُ الوَحْشةِ، النيرانُ بالكاد تُصارع ما بها من ظلامٍ. لا أحد يسألُ متى يحل النهار... لا أحد يعلم أنَّ هناك نهارًا. أحدهم سأل يومًا، عن تلك النار التي يُضيئون بها كل ركنٍ و كل طريقٍ.. أحدهم.. اعترض، على ما تُنتجهُ تلك النيران من صهدٍ أذاب جبل الجليد، فأغرق الملايين من أهل البلدة... أحدُهم حاول فقط الاعتراض... لكنه لقي حتفه، أُلقي في «المحرقة العظيمة». يومها، انطلق مُهَرِّجو الحاكم، سعوا في البلدةِ يضحكون، يقول الواحد منهم:

«تتأففون من صهد النار، وتُنكرون رحمتها بِكُم يا آفاتِ النُّكران؟!... فما تَرَكَتْكُم في الظُّلُماتِ تتخبطون... تتأففون من الحمراءِ الدافئةِ، التي انتشلتكم من ذنوبكم السوداء ومن ظُلَمَةِ بلدتكم؟»...

لا أحد يتكلم...

في «بلد الرمَّان»...

اليوم، هو يوم الغفران. النيران تشتعلُ أكثر، تتوهجُ، تأكلُ بضراوةٍ ما يُلقى في أفواهها الشرهة من «قشور رُمَّانٍ» تحملها عرباتٌ خشبيةٌ آتيةٌ من قصر الحاكم. الجميعُ يتجمهرون، والظلام الذي لا ينقطعُ من البلدةِ منذُ ولادتها، قائم. الحاكم يخرجُ من عباءة الكِبْر، يحاولُ التواضع..

– يـا قومـي... هـا نحـنُ أولاء، نجتمـعُ اليـوم، لنحـرقَ مـا تبقـى مـن حزائـن الرمـان، ونسـتعدَّ للعـام الجديـد... «الأخ الحنـون»... أنـا... يتمنـى لكـم نـارًا مُلتهبـةً، تُنـيرُ ظُلُماتِكـم، وتحـرقُ كُل مُعـتَرِضٍ أثيـمٍ...

يُمَجِّدُ المهرجون.. خلفَ الخطابِ العظيم:

«آمين... أيها الأخ الحنون»

العمالِيقُ تضربُ بسيوفِها على الجبال فتحيلها حجارةً و فُتاتًا.

هناك.. وسط الزحام، يتدارى أحدُهم. يُراقبُ بصمتٍ، يُنادي:

– يا «آسنُ»... تعال، انظر القوم المجانين...!

لا يرد..

يُلقـي نظـرةً حزينـةً، بعينـين حمراويـن، جمرتـين قاربتـا عـلى الانطفـاء، وجسـدٍ قـويٍّ عريـضٍ كالـحِ البيـاض، ورأسٍ لا ينبـتُ فيـه زرعٌ أبـدًا، تمـلأه النـدوب وجـراحٌ لا تلتئـم...

يقـول لصاحبِـهِ ألا يرهـقَ عينـه أكثـر، فاللـون الأحمـر يؤذيهـا. يشـده صاحبـه، يريـده أن يرافقـه، ليقتربـا أكثـر مـن الشـعلة العظيمـة، حيـثُ سـتُحرَقُ قشـور الرمـان القادمـة مـن قـصر الحاكـم، فتتطايـر رائحتهـا مـع الدخـان..

– يـا «آسـنُ» لا تكـن غبيًّـا، أتعلـم مـا يحـدثُ لـو أنـك تذوقـتَ الرمـان؟!

– لا أطيقه، ولا أريد شيئًا..

– اسـمع.. تعـالَ معـي، فقـط أتشـمم بعضًـا مـن الرائحـة... لا أحـد يجـرؤ عـلى الاقـتراب منـي وأنـا بصحبتـك..

يغضـبُ، يدفعـه بقـوةٍ، تـاركًا إيـاه. ينعتـه الآخـر بالغبـي، يسـبُّه، ثـم يقـولُ بأنـه لا يرغـبُ بمصاحبتـه بعـد اليـوم. «آسـن» يُديـر وجهـه، يتمتـم:

«مثلك مثلهم... لا جديد»

يصارعُ الشاب الزحام، يُحاول اللحاق بالموكب وبالقِدْرِ العظيم. يلقون بقشور الرمان، ليرقص العامة، رقصة باردة، لا غناء فيها، لا ضحك ولا حركة فيها، يهزون رؤوسهم يمينًا ويسارًا. لا أحد يسمح له بالرقص في «بلد الرمان» سوى المهرجين... وكل من يرقص ويُغني كَيَوم البُحَيْرَة يُزَجُّ به في السجن. ما إن اقترب الشاب من النار، وتصاعدت أدخنةُ الرمَّان، يُقرب أنفه إليها، حتى ملأ صدره منها. اندفع الحراس ليوقفوه، أمرهم «الأخ الحنون» بأن يَكُفُّوا...

انتشى الشاب بالرائحة لثوانٍ... ثم... جحظت عيناهُ، صرخ من ألمٍ يقطِّعُ صدرهُ، أخذ يسعلُ بِحِدَّةٍ، كانت آخرُ نظرة يُلقيها على «آسن» الواقف بين الزحام... ينظرُ إليه بعينيْن باردتيْن حمراويْن، والحاكم يُردد:

- لا أحد ينالُ من نصيب الرمان بعدي يا أنجاس البلدة...

يرحلُ «آسنُ»، مقهورًا. يودعُ الاحتفالَ بأسى، ينظرُ إلى السماء التي تتلونُ بالخوف. يتبعُ طريقًا آخر تنيرهُ شُعلاتٌ فقيرةُ اللهب، مرتعشةٌ... إلى حيثُ ينتمي...

إلى «المحرقةِ العظيمة».

❊ ❊ ❊

(٢)

أمام البوابة الشاهقة، الموشومة بالرموز التي لا يفهمها إلا «آسن»، يقف الرجل، ذو العباءة الحمراء. يطرق الباب ويُنادي: «يا فنان، ائذن لي بالدخول!». يركضُ «آسن» بلهفةٍ، يفتحُ البوابة الساخنةُ قبضتها، ويرحبُ بالرجل ويُعانقه. يتجولانِ في بهو المحرقة العظيمة، حيثُ الصهدُ هو الهواء، لا يتنفسهُ إلا كُل شيطانٍ لعينٍ. «آسن» لا يفتحُ الباب الموشوم أبدًا إلا لو أُمِرَ من «الأخ الحنون»... أو أتاه «وَدُود».

- ظننتُكَ لن تأتيني ثانيةً..

- أأنساك يا فنان؟

- كلهم ينسون... لم أقابل أحدًا هنا يتذكر.. سواك.

يتسكعان حتى يصلا إلى الغرفة ذات الرائحة النتنة. يتوقف «آسن»، يتردد، هل يصطحب خليله الوحيد إليها مرةً أخرى؟!. يُراقبه «ودود»، يربت على كتفه ويستأذنه بالدخول..

- أخاف ألا تأتيني ثانية..

- أود أن أرى..

يدخلان، حيثُ الغرفة نتنة الرائحة، وشعلاتٌ صغيرةٌ مزروعةٌ في الحوائط التي تحدهم كدائرةٍ... تسترُ عُريها بلوحاتٍ من الورقِ والقماش تكاد لا تتركُ جزءًا لا تُغطيه.

يلتف «ودود» حول نفسه، وعيناه شاخصتانِ تجاه اللوحات. يُراقبها بدِقَّةٍ، يفغرُ فاه، تلمعُ عيناه حينما تقعان على تلك اللوحة لفتاة...

- حبيبتك؟!

- أراقبها كل يوم... أحب رائحتها، أتمنى الاقتراب منها، لكن...

- أتخرجُ من هنا؟!... أيسمحون لكَ؟!

يبتسم.. يشيرُ إلى لوحة الفتاة...

- تمنيتُ أن ألمسها... لولا أن تفوح منها رائحة الرمان التي لا أطيقها...

يسعلُ «ودود»، الرائحة تزدادُ نتانةً كلما اشتعلت النار أكثر. يعتذر منه «آسن»، يقول بأن النار هنا تشتعلُ ببقايا من يُلقيهم الحاكم جراء ما عارضوه فيه. يقول بأن «والدته»، التي لم يعد متأكدًا بعد أنها أمه الحقيقية، حكت له عن اليوم حيثُ وجدوه فيه. تقول:

«لم نجد في بياضِ جلدك ولمعانه كمعدنٍ أصيلٍ، عيناك الحمراوان دفعتا القديس «رشيد» إلى الاعتقاد بأنك شيطان، وما زاد من الأمر، لما لوثت ماء البحيرة المقدسة. اعلم يا ولدي أننا لم نَذُق طعمًا لتلك البحيرة أشد حلاوةً من يومها، لكنك غيرت كل شيء، اعتدنا على ملوحة الماء، وبسببك رقصنا، ذقنا طعم الفرحة... لكنك... لوثتها!»..

- أمي مسكينة، قالت بأنها أخذتني منهم وتكفلت بكل شيء، لكني لا أستطيع البقاء في بيتها، فهي بالكاد تملك قُوتَهَا. قبلتُ بالعملِ هنا، بدلًا من القتل... «رشيد» هذا قال إنَّ عَيْنَيَّ الحمراوين تجعلانني قادرًا على البقاء في النار أكثر... أشار على الحاكم أن يأتي بي إلى هنا... فأنت تعلم يا صديقي الوحيد، أن الناس هنا يخشون النار، والمحرقة- كما أقنعوني- بحاجةٍ إلى من يُدير شؤونها... هكذا

ظننتُ، حتى أتيتُ، وجدتُ أن لا أحد يجرؤ على دخولها، الكل يخشاها، كما باتوا يخشونني... يمقتون ألوانها الكئيبة، تمامًا كما يمقتونني..

– ولكنك ترعرعت فيها، وأنت...

– أنا مضطر، حينما أتوا بي، لم يجدوها صالحةً لأي شيء، لا شيء سوى النار العظيمة التي تغلي في قِدرٍ كبيرٍ. لم يجدوا لي غرفة سوى هنا...

– هذه بِئرٌ يا فنان..

– هذه غرفةٌ... لم أعهدها سوى غُرفةٍ.. مكانٌ مُفرغٌ ألقي بجسدي فيه، وأبث حزني ليتخبط بجدرانه ويعود إليَّ...

كان «ودود» يتفحصُ عينَيْ «آسن»، العينيْن اللتيْن لا تذرفان دمعًا أبدًا. ينظرُ إلى اللوحاتِ من حوله. جميعها مرسومةٌ بالأسود والأبيض، جميعها مرسومةٌ بخطوطٍ قاسيةٍ، بعضها يكاد يمزقُ الورقة أسفله. قطعَ شروده «آسن»، لما همس في أذنه:

«أتريدُ الخروجَ معي في جولةٍ»؟!!

لم يقوَ «ودود» على الانتظار. رافقه، حيثُ جُحرٌ ضيقٌ بالكاد يسمحُ لفردٍ بالمرور، كان «آسنُ» قد حفره في زمنٍ بلوغهِ. رائحةُ العَفَنِ تهربُ كلما ابتعدوا أكثر عن المحرقة. الظلام لا ينتهي، حتى تبدَّت بؤرةُ نورٍ حمراء... نارٌ أخرى. خرجا، إلى الجزءِ الأكثر زحامًا في البلدة...

– منذُ أن أتوا بي إلى هنا، لم أشهد مكانًا في بلدتكم يحوي كل أولئك القوم... عدا يوم الغفران:

– ما هذه الرائحة؟!!..

«فتيات الرمان»... أو هكذا أطلق عليهم «آسن»، ليرد «ودود» بأنهن «عاهرات البلدة». يتأفف «آسن»، يغضبُ، يقول لا عاهرات طالما حبيبته فيهن. يضحك «ودود»، ويُكملان السير وسط زحامٍ شديدٍ،

لا أحد يسأل من أين أتى الاثنان، ولا أحد يُلاحظ «آسن» العجيب يسير بينهم. يصلان إلى صفٍّ طويلٍ، والكل ينتظرُ الدخول إلى صرحٍ ضخمٍ، يقفُ على بوابته أحد عماليقِ «الأخ الحنون»..

– أنا لم آتِ إلى هنا من قبل!!

يتعجب «ودود»..

يتعجب أكثر، من وجود أحد العماليق في مكانٍ كهذا. يقول «آسن» بأن مكانهم الطبيعي هو هنا، حيثُ تزدهر الأعمال.

دخلا، من طريقٍ آخر مخفي، كما فعلا أثناء الخروج من المحرقة. حيثُ كانت رائحة الرمان في الداخل هي الأكثرُ سطوة، بقيا. كلما سأل «ودود» عما يُبقيهما كل هذا الوقت، يرد «آسن» بأن حبيبته آتيةٌ، هي تأتي كل يوم إلى تلك المنضدة، تجلسُ على فخذيْ أحد الذين يدخلون هنا، وتفعل أشياءَ لم يفهمها «آسن»... حتى أمسكت به منذ أيامٍ يتفقدها. تركت زبونها، وباغتت الفنان من الخلفِ.

– هنا، اختطفتني تلك العجيبة، وغطت عينَيَّ وقادتني إلى مكانٍ مظلمٍ هنا... حتى إني لم أكن أعي أنه هنالك ما هو أكثر ظلمة من سماءٍ بلدتكم...

– وماذا بعد؟!!...

– لا شيء... اسمع... كانت تفعلُ معي ما فعلته مع الرجل على المنضدة... تعبثُ بيدها في الأسفل... وكنتُ لا أعي شيئًا، حتى أحسستُ برمحٍ يتصلب...

– ماذا؟!!... لا تُكمل...!

– اسمع، أنا لا أعرف ما هذا... لكن... من الواضح أنها كانت سعيدةً... ولما خرجنا، قالت بأنها ستسعد لو رأتني مرةً أخرى، وتركتني... أنا لا أفهم..!

- أنت غبي..!!

- لا... بل.. أنا فقط أحيانًا أشعرُ أنِّي لا أنتمي إلى تلك البلدة..

كان الجميعُ يرقصون ويُغنون. و«آسن» يسألُ «ودود» في استغرابٍ، عما يُجَرِّمُ الرقصَ والغناء في الخارج، بينما هنا الجميع لا يفعل سواه. كان الصديق يرد بأنه لا يدري، ولم يعد يدري عما يدور ببلاط «الأخ الحنون» سوى أن كل ما عليه فعله هو أن يدعو صغار السن من قوم الرمَّان إلى طريق النور، وأن يدعوهم لتمجيد النار التي منها يتدفأون.. ومنها يستنيرون في طريق الضلال.

طال انتظارُ «آسن»، لم تأتِ الحبيبة. كان «ودود» يتلفت حوله في خوفٍ، حتى لمحَ أحدهم يجالسُ عاهرةً. يلكز «آسن» لينظر، فيشير إلى الجالس، الذي يرتدي عباءةً حمراء تمامًا كالتي يرتديها...

- ما الذي أتى بهذا العجوز الخرف هنا؟!!

العجوز، من جماعة الاثني عشر، يجالسُ عاهرتين. قال «آسن» بأنه اعتاد رؤيته هنا، يفعل ما يحلو له، ولا يحق لأحدٍ أن يعترضه... وقبل أن يُكمل... أتى مُنَادٍ من الخارج... أحد المهرجين...

- زائرٌ جديدٌ... لباسُهُ من جَريد... وقلبُهُ من حديدٍ... يقفزُ إلى أحضان المحرقة!!

يتوترُ «آسن»، يتركُ صديقهُ ويركض... هاربًا من نفس الطريق حيثُ أتى. الجميع يركضون، تركوا ما بأيديهم، وإلى المحرقة يهرعون. الجميعُ يُرددون «زائرٌ جديدٌ... مجنونٌ جديدٌ»، ويضحكون بفجورٍ.

هرب «آسنُ» من الممر الخلفي. ركض حتى جُرِحَت قدماهُ، يُحاول الوصول إلى ثاني رجلٍ يأتي المحرقة خِلسةً، ويقفز. كانت البلدة تجتمعُ في ثلاث حالات... أما أولها، فهو يوم الغفران، وثانيها فهو

يـوم الأخبـار العظيمـة، حيـثُ يُـصَرِّحُ «الأخ الحنـون» بفضيحـةٍ مـا، ثـم يأمـر مُهَرِّجيـه بإلقـاء اللـوم عـلى «آسـن»... وعـادة لا تُـزاعُ الفضائـح في بلـد الرمَّـان إلا إن حـدث ولوحـظَ أن أحدهـم يمـشي في الطرقـات يرقـصُ ويُغنـي. متـى مـا بـدأ النـاس يتهجـون ولـو لقليـلٍ مـن الوقـت، صـاروا ينظـرون إلى السـماء الغامقـة، وبـدأوا يُفكـرون... وهنـا... يُؤمـرُ بحبـسِ كل مـن قـام بذلـك... بينـما ينـشرُ المهرجـون أكاذيبهـم وضحكاتهـم الفاجـرة بـين النـاس، كـي ينالـوا انتباههـم... فـلا ينظـرُ أحـدٌ إلى السـماءِ أبـدًا.

– زائـرٌ جديـدٌ... لباسُـهُ مـن جَريـد... وقلبُـهُ مـن حديـد... يقفـزُ إلى أحضـان المحرقـة!!...

رددهـا النـاسُ في الطرقـات، يركضـون صـوب البـاب الموشـوم، لا يجـرؤ أحدهـم عـلى لمسـه... فالنـارُ حارقـة... وهنـا... هـي المناسـبة الثالثـة، حيـث يجتمـعُ هـذا الكـم منهـم.

عـلى الجـسر العريـض، الصخـري، الـذي يربـطُ بـين فوهـة المحرقـة العظيمـة والبوابـة المؤديـة إليهـا... هَـرْوَلَ الزائـر. قصـير القامـة، دائـري الهيـكل، رخـو الجسـد، تتـدلى أعضـاؤه وترتطـم ببعضهـا. يشـقُّ بطنَـهُ جـرحٌ مخيـفٌ، فيُفـرغُ مـا بـه مـن أمعـاء... يُحـاول لملمتهـا وهـو يهـرول. تتزايـد سرعتـه، لَّـما يجـد «آسـن» خلفـه، ينظـرُ إليـه الأخـيرُ بعينـيْن باردتـيْن رغـم احمرارهمـا... والرجـلُ يبتسـم. يركـضُ «آسـنُ» بسرعـةٍ لم ينافسـهُ فيهـا أحـدٌ مـن قـوم الرمَّـان، ليرتبـك الرجـل مـن سرعتـه، ويسـقط...

– اتركني... اتركني أرجوك!!

– اسمع.. تركتُ مَن قبلك، لن أتركك حتى تُخبرني...

– لا وقت... أرجوك أعتقني... حررني... الـ.. الـ..

– لـن أفقـدَ شـخصًا آخـر في تلـك المحرقـة اللعينـة.... مَـن أنـت؟!!... لمـاذا تفعلـون كل هـذا؟!

- لا وقت... أمعائي تتساقط... أجزائي تتلاشى..

- مَن أنت؟!!

الجميعُ بالأسفل يُهللون، يُصفقون للعرض الجديد. «الأخ الحنون» يُراقب من البرج العالي، حيث يرى الجميع ولا يرونه. المهرجون يتشقلبون، يرددون ذات الجُملة، يذوبونَ وسط الزحامِ، وينثرونَ رذاذ الرمان.

«انظروا... ابن الظلام، الأبيض الكالح، لوَّثَ الماءَ المالح... يُمسكُ بالزائر الجديد، ويمنع عنكم البهجة والاحتفال... اتركه أيها الآسن... فدربُ الخطايا مُعتم... ودرب النور قريب»..

صاح الناس بالأسفل وهم يُراقبون، صاحوا بـ«آسن» أن يترك المسكين ليخلص نفسه من الملامة، ويتطهر من الذنب... بينما الاثنان بالأعلى، لا يسمعون سوى الصراخ..

- أترى؟!... هم يصرخون لأجلك... لا تقفز...

- أنت لا تفهم شيئًا... الأرض.. ليست كروية..

- ماذا؟!

- الأرض ليست كروية... لم تَكُن يومًا كروية.. أرجوك، اتركني أذهب إلى شمسي... قبل فوات الأوان..!

«عن أي شمسٍ يتحدث؟!... سمعتُ تلك الكلمة من قبل!!»

قالها «آسن»، وهو يتأملُ عينَيْ الرجل الجريح، ووجهه الذي شَحُبَ عن دقائق مرَّت. باغته أحدهم بقطعةِ صخرٍ ألقاها على وجهه من الأسفل، أفقدته توازنه، فترك الرجل... ليمضي راكضًا، بكل ما أوتِيَ من قوةٍ، نحو الفوهة الملتهبة. وَسِعَت ابتسامتُهُ وجهه- الذي كان حزينًا- لما لَفَحَهُ صهدُ الفوهة.. ومع الاقتراب أكثر حتى

بـات عـلى شـفا الهُـوَّةِ... التفـتَ إلى الخلـف... وقتهـا... عَلِـمَ «آسـن» أنـه لا فائـدة، اعتـدلَ في وقفتـه... حتـى قـال الرجـل: «شـكرًا لـك»..

نظــر «آســنُ» إلى القطيــع المجتمــع بالأســفل. يُهَللــون ويصفقــون، والمهرجــون يســلبون أبصارهــم مــن جديــدٍ، بحركاتهــم وضحكاتهــم الفاجـرة... بينـما نظـر «آسـن» إلى السـماء، التـي ازدادت خوفًـا... السـماء التـي لا ينظـرُ إليهـا أبـدًا «قـوم الرمـان»..

- «عن أيِّ شمسٍ يتحدثون»؟!...

❊ ❊ ❊

(٣)

لا ملجأ آخر له سوى تلك الغرفة، التي كانت من قبل بئرًا، تمتلئ بماءٍ حلو المذاق. لَّما اعتاد الناسُ شربَ الماء الحلو، واعتاد الحاكم- الذي بات «الأخ الحنون»- على عصير الرمان الفاخر، الذي تزايدت قيامته وقشره... تخلصَ من أطنانٍ من قشر الرمان، التي عفنت، بإلقائها فيه. تشربت قشور الرمان الماء، حتى عَطش الناس. امتلأت البئرُ حتى ما عاد قشر الرمان يُداري عفنه أكثر... حيث ثار الناس للمرة الأولى... وحيث أيضًا... ذُبِحَ الملايين منهم بوحشيةٍ، في تلك الحرب التي ما تركت شيخًا أو صغيرًا، رجلًا أو امرأةً، إلا ودفع ثمنها. أُلقِيَ بجثث القَتلى في البئر، لتُحرَقَ مع قشور الرمان الحامضة، فكانت أدخنةُ الفضيحة قاسيةً... متحجرةً، غامقةً... اشتعلت، ففَجَرَت. النار المستعرة لم تنطفىء إلا بعد أن أهلكت معالمَ البلدة، وقتلت المزيد. تسربت من البئرِ لتشمل كل أثرٍ من آثار الرمَّان في البلدة، كل بيتٍ حَوَى رمانًا. النار الغاضبة، لم تكتفِ، ولم تشبع من الناس... حتى أهلكت زمرةً من حراس الحاكم، أحرقتهم... لكنها لم تكن كافيةً لقتلهم. شوَّهت وجوههم، فصارت أنوفهم كالمناقير، أذابت جلودهم وتركت عظام الوجه عريانة، مقززة... وأحرقت ملابسهم الملونة... حتى قَصُرَت لتُعَرِّي بطونهم المنتفخة، التي ما شبعت أبدًا.

النـار التـي، مـا تركـت أدخنتُهـا حيـزًا إلا وخَنَقَتْـهُ... انطفـأت، وكل شيءٍ انطفـأ معهـا.. حتـى البَسـمة. في ذاك الوقـت، كان الحاكـم يميـلُ إلى المكـوث أكثـر، حيـثُ أعيـدَ بنـاء كل رقعـةٍ مـن قـصره، مـن حجـارةِ البيوت المهدومـة... وأُشـعِلَت كل شـعلةٍ تنـير القـصرَ... بأشـلاءِ الجُثَـثِ. عندمـا احـترق جماعـةٌ مـن اثنـيْ عـشر فـردًا مـن شُـعراءِ الحاكـم المقربـين، هلعـوا يَجْـرُونَ بـين النـاسِ وحروقهـم تـزدادُ غضبًـا، ترسـمُ شـتى أنـواعِ العـذاب عـلى أجسـادهم... لا أحـد يقـترب منهـم، لا أحـد يحـاولُ إطفاءهـم. هلعـوا إلى الكهـف... حيـثُ وجـدوا، للمـرة الأولى، البحـيرة التـي كانـت تُغـذي البئـرَ بالمـاءِ الحلـو. فـورَ أن رآهـا عجوزهـم... صـاح:

– كنا على شفا حفرةٍ من الهلاك... والقدير يمد لنا يد العون...

قفـزوا جميعًـا بالبحـيرة... يتمرغـون ويغسـلون جلودهـم... التـي... بـدأت تعـود بالتدريـج إلى شـبابها وصحتهـا... بينـما، تركـت الجَلَـخَ وبقاياها المُجَعَّـدة الميتـة بالبحـيرة... فَمَلُـحَ ماؤهـا..!

خَرَجـوا منهـا سـالمين، يتبادلـون النظـراتِ الفَرِحـة. أحدهـم تـذوق المـاء الـذي كان حلـوًا... لِتُمْقِتـهُ ملوحتـه ويبصقـهُ...

– هـذه معجـزة... أننـا لم نَفـنَ مثـل القـوم الظالمـين... المعارضـين. كُنَّـا عـلى صـوابٍ يـا إخـواني، اسـمعوني جيـدًا... لقـد كان القديـرُ يرعانـا منـذ أن اندلعـت تلـك الحـرب الشـعواء، كان يـرى بعـين الرأفـة، لقـد أحـرَقَ الكثيريـن مـن القـوم، ولـو أرادنا معهـم لفعـل... لكنـه... لكنـه اصطفانا... ربـما فقـط، أراد أن يطهرنـا مـن ذنوبنـا، ربـما اصطفـى اثنـي عـشر وقادهـم إلى تلـك البحـيرة... أجـل.. البحـيرة المقدسـة... ألسـتم معـي؟!!... تلـك رسـالة... و..

– ولكن يا كبيرنا... البحيرة لم تكن مالحةً... لقد كانت...

– أمـا زلـتَ تجـادلُ يـا فتـى؟!!... أنـت أصغرنـا ومـع هـذا شَـهِدت معجـزة المـوت...

– البحيرة كانت حلوة...

اهتـاج العجـوز، نظـر إلى باقـي الأفـراد، يسـتحلفهم بعينيـه أن يصدقـوه. لم يَـذُق أحدهـم البحـيرة، سـوى الفتـى والعجـوز، لَمَّـا كان الاختيـار بـين أكبرهـم وأصغرهـم... اختـاروا أن يصدقـوا قـول العجـوز... القـول الـذي صـار أسـطورة بلـد الرمـان مـذ ذاك اليـوم...

«لقـد عذبنـا القديـر بذنوبنـا... ولَمَّـا تكـرم علينـا بنظـرةٍ، وتأمـل حالنـا بالرحمـة... بكـى لأجلنـا... القديـر بكـى لأجـل اثنـيْ عـشر رجـلًا مـن الصالحـين... قادهـم إلى كهـفٍ نـاءٍ... وبكـى، لتتسـاقط دموعـهُ عـلى الجبـل... تشـقُّ طريقهـا عـبر صخـوره، حتـى تحـطُّ عـلى حفـرةٍ كبـيرة... شَـكَّلَت بحـيرةً مقدسـةً... أطفـأت نارنـا... وأنهـت عذابنـا... وسـتنهي عـذاب قومنـا كل عـام».

لَمَّـا خَرَجـوا مـن الكهـفِ، كانـت السـماءُ غضْبَـى، كظيـمٌ لونهـا، خَمَـرَ الدُّخـانُ جمالهـا، وأرْكَـسَ بهجتهـا. كان كل شيءٍ متشـبعًا بالدَّنَـسِ، والنـاس بالطرقـاتِ يجلسـون، يندبـون حظوظهـم... يقولـون: «ليتنـا تركنـا الحاكـم يـشربُ الرُّمَّـان»... وبينـما تعالـت أصـواتُ النسـاء والبنات، كانـت أصواتُ الرجـالِ والوِلـدانِ بالـكاد تُسـمَعُ. مـات أكثـرُ الرجـالِ والصبيـان في حـربِ الرمَّـان، ومـا حَمَـى النسـاءَ مـن الحريـق أنهـن كُـن يبقـينَ في بيوتهـن، لا يخرجـنَ إلا لقضـاءِ حاجـةٍ لبعولتهـن. كان يُمنَـعُ عـلى أي امـرأةٍ أن تخـرجَ أو تمتهـن أي مهنـةٍ في تلـك البلـدة. لَمَّـا خَرَجـنَ بعـد الحريـق الكبـير والحـرب، وجَـدنَ أنهـنَّ لم يتعلمـن أي شيء، لم يَعرِفـنَ حقيقـة البلـدة أو يعرفـنَ مـن أيـنَ يَجنِـينَ أرزاقَهُـنَّ... وجـدنَ أن الحيـاة قاسـيةٌ، خـارج جـدران البيـوت. وجـدنَ أن النسـاء في تلـك البلـدة لا يُجِـدنَ سـوى شيءٍ واحـدٍ... وهـو مـا

لم يَفعلنَ سواه منذ اللحظة الأولى لخروجهن من البيوت، التي لم يعُدْنَ إليها ثانية!.

كان هنالك منزلٌ، كبيرٌ، وكان اللون الأصفَر يطلي حجارته.. بل إن.. حجارته كانت صفراء الأصل. بناه عماليق الحاكم من حجارةٍ أتوا بها من الكهفِ، حيثُ البحيرة المقدسة. في الكهفِ أحجارٌ ملونةٌ، لم يُرى مثلها في أيِّ مكانٍ حتى خارج أسوار بلد الرمَّان. الحجارة الصفراء تعكسُ الشمس، التي كانت- قبل الحريق- بالأعلى، فتضفي طابعًا ذهبيًّا، يسرق الألباب، ويخطفُ الأعيُنَ، فكان المنزلُ الأصفر مقامًا لِشُعراءِ الحاكم، يتغزلون في جماله، وتُقام فيه المآدِبُ ويؤتَى من كل امرأةٍ شكلا ولونًا، لإمتاعِ الحاكم. بعد الحريق الكبير، أخفى الدخانُ اللون الأصفر، طلي المنزلُ بالأسود، و تهَدَّمَت بعضُ أركانه... لكنه ما زال للمتعةِ قائمًا. بعد الحريق الكبير، أطلقَ الحاكِمُ مُهَرِّجيه بالطرقات والشوارع، يصيحون في النساء والبنات التائهات الضائعات...

- الأصفَرُ ملجأكُنَّ... الأصفرُ ملاذكنَّ... الأصفرُ حيثُ تُقَسَّمُ أرزاقكُنَّ...

كانت تلك نصيحةُ عجوز الشعراء الاثنَيْ عشر، لما سُئِلَ عما يمكن فعله بكل تلك النسوة، واستساغ الحاكم رأيه..!.

استقرَّت الأمور، في البلدة التي لم يُغادرها دخانُ الفضيحةِ أبدًا، وسوادُ النكسة التي حلَّت، ظهرَ الحاكمُ بعباءته الجديدة... يخطبُ في شعبِهِ...

«يا قومي... لقد مررنا معًا بأزمةٍ حادةٍ... فتنة أهلكت بلدتنا، وفرَّقَت شملنا. يا قومي إنَّا خَسِرنا في تلك الحرب الطاحنة أفضلَ رجالنا وصبياننا، وأقول، إننا سَنَمُرُّ بسنواتٍ عِجافٍ ريثما نعود

كـما كنـا، وريثـما تعـود الشـمسُ مـن جديـدٍ. منـذ هـذا اليـوم أنـا لسـتُ بـ«حاكمكـم»... أنـا «الأخ الحنـون»... لا أقـول الأب... وإنـما الأخ... أنـا أقـربُ إليكـم مـن أمهاتكـم وآبائكـم... وأقـول لكـم، إنَّ مـا كان سـببًا في دمارنـا، وهـو الرمَّـان... سـيكون سـببًا في بقائنـا أحيـاء وأقويـاء بـين البلـدان الأخـرى...».

أصـدرَ قـرارات بـأن كل امـرأة في البلـدة عليهـا أن تعمـل، فأيـام المكوث في البيـت قـد ولَّـت. النسـاء لا يُجِـدنَ سـوى عمـلٍ واحـدٍ في تلـك البلـدة، فرَضِـينَ بالعمـل كعاهـراتٍ بالبيـت الـذي كان أصفـرَ زاهيًـا. أصـدر قـرارًا آخـر، بـأن زراعـة الرمَّـان مـا زالـت قائمـةً، بـالأراضي الخـضراء الشرقيـة... حيـثُ الشـمس مـا زالـت بهيجـةً بالسـماء... وبـأن... كل مـا سيتكسـبونه مـن زراعـة المحاصيـل، سيُسـتَغَلُّ في التسَـلُّحِ للحـرب عـلى أعـداءِ البلـدة. كان هـذا التقليـد يجـري في كل عـام. يزرعـون طـوال العـام محصـول رمَّـان عظيـم، يـأكل منـه فقـط «الأخ الحنـون» وكل مـن ينـال مـن محبتـه نصيـب... والباقـي يُعَـدُّ بـه العِتـاد والجيـش، لخـوضِ حـربٍ عظيمـةٍ... «حـرب الرمَّـان»... التـي لا تنتهـي أبـدًا.

جلـس «آسـنُ»، يتأمـل لوحاتـه. يتذكـر وحدتـه، وعزلـه إلى تلـك المحرقـة الموحشـة. الرائحـة تـزدادُ نتانـةً هنـا، و«آسـن»، الـذي لا يـذرفُ دمعًـا، وأخـذ لونـه في التغـير إلى أبيـضَ أكثـرَ تُرَابِيَّـة، كان يُفَكِّـرُ في تلـك الكلمـة، التـي لا ينطـقُ كُل زائـرٍ مـن الـزوار المنتحريـن في المحرقة سـواها...

«عن أي شمسٍ يتحدثون؟!... ما تلك الكلمة؟!»

حتـى تذكـر مـا قالـه لـ«ودود»... لَّـما سـأله الأخـير عـمَّا يتمنـاه عـدا المكـوث في تلـك المحرقـة اللعينـة.

«أنـا لا أنتمـي إلى هنـا يـا ودود... لا أشـبهكم، لا لـوني ولا شـكلي...

أنـا أرقـصُ، فيتهمونـنـي بالجنـون... أغَنِّـي، فيلعنونـنـي لأنِّي أُعَلِّـمُ أبناءهـم «السـحر والترانيـم» كـما يدَّعـون... لا أحـد ينظـرُ إلى سـمائِكُم الكئيبة غيري، لا أحـد يتسـاءل عـن لونهـا، لا أعـرف إن كانـت للسـماءِ ألـوان أخـرى، لكـن، أنـا فقـط... أخافهـا يـا «ودود»، لمـاذا لا ينظـرُ هـؤلاء الملاعـين إليهـا مثـلي؟!... ويـرون مـا أراه؟!!..»

لا يُعـيره أحـدٌ اهتمامًـا، ولا يفهمونـه، فـكان يرسـمُ ويرسـمُ ويرسـم... يـسردُ آلامـه ومخاوفـه في الغرفـةِ النتنـة... في صمـتٍ.

❊ ❊ ❊

(٤)

اللوحةُ الأولى...

دائرة، عريضة، سوداء، على أحد جدران البئر الدائرية...

كانت تلك اللوحة الأولى.

«آسن»، الذي ما كانَ آسنَ قط، لَّما أتوا به إلى ذلك المكان الكئيب، كان لا يزالُ صبيًّا، له عينان وأذنان فقط، بوجهٍ يخلو من أنفٍ وفم. يغطي جسده- الذي بَهُتَ لونه كثيرًا عما بعمرٍ أصغر- قماشٌ أبيضُ متسخ. لا أحد من أهل البلدة أو عماليق الحاكم كان قادرًا على الدخول من بوابة المحرقة الموشومة، فكان الطريق الوحيد لدخولها هو طريق البحيرة المقدسة، حيثُ مجراها الذي يوصلُ إلى بئرٍ عرضها أمتارٌ، جَفَّت، بعد حادثة الرمان. فَوْرَ أن دخلوا الممر، بدأ «آسنُ» يَحُك وجهه، وكلما اقتربوا من البئرِ أكثر، ازدادت الحكة، وازداد ألمُ الصبي... حتى وصلوا إلى فتحة البئر من قاعِها، فتَفَشَّتْ أكثر الروائحِ عفونةً في المكان، حيثُ بالكاد سد الحُرَّاس أنوفهم... بينما... كانت تلك المرة الأولى.. التي نَبَتَ فيها، بوجه «آسن»، شيءٌ دائريٌّ ذميمٌ، شكله يعيبُ تكوين وجهه...

نبتت له للمرة الأولى أنْف...

- يا رفاق... انظروا الآسن اللعين...

- اتركوه هنا ولنرحل، أخشى أن أتلمس قطعةً مني فأجد وباءَه قد نبتَ بي!!

زجُّوا به، ورحلوا...

بَقِيَ مدةً، لا يعلمُ قدرها، في تلك البئر. ينظرُ حوله، يكادُ من الفراغِ أن يُتِمَّ عَدَّ كل حجرٍ بُنِيَت منه البئر من القاع صعودًا إلى أعلى... حيث القمة... حيثُ لا شيء سوى دائرةٍ بعيدةٍ، ظَلَّت بذاكرته حتى كاد يُجَنّ.

حاول تسلق البئر، وكان الفشلُ صديقه الوحيد. لم يكن أمامه سوى أن يسلك الطريق الذي أتى منه. خشيَ أن يأخذَ الشعلة الوحيدة التي تركوها له، فلو انطفأت لمات هنا خوفًا. سلك الطريق من البئر المؤدية إلى البحيرة، يتخبطُ بأشياء ومخلوقات لا يدري عنها سوى العَضِّ والجروح التي سببتها له، لا يقدر على الصراخ بوجهٍ بلا فَم!. النور الأحمر، الآتي من الشعلة العظيمة بدأ يقترب من جديدٍ، حتى وصل... ليجد الشِّبَّاك الحديدي الذي يفصله عن البحيرة... مُغلقًا!.

عاد من حيثُ أتى، بجروحٍ أخرى، يدوس على ذات الأشياء التي كان يسمع تكسيرها، حتى عادَ إلى البئر. أمضى مدةً طويلةً من جديدٍ، لا يدري عنها شيئًا، ولا أحد يأتيه. الرائحة تزدادُ نتانةً، وأنفُهُ الذي نبت يزداد قُبحًا ويتضَخَّم... حتى اعتاد على الرائحة، وتوقف أنفُهُ عن التَضَخُّم..!

مدَّة أخرى مضت، كسابقها. هذه المرَّة، أخذ الشعلة، سلك الطريق المؤدية إلى البحيرة. هذه المرَّة، رأى ما جحظت عيناهُ لأجله. جثثٌ محروقةٌ، مُلقاةٌ على جانبيْ الممر، داسَ على ما داسَ منها، وهشَّمَ ما هَشَّم، والفئرانُ التي جرحتهُ وعضَّتهُ، خَشِيَتْ النَّار، تمامًا كما

يفعلُ قوم الرمَّان، وهَرَبَت. «آسنُ» لا يذرفُ الدمع، لا يخاف النار ولا يخاف الأجساد المتفحمة... فقط... يتحسسها بيده، ويتأمل اللون الأسود الذي صَبَغَتهُ بها. تتفتت بين أصابعه، وبعضها جامدٌ، قاسي السطح. يحمل لدى عودته بعضًا منها، ثم يضيءُ أركان غرفته الأبدية الجديدة، البئر التنتة، ليجد بقايا جثثٍ متحجرةٍ متفَحِّمةٍ. يتكئ على أحد حوائط الغرفة، يجلسُ من التَّعَبِ ويُخرِجُ ما أتى به من حجرِ الفَحمِ من الجُثَثِ. يوجِّهُ الشعلة إلى الحائط المقابل، ثم ينظرُ إلى أعلى البئرِ... يرسمُ بالفحمِ عليها، دائرةً بعرضِ جَسَدِهِ. ينظرُ من جديدٍ، إلى الأعلى، يغضب... ثم يرسمُ دائرةً أخرى، أكبر حجمًا. يتأملُ حاله، والسكون الموحِشِ من حوله، يتنفسُ بصعوبةٍ، تجحظُ عيناهُ... يُحاول الصراخ... يُحاول... يُحاول..

حتى ينبتُ له... فَمٌ..كبيرٌ... بأسنانٍ حادةٍ، فيصرُخُ ويَسْعرُ... للمرةِ الأولى منذ أن وُجِدَ في الحياة.

***

(٥)

اللوحةُ الثانيةُ...

فأسٌ وسَيفٌ... وحَجَر.

في رحلته الثانية، بحثًا عن طريقٍ للخروج من البئر، وجد بينَ الجُثَثِ فأسًا سَوَّسَ مقبضها الخشبي السُّوسُ، وسيفًا نصلهُ حادٌّ كأنه جديدٌ. أخذ كليهما، ركضَ في الممر الذي بات يحفظهُ حتى في الظلام، ولَّما وصل للشِّبَّاك الحديدي، ضرب بالفأسِ وقتًا، حتى كادت الفأس تَبْلَى... لكن سبَقَهُ الشّبَّاك. المرة الأولى التي يشم فيها رائحة أخرى، ويرى، أشياء عجبًا. كان أوَّلُ ما رأى حِجَارَةً بأحجام شَتَّى... وألوانٍ زاهيةٍ، رغم الظلام. الشعلة العظيمة، المُعَلَّقةُ في القِدْرِ المُسَلسَلِ أعلى البُحَيرة تُلقي بنورها على الأحجار... فتَقلِبُ الأزرقَ بنفسجًا، وتُشعِلُ الأحمرَ منها درجات، وتُكسِبُ أصفرَهَا سطوةَ الجحيم، وتعكِسُ جمالها الحقيقي على سطوحِ الأحجار الشفَّافَة. يقفُ مشدوهًا، أمامَ عظمَةِ الألوان، التي لم يَرَ مثلها في أي مكان. يتفقَّدُ كل شبرٍ منها، ويتذكَّرُ أن تلك التكوينات اللونية، هي أول ما وقعَ أمام وجهه... لتتبدَّى من الظُلمةِ أنوارٌ ملونةٌ، منعكسةً منها على وجه الطفلِ الذى كان يحبو... وتتشكَّلُ للمرة الأولى له... عينان. عينان مرسومتان بعِنايةٍ، تلونتا بالبنفسج أولًا، ثم نظر للحجارة الصفراء التي عكست البرتقالي،

فأكسبت عينَيْهِ لون الانعكاس... حتى انتهى بالنظر إلى الحجارة الشفافة، الكريستالية، حيثُ عكست الأحمر، الملتهبَ، من الشُّعلةِ العظيمة أعلى البحيرة... فكانت عيناهُ أكثر حُمرةً.

خَرَجَ من الكهفِ، إلى ظلامِ المدينةِ، مُتَّشِحًا بقماشٍ لامع، وَجَدَهُ مُلقى يُغطي إحدى الجثث المتفحمة. خَرَجَ للمرةِ الأولى بينَ الناس، يتأملُ حالهم. يتسللُ بين زحامهم الخامل، لا أحد تظهرُ عليه أماراتُ السرعةِ أو النشاط. مجموعاتٌ راكدةٌ توزعت في الطرقات، يجلسون بلا حراكٍ، أو يتسامرون عن كُلِّ شيءٍ... ولا يصمتون أبدًا. بعضهم يحملُ شُعلة، مقبضها مطعَّمٌ بالذهب، يرتدي عباءةً تُشبه تلك التي تلف جَسَدَ «آسن»، فيمشي في الظلامِ بارزَ الخُطى... يتبعهُ زمرة من العراةِ، بالكاد يستنيرونَ بنورهِ، ويتدفئون بدفء شعلته، وإذا تجاوزَ أحدهم الحد واقترب أكثر، تحرقهُ نارُهُ، فيعود إلى الوراء قليلًا... يتبعون نوره حتى لو انكشَفَ عُريُهُم في ذات النور.

البعضُ الآخر، يحملُ شُعلةً مقبضها من خشبٍ، يسيرُ بينَ الناسِ، لو اقتربَ من أحدهم هَمُّوا بهِ. يلتفون حوله، آتينَ ببعضِ الجريد والأوراق، يعملونَ منها شِبهَ شُعلَةٍ، فيشعلها لهم... لتصمدَ الشعلةُ البَخسَةُ قليلًا، فيفرحون بها، حتى تأكلها النار وتحرق الجريد والورق... فيَغرَقُوا في الظلمةِ مرةً أخرى.

الشعلة التي كان يحملها «آسن» مصنوعةٌ من عظام. عظام كانت متبقيةً من إحدى الجثث التي لم تمسها النار. ويشعلُ نارها بحجارة فحم من جثثٍ أخرى في الممر. كلما رآهُ أحدهم، وسَلبَت لُبَّهُ قوة النارِ التي تنبعثُ منها، يقترب منه، يحاول تفقُّده، فيطرده منظرُ وجه «آسن»، حيثُ الأسنان الحادة والأنفُ القبيح الكبير. بعضهم، كان يُحاول استدراجه بالحديث، اطمأنوا له لوجود تينك العينين الجميلتين الحمراوين... كُلٌّ رأى فيه ما أراد، وكُلٌّ عامله بما رآه...

– أعطني مما أعطاكَ تلك العباءة...

عجوزٌ مُشَوَّهٌ، جالسٌ على الطريق، عارٍ لا يسترهُ إلا الظلام. التفت «آسنُ» بالشعلةِ يُحاول استكشافه، ليُدَارِي العجوزُ عُرْيَهُ ويبكي... يقول «اعطني مما أعطاك تلك العباءة»... لم يفهم «آسنُ»، خلعَ العباءة وغطَّاهُ بها. رَمَقَهُ العجوز بنظرةِ انبهار، سرعان ما انقلبت حزنًا... وقفَ بصعوبةٍ على ساقَين هزيلتين، بكى...

– ما الذي أتى بآسنِ الوجه طيِّب القلبِ إلى بلد الرمان؟..

التفت الجميعُ حوله، كل من لديه شعلة وجَّهَها صوب الصوت العجوز. «آسنُ» كان عاريًا، لم يَعُد الظلام ساترهُ تمامًا كما العباءة. الجميع يتفقدهُ، يتفقدون هيئته ووجهه. الجميع يتكلم ويثرثر، لا يتوقفون أبدًا... و«آسن» يتوتر، يفعلُ الشيء الوحيد بفمِهِ الذي أجاده وقتها... الصراخ!. صرخَ بشدةٍ حتى هَلَعَ مَن حولهُ... انطلقَ يعدو حاملًا شعلته، والجميع يركضون خلفه، يستهدونَ بنوره في الظلام، مهما حاول الاختباء كانت شعلةُ العظام تفضحهُ... حتى اهتدى إلى الطريق الذي أتى منه، أطفأ الشعلة... وذابَ في حِضنِ الظلام حتى اختفى.

❊ ❊ ❊

٦

اللوحة الثالثة...

أحدهم يطرقُ البوابة الموشومة...

أحدهم، يُنادي اسم «آسن»...

«أيها الآسن»...

ينتفض من نومه، يتلفتُ حوله، يصطدم بصره بحوائط البئر، ولوحاته عليها. يتذكر أن ما كان فيه لم يكن حُلمًا... حتى ذلك الصوت الغاضب، الذي بات يوقظهُ كل مدةٍ من الزمن، بعد كل مرة يهربُ فيها من المحرقةِ إلى الخارج، ويمشي بين الناس. بعد كل مرةٍ بات يتعلم فيها حديثهم، يستقي من ثرثرتهم حتى طال لسانهُ ليتناسب مع فمه الكبير. بعد كُل مرة يرتمي في بحور حكاياتهم التي لا تنتهي، يسمعُ ويسمعُ حتى كَبُرَت أذناهُ، لِتَسَعا في جُعبتهما كل الأحاديث، وجَحظت عيناهُ واتسعتا، من كل فضيحةٍ سَمِعها... عن مروجِ الرمان التي تقَعُ في الأراضي الشرقية، التي تُغَذِّي البلد، وتُغَذِّي الحرب التي لا تنقطع... عن البيت الذي كان أصفر، الذي بات للعاهرات ملجأً، وللمتألمين مَهرَبًا، وللغلابةِ حُلمًا بالولوجِ إليه، ولكلِّ صاحبِ نفوذٍ مَطمَعًا.

«أيها الآسن... افتح!»..

الطَّـرْقُ لا يتوقـف، وصـوتُ المنـادي لا يلـين. ينفُـضُ «آسـن» عـن جسـدِهِ تـراب الأرض، وينظـرُ إلى أعـلى البئـر، حيـثُ صنـعَ سـلمًا مـن العظـامِ والأخشـابِ، يمتـدُّ في جـدران البئـرِ الداخليـة حتـى أعـلى الفتحـة، حيـثُ رأى للمـرةِ الأولى المحرقـةَ مـن الداخـل. صعـدَ السـلم، سريعًـا، وصـلَ البوابـة الموشـومة ركضًـا، وقبـل أن يكـف الطَّـرْقُ، فتـح البوابـة.

عملاقـان قـذرا الهيئـةِ يقفـان خلـفَ عجـوزٍ يرتـدي عبـاءة حمـراء، يكـشر «آسـن» عـن أنيابـه كلـما رآه في زيـارةٍ كتلـك..

- ألن تَكُفَّ عن ألاعيبك تلك يا «آسن»؟!

- «رشيد»؟!!... ألم تيأس بعدُ منِّي؟!

- الناس يتحدثون... لم يكن هذا اتفاقنا..

- أيُّ نـاس؟!... الذيـن لا يرجـون إلا دفءَ النـار بينـما يخشـونها؟!... الذيـن يرقصـون بالبيـت الـذي كان أصفـر بينـما لا يتجـرأون عـلى الرقـص خارجـه؟!!... الذيـن يتمنـونَ الرُّمَّـان، ويمقتـون هـذا «الأخ الحنـون» لأنـه يقطعـه عنهـم، بينـما قامـت الحـربُ في الأصـل بسـبب تلـك الفاكهـة الخبيثـة؟!!... عـن أي نـاس تحدثنـي يـا كبـير الشـعراء؟!!

يدخـلُ «رشـيد»، يزيـحُ أحـد العملاقَـينِ «آسـن» مـن طريقـه، يتجـوَّلُ كبـير الشـعراء في البهـو، حيـثُ تـزداد الحـرارة كلـما اقتربـوا أكثـر مـن فوهـة المحرقـة، التـي تبعـد عنهـم بمئـات الأمتـار.

- ماذا تريد؟

- ...

- حدِّثنـي بصـدقٍ... أنـا أعلـمُ أنـك إن أردت الخـروج لفعلـت، ولـن أكـذب عليـك، النـاس تتحـدث... هنـا... لا أحـد يصمـت يـا «آسـن»، ولا تأمـل أن تُخفـي شـيئًا في بلدتنـا.

– أريدكم أن تتركوني... أو تحرقوني في ناركم اللعينة، وتريحوني من عذابي!!

– اسمعني، إن وُجِدَ مخلوقٌ على تلك الأرض يوَدُّ أن يتخلص منك، فلن يكون سواي... أنا حتى لا أعلمُ لماذا يُبقي عليك «الأخ الحنون»... لكن يبدو.. لسببٍ ما، أن وجودك ضرورةٌ هنا..!

تركَهُ «رشيد» والعملاقان، لكنه، قبل أن يُغادر، صاح فيه «آسن»...

– اسمع... أود أن أطلب... أود أن أعرف «من أنا»؟!!

– وهل هذا طلبك الوحيد؟!

– نعم...

– ممم... أنا لا أقدم خدماتٍ مجانيةً... لكن دعني أنظر في الأمر، وإياكَ أن تخرج من المحرقة حتى آتيك بالرد..

– سأنتظر..

في الخارج، كان الناسُ ينتظرون حامل شعلة العظام، الذي يَكسِي العاري، ويُشبعُ الجائع... الذي يسمع ترهاتهم وآلامهم بلا ملل. الناس اعتادت على ذلك المخلوق الذي ليسَ منهم، لكنهم منه... الذي لا يشبههم، لكنَّهم جَسَّدوا تفاصيله، حتى بات لا يفرقه عنهم سوى حديثه عن تلك الأشياء العجيبة، والألوان والأشكال، والحجارة بالبحيرة المقدسة. يلتفون حوله، لا يفهمون قصصه، ورغم رائحة العفن التي التصقت به من البئرِ، بدأوا يعتادونها، يألفونها، حتى صار البعضُ يتقربُ منه فيمسحُ على جسده الأبيض الباهت... عَلَّهُ يأخذُ من ريحِهِ. كانوا كلما سمعوا عن الأحجار الملونة، يهيمون، ثم يدورونَ في دوراناتٍ كأنها رقصةٌ جديدةٌ بدأت تتشكلُ وسط الكآبة. يفردون أذرعتهم، يُحاولون النظرَ إلى السماء الكحيلة المَيتة، يكتئبون

وينظرون إلى أسفل، محاولين تناسي تلك الحقيقة عن سمائهم... لكنهم لا يكفون عن الدوران والرقصِ أبدًا.

كان «آسن»، كلما اختفى عنهم، وعاد من جديدٍ... فلا يجد بعضهم... لا يجد من كانوا يرقصون ويُهللون. يسألُ عنهم، ليخبره أحد الباقين في الزحام أن العماليق أتوا ووضعوهم في أقفاصٍ ضيقةٍ، وقادوهم إلى حيثُ الظلام. «آسن» يستعجب، فيسألهم: «أهناك ظلام أكحلُ من ظلام البلدة؟!»... يُجيبون:

«الظلام الذي نَسَجَ منه الأخ الحنون ظلامنا»

كان يخشى عليهم من الحبس في الأقفاص، كَفَّ عن سرد حكاياته، لكنهم ما تركوه. كلما عثروا عليه يمشي بينهم، التفوا حول شعلته التي ما رَدَّت بردان إلا ودفَّأَتهُ، وما تركت أعمى إلا وأنارت بصيرته قبل بصره. كانوا يُقسِمُونَ له بشرفِ الرمَّانِ أنهم لن يفضحوا أمرهُ إذا سُئِلوا عنه... لكنَّهُم... لا يتوقفون عن الثرثرة أبدًا، فيأتيه «رشيد»، يتوعدهُ بشتى أنواعِ العذاب. يخرجُ للناسِ مرة أخرى، يسردُ الحكايات، يُقسِمُونَ له بشرف الرُّمَّان ألا يتكلموا... وبعدها بأيامٍ، يأتيه «رشيد».

«آسن»..

الذي لم يكن آسنَ...

لَّما عاد يخرجُ بينهم، كان يتجنبُ الزحام. سئمَ من ترهاتهم وحكاياتهم. سئمَ من سرد حكاياته عن الألوان والعالم الآخر الذي تَمَنَّى أن يذهب إليه، سئمَ من القوم الذين لم يرَ منهم أحدًا يعمل عملًا حقيقيًّا، أو يُحاول كسبَ قوتِهِ بعَمَلٍ. كان من بين من يسرد لهم، رجلٌ، لا يزالُ يتمتعُ بقوةِ الرجال، يستمعُ إليه باهتمامٍ بالغٍ.

كان الرجل أبًا لخمسِ بنات، وجميعهن يعملنَ في البيت الذي كان أصفر. لَمَّا سأله «آسن» لماذا يتركُ بناته يعملنَ كعاهراتٍ، كان الرجل يرد بسعادةٍ، يقول إن القانون هو القانون، والقانون هنا، في تلك الظروف، يقتضي بأن تعمل النساء والبنات... هذا أفضل للجميع..

– ولكن... أنا ذهبتُ إلى هناك، المكان لا يليقُ بأحدٍ... رأيتهم يضربون النساء، يُجبرنهن على فعل أشياء لم أفهمها فقط لكي يستمتعوا... النساء هناك يا رجل ملطخاتٌ بأنواع الأطعمة، والرجال من حاملي الشعلات ذات المقابض الذهبية يَلعَقونَ الطعام على أجسادهنَّ....

كان الرجل سعيدًا بما يحكيه «آسن»، يستمعُ باهتمام. يقول إنه لا يمكنه الذهاب إلى ذاك المكان ولا يتحمل كلفته... لكن لو أن بناته يمكنهن أداء وظيفتهم كما يحكي هو، لهو فخرٌ له.

«في السابق، لَمَّا علمتُ أن زوجتي وضعت أول بنتين، لم أفكر بشيء سوى بكيفية إعالتهن. الحياة هنا صعبةٌ، والنساء قبل الحرب كُنَّ لا يخرجن من البيوت، ولا ينبغي أن يخرجنَ. فكان حملي ثقيلًا يا «آسن»... كنتُ سأعول فردين يأكلان كالغنم بلا شبع. بعدها، صُعِقتُ لَمَّا أتت الثالثة، والرابعة... وكانت مصيبتي بالخامسة الشقراء عظيمة. الجميع هنا بالبلدة كانوا يُعَزُّونَنِي على تلك المصيبة. لكن انظر، بعد الحرب، وصدور القانون الذي جعلَ من كل امرأةٍ عاملةً... أنا الآن من الأثرياء... حتى الصغيرة «دُرَّة»، الشقراء، تلك الشقية، تجني لي أكثرَ من الأخريات. «الأخ الحنون» ربما لا يكون أكثرنا شرفًا، بل إني أحيانًا، أشعرُ أنه يُطالبنا بمناداته بالأخ بدلًا من الأب لأنه، بيني وبينك، ابن عاهرة، لم يُعرَف له أب، تمامًا مثل الملايين الذين

يُنجَبونَ كل سَنَةٍ بالبلدة بعد «طَقس الشرعية»... لذا أقول، هو ليس مثاليًّا... لكن انظر يا رجل، على الأقل نأكل».

لم يتوقف «آسن» عن الانبهار، لكن، ما أوقفه عن الاستماع، فقاطع حديث الرجل... «طقس الشرعية».

سأله عن ذلك الطقس، فقال أحد المستمعين الذين كانوا ينكمشونَ ويُمجدونَ الحاكم في كل كلمةٍ يُنطَقُ فيها اسمه...

«النساء هنا لا يتزوجن، أو قُل.. هو ضربٌ من المستحيل. بعد الحرب، وبعد قلَّةِ عدد الرجال والصبيان، وإصدارِ قانون العمل الذي أخرجَ نساءنا من بيوتهن وجعل منهن مسعوراتٍ للعملِ في بيت العاهرات... كان أمرُ الزواج قد بات من التراث. إذا أرادت الواحدة منهن أن تتزوج، عليها أن تُعلن طقس الشرعية، حيثُ تتخذُ من أحد التلال الثلاثة بجانب قصر الحاكم... منبرًا لها. تعتليه، وتصيح أمام الجميع بأنها شريفة، لم يمسها أحدٌ من قبل. قد تسألني ما الذي يدفعهن للزواج إن كُن لا يحتجنَ إلى رجلٍ، بل نحنُ من بحاجتهن... وأقول... وكل من تراهم حولك سيوافقونني... إن النساء نساء، يحتجننا يا رجل... ونحنُ... بتنا نُدرةً في بلد الرمان، ولنا الحق كُل الحق في أن نوافق على شرعية عفتها أو نرفض... حتى لو صاحت مائة عام على أعلى تلَّةٍ بالبلد. لكن دعني أُطلِعكَ على أمرٍ، كيفَ تَثِقُ بواحدةٍ أنت تعلمُ يقينًا أنها تعملُ بذلك المنزل الكبير؟!!..»

– إذن... تقولون بأن نساءكم أجمعين... هكذا...

تبادل الجميع النظرات، ثم لم يقووا على مواجهة «آسن»... حتى قال أحدهم:

«لسنَ كُلُّهُنَّ يلْعَقْنَ أعضاءَ الرجالِ هناك... بعضهن... وأقول بعضهنّ فقط... يرقصنَ ويغنينَ، هُنَّ أفضلُ من غيرهن»

– وماذا إذا حكمتم بأنها شريفة؟..

– بعدها، عليها أن تثبت أنها قادرةٌ على الإنجاب..

– كيف؟َ

– عليها أن تضع مولودًا... تُثبتُ به أن تُربَتَهَا قادرةٌ على الاعتناء ببذرةِ الرجل، وطَرْحِ محصول!!

– أنا أعلم... أقول «كيف»؟!!

بدأ الناس يتململون، أجابه الرجل الذي حكى أولًا..

– تختارُ رجلًا وتحملُ منه... وما ان تضع حملها، تصعد به إلى ذات التلة، التي بات الجميع يعرفها من خلالها... وتصيح من جديدٍ بأنها وَلود.. و...

– وماذا؟!!... أنتم حقًّا تُثِيرونَ اشمئزازي...!

انقلبت وجوه الناس، أو بالأحرى... وجوهُ «الرجال»، الذين لم يرَ «آسنُ» غيرهم، لم يرَ بالبلدةِ سوى الرجال، يمشون ويتسامرون... بينما كان مكانُ النساء بعد الحرب تمامًا كما كان قبل الحرب... في «بيتٍ آخر»، لكنه أكثرُ اتساعا. ضاقت أعينهم من قولِ الآسن، الناس هنا يتغيرون بسرعةٍ، قد يجعلون منك إلهًا، وفي لحظاتٍ يرجمونكَ بعين الجحيم. هَدَّأَ «آسن» من نبرته، سألهم أين يذهبُ المواليد الجدد من ذلك الطقس؟! ما الذي يحل بالصغار؟!!... ليجيبه أحدهم في استنكارٍ:

«وماذا برأيك كان سببًا في ازدحام البلدة، حتى صرنا نتخبطُ ببعضنا في السير؟!!... ألا يكفينا الظلام الدامس الذي لا ينقطع؟!»

هربَ «آسنُ»...

وجميعهم يتبعونهُ بأعينهم، بينما... لم يُحَرِّك أحدٌ ساكنًا وراءه، لم يتبعوه ككل مرةٍ... فقط... نظراتٌ ساخطةٌ على هذا الآسن ذي الأنفِ المَمسوخِ والعينيْن الحمراوين، اللتين رأوهما للمرة الأولى عينيْ شيطان لا يستحقُّ إلا أن يكون في المحرقة. لم يقطع تركيزهم، إلا مُهَرِّجو «الأخ الحنون»... الذين هُم في الطُّرُقَاتِ يتشقلبون... حتى يجدوا تَجَمُّعًا من الناسِ بمكانٍ، فيبدأون بدندنة الأناشيد، التي يسرقون بها الآذان، والشقلبات والحركات البهلوانية، التي يخطفون بها الأعينَ... حتى تَنفَضَّ اللمَّة.

«آسنُ»...

الذي ما كان آسنَ...

يعودُ إلى الصهدِ، حيثُ مأواه. يعود إلى البئرِ، حيثُ منامه. يمسكُ بقطعة فحمٍ من جثةٍ بائسةٍ أخرى، يرسمُ على أقمشةٍ معلقةٍ سرقها من البلدة... وجوهًا عِدَّة. دوائرَ للرأسِ، تسكنها دوائرُ للعينِ، والأفواهُ مُكَممةٌ، وفي بعضِها ممسوحةٌ، والعيون مكسورةٌ... ورائحةُ الظلامِ... ما زالت نَتِنةً.

❊ ❊ ❊

(٧)

اللوحة الرابعة...
نارٌ عظيمةٌ، سوداء، تأكلُ ولا تتركُ أثرًا...

اللوحاتُ، التي ملأت البئر من الداخل، رُسِمَت بالأسودِ الفاحم. كان «آسنُ» قد أَلِفَ الرسمَ بالفحمِ، حتى إنه، تساءل يومًا عن كل صخرةٍ فاحمةٍ استعملها، عن مصدرها وعن سبب نعومةِ بعضها وخشونةِ الآخر. كان يتعجبُ من سهولةِ الرسمِ ببعضها، فيصبغُ الحائطَ بسلاسةٍ، بينما يواجهُ صعوبةً في استحلابِ الفنِّ من بعضها، فلا تتوافق عند الاحتكاك مع الحائطِ أبدًا، مهما بَذَلَ من جهدٍ. كان يُخيل إليه، من الفراغ الدائم والوحدة، بعض الخيالات عن ماهية من كانوا أحياء قبل أن تُحيلهم النار العظيمة إلى خاماتٍ يستعملها في إحياء آلامِهِ. يتأملُ ما بينَ صخرتين فاحمتين، يتأملُ قساوة إحداها، فيخيل إليه أنها كانت لجثةِ رجلٍ... بينما تُغريه طراوة ورطوبة الأخرى، كأنها من جثةِ امرأة. أضحَت تلك لعبته المفضلة لزمنٍ، يبحثُ في الممر بين البئرِ والبحيرة، بين الجثثِ، عن قطعِ الفحم... يُحلل شخصياتها... ويتخيل... أصولها. أحيانًا، كان يرسمُ قصصًا على الحائطِ عن أشكالهم قبل أن يتفحموا. أحيانًا، كان يشعرُ بالأسى تجاههم... لكن... أبدًا...

لم يتوقف عن الاندهاش للحظاتٍ... عن أولئك الذين يأتون... من حينٍ لآخر، يركضون بينَ الناس من حيثُ لا يدرون... نحو المحرقةِ العظيمة، فيصرخون بتلك الكلمة...

«الشمس»...

يقفزون إلى الفوهة الملتهبة، يتآكلون بلا وجعٍ، كأنهم يستحمون بِنَارِهَا، ولا يظهرُ لهم أثرٌ بعدها أبدًا... لا أشلاءً تتفحمُ، ولا رائحةٌ تتعفنُ، ولا يبقى منهم أثرٌ يُتبَعُ. هناك، على الجسر العالي المؤدِّي إلى الفوَّهة... انتظرهم للمرَّةِ الأولى، وهناك... حصلَ على أول حَجَرٍ أبيض...

في اليوم الذي، صاحت فيه مجموعاتُ المهرجين بالطرقاتِ، بأن زائرًا جديدًا أتى للتطهير في المحرقة... كان «آسن» قد استطاع الصعود عبر البئرِ ليتنفس هواءً أقل عفونة من الأسفل... للمرة الأولى، قبل أن يعمَلَ سلمًا. عندما رأى نور الشعلات العظيمة بالأعلى، كان الصوتُ يدوي بأرجاء البهو، والناس تطرقُ على الباب لكي يفتح لهم، فيشهدوا الزائر يقفز، ويبدأ العرض. لَمَّا لا يجدون من مدخلٍ، يلتفون حول المحرقة من الخارج، يتبعون المهرجين الذين لا يتوقفون عن ترديد النغمات والإعلان عن الحدث الكبير، عبر طريقٍ آخر يُؤدي إلى الخلف... حيثُ الجسر مكشوفٌ للجميع في الأسفل.

يومها، أتى شخصٌ هزيلٌ، من فرطِ هزاله كانت عظامه تجرحُ جلده في كل موضعٍ هي فيه بارزة، تمكن من الصعود إلى الجسرِ، يركضُ بأقصى ما ملك... يصرخ:

«اتركوني أمُرُّ... اتركوني ألْحَق... لا وقت... لا وقتَ بعد كذبةِ الزَّمَان..!!»

انطلـقَ «آسـنُ» يعـدو... أمسـكَ بـه، يمنعـه مـن التقـدم أكثـر، والرجـلُ يبكي ويعــوي...

- أنت لا تعي شيئًا... اتركني..

- أأترككَ تقتلُ نفسك؟!!... الناس يهتفون في فزعٍ...

- لا يهتفون لي..

- ومـا الـذي يدفعنـي أنـا إلى منعـك؟!... لا تفعـل.. مـاذا بـك يـا رجــل؟!

- اتركني أرجوك... الرمان لا يُسمن ولا يُغني... لقد...

- عن أي رمَّانٍ تتكلم؟!

- اتركني ألحق شمسي قبل فوات الأوان... لا وجود للرمان..

كان النـاس يصيحـون بالأسـفل... غاضبـون هُـم لأن العـرض تأخـر... والمهرجـون يتشـقلبون ويـرددون الكلـمات:

- ابن الظلام، الأبيضُ الكالح... لَوَّثَ الماءَ المالح.

فـيردد النـاس... حتـى يُمسـكَ أحدهـم، بحجـرٍ أبيـض... يلقيـه عـلى «آسـن»، فيصيـب وجهـهُ... يَشُـجُّ جانبـه قُـربَ العـين، يسـيل دمٌ لامـعٌ، سرعـان مـا تلـوثَ بالكراهيـة... فانطفـأت لمعتـه...

- عن أيِّ شمسٍ تتحدث؟!...

- اتركنـي يـا هـذا، أنـا أتبـدل، لا أريـد لتلـك الهيئـةِ أن تتغـير أكثـر... لقـد ذهبـتُ إلى الـذي يعلـمُ مـا بـينَ الأحمـر والأخـضر... اتركنـي ألحـق شـمسي، قبـل فـوات الأوان!

الكلـمات الأخـيرة، التـي هـزت عقـل «آسـن»، أرغمتـه عـلى تركـه. ركـضَ بـما أوتي مـن بواقـي قـوة، حتـى بقِـيَ عـلى الحافـة، التفـت إلى الشـاب المذهـول:

- شكرًا لك...

قفز، فانفضَّ الناس من حوله، إلَّا واحدٌ. كان يراقبهُ بدقةٍ، على وجهه أماراتُ الحزنِ، على جسدهِ أماراتُ النِعَمِ. رجلٌ من مرتدي العباءة الحمراء، من بلاطِ الشعراء، مسح دمعةً وابتسمَ لـ«آسن»... ورحل.

التقطَ «آسنُ» الحجر الأبيض، نَزَلَ إلى البئرِ التي اعتاد عفونتها. كان يُقَلِّبُ الحجرَ بين أصابعهِ، صَبَغَهَا بلونٍ لم يَعتَدْهُ... لونٌ آخر عجيب، لما وضعه على النيران السوداء التي رسمها من قبلُ على الحائطِ... أطفأها... فأخذَ يُطْفِئ كل النيرانِ بحائطِهِ... وأخذَ ينشرُ النورَ ويعادِلُ الفحمَ... وينتظرُ... كُل زائرٍ جديدٍ يأتيه، فيحاول منعهُ من القفزِ وتعطيلِ «العَرْضِ» على الناس... ليرجمهُ أحدهم بتلك الأحجار البيضاء... يلتقطها من جديد... يضيء بها وَحشَةَ الفحمِ في اللوحات...

ويبتسم...

للمرةِ الأولى..

لَمَّا وَجَدَ بينَ الظلامِ نورًا... أَمَل.

❊ ❊ ❊

(٨)

اللوحة الخامسة...

الشَّفَتَانِ..

خُلِقَتَا...

من خُلاصَةِ حُمرةِ الرُّمَّانِ...

والشَّعْرُ... ليلٌ... ظُلمةٌ... هَلَاكٌ لِكُلِّ مُقتَرِبٍ لا يعلمُ سوى طريقِ النار للخروج..

ورُمَّانَتَانِ مُلتَهِبتانِ... تختزلانِ مُتعةُ الكونِ... ينطفئ لصهدهما.. جحيمُ البوابةِ الموشومة...

والعينان..

ظلامٌ على ظلام... وَحْشَةٌ على وحشةٍ...

غُربةٌ... لا يقدرُ عليها «الآسنُ»... التائهُ الذي يبحثُ عن ذاتٍ ضائعةٍ...

وكُلُّ شيءٍ يحدثُ في الظلام، حيثُ البيت الذي كانَ أصفر. كانت مَهْرَبَهُ من كُلِّ أمرٍ، وكانت... الرُّمَّانَة... هي أوَّلُ سببٍ، لهروبه المتكرر.

لا يُحب الرمَّان، ولا يطيق رائحته التي كانت سببًا في حربٍ لا تنتهي... لكنَّهُ...لم يعُد يطيق البعد أكثر عن رمَّانة. في الظلام الذي لا

ينقطع، كانت المرَّةُ الأولى التي جَذَبَهُ فيها زحامُ أهل الرُّمَّانِ، يصطفّونَ متلهفينَ لدخول بيتِ العاهرات. أمام البيت، لم يلحظهُ أحدٌ، حتى لَمَّا دخلَ فصار بجوفِهِ... لا أحد يلتفتُ إلى «الآسنِ» وسطَ حلوى المُتعةِ. البيتُ يَعُجُّ بحاملي الشعلات ذات المقابضِ الذهبية، حيثُ يُصَنَّفُ أولئك درجات. منهم من يملك الشعلة الأطول، تفوحُ منها رائحة البخورِ من «أرضِ الأطياف»... حيثُ كانت تأتيهم من هناك أفضلُ أنواعِ البخور وأزهاها لونًا. منهم من يحملُ الشعلات الخشبية، التي ما إنْ تتهشمُ أو تأكلها النار يُطرَدُ من البيتِ. «آسنُ» كان مشدوهًا بالمكان الذي، فورَ أن صارَ واحدًا من أعضائِهِ، لم يجد به ما يمت بِصِلةٍ للعالمِ بالخارج. الخدمُ نساءٌ، والسَّاقِيَاتُ بنات، والقائماتُ بأعمالِ التنظيف بالأركانِ التي لا تحوي شُعلاتٍ... عَجَائِز... أرخى الزَّمَانُ أجسادهنَّ، فكانَت الأركانُ المُظلمةُ في البيت أرحَمُ بِهِنَّ... من أي مخلوقٍ من حاملي الشعلات.

يتذكرُ «آسن»، تلك العجوز، التي كانت تلعنُ المكان. «آسنُ» الذي خَجِلَ مما رأى، فتَوَارى في الظلام يشاهدُ في صمت. اصطدمَ بها، كان يظنُّ أن لا أحد ببلد الرمَّان يملكُ أنفًا بِقُبحِ أنفه، حتى قابل تلك العجوز. للمرة الأولى يشعرُ بقبحِ غيره، ويتأفف منه...

– ما الذي أتى بـ«آسنِ» الوجهِ طيب القلبِ إلى هذا البلد؟!

باستنكارٍ، رَدَّ عليها:

– وما الذي أتى بعجوزٍ قبيحة مثلكِ إلى مكانٍ كهذا؟!... ألا تخجلين؟!

صَمَتَتْ... أطالت النظرَ إلى عينيه الباردتين الحمراوين... بَكَت بألمٍ، حاولت كتمان بكائها كي لا يتصيد لها أحد العاملين أخطاءً جديدة.

– أنا... آسف... لم أقصد ولكن...

قالها، بعينين باردتين لا تذرفانِ دمعًا. نظرت إليه من جديدٍ... انهمرت بالدموع...

– لو كان بيدي، لبقيتُ ببيتي حتى ولو مت جوعًا. أنا عجوز أكرمها الزَّمَانُ وأحْنَى ظهرها هذا البيت اللعين. أتسألُ ماذا تفعل عجوز قبيحة مثلي هنا؟!... ما تفعله لا يفعلهُ حيوانٌ نافقٌ... أضطرُّ للعمل بعد الحرب، القانون يقول هكذا... ها..!!، ولَّما صدرَ ذاك القانون، لم يقف أحدٌ من رجالنا ضدَّهُ... جميعهم صفقوا وهللوا، جميعهم صاروا يفهمون ويُحللون ويتحدثون في الطرقات فقط وأبدًا عن العصر الجديد... عصر العمل والحرية... البلدة اللعينة، لا أحد يفعلُ فيها سوى الثرثرة..

– لكن يا سيدة... أنا لا أفهم..

– أعذركَ لعدم فهمك... لكنكَ وقح.. مثلهم، أو ربما، أصبحتَ «آسنَ» حقيقيًّا بحكاويهم... أنا أراك تتجولُ، ونسمعُ أخبارك هنا، أحببتُ أن تروي لي قصصك المثيرة عن الألوان والعالم الآخر العجيب... لكنك أحمق.. أتعلم... أنا أشكرُ القدير أني عجوز، ولستُ مضطرَّةً لبيع أثدائي لأبناء العاهرات ممن يملأون المكان هنا... يكفيني أن أنظف قذاراتهم في صمتٍ، وفي الظلام... على الأقل.. في تلك الأركان المظلمة، لا أرى نفسي وهُم يُلبِسُوني كعاهرة... على الأقل لا أرى خيبتي وعُرْيِي حتى أموت وينتهي ذلك القرف... لا ينقصني إلا غبي مثلك لا يرى إلا أنفي القبيح...

كانت العجوز تبكي بحرقةٍ وتصيحُ، والظلام يُخفيها... و«آسن»، تركها وهَرَب... لكنها كانت لا تزالُ تصيح...

– أنفي قبيح؟!!... يا قبيح الوجهِ والعقل... إذا كان لا يُعجِبُكَ أنفي... فلتَضَعه في مؤخرتك وتذهب أنتَ وهو إلى المحرقة... حيثُ تنتمي..!!!

الدموع...

تلك المادة السائلة، الغريبة، التي كان «آسن» يراها تنزلقُ من عيون أهلِ الرُّمَّان. رآها في أولئكَ الزائرين الذينَ يلقونَ بأجسادهم في المحرقة... ورآها في المقهورين... والعاشقينَ الذين كانوا يجلسون في الطرقاتِ يبكون ولا ينشغلون بسِواها. كان يعود إلى البئرِ، في كُل مرة يرى فيها من يذرفُ دمعًا، يضغطُ على عينيه علَّهُما تنِزَّانِ من السائلِ قليلا... لم يفهم أبدًا.

– أنت... يا هذا... يا ذا العينين الجميلتين..

صوتٌ، يداعبُ أذنيه اللتين كَبرَتَا من حكاياتِ أهل البلدة... يُناديه.

يقترب من أحد الأركان، حيثُ مصدر الصوت يغويه. تخطفهُ للداخل، تهمسُ في أذنه:

– عيناكَ جميلتان... مُتَّقِدَتَانِ بشيءٍ لا أفهمهُ..

لا يَرُد...

– لم نَعُد نرى مثل ذلك الجسد ببلدتنا الخائبة..

لا يرد..

– يدان قويتان... أراهن أن أي امرأةٍ هنا ستُحِبُّ ما قد تفعلانه بها..

لا يفهم... ولا يرُد..

- هل أنتَ أخرس؟!..

تصفعهُ على وجهه... يغضب، يضربها، فيُفقِدُها ضرسَينِ وسِنَّةَ أمامية... وكرامتها!!

تصرخُ، فيدوي صوتها الذي يعلم نغمتهُ كُل من أتى المكان ومن تمنَّى فقط الدخول. يلتفتُ حاملو الشعلات الذهبية إلى بكائها الذي أذابَ القلوب. يتساءلون عمن قَسَى قَلبُهُ هكذا حتى يؤذي فتاتهم المفضلة. الجميع يتأملُ «آسن»، يغضبون، يبدأون بإلقاء زجاجات عصير الرُّمَّان على وجهه وجسده...

- هي مَن بدأت... أنا لم أفعل شيئًا..!!

الزجاجات تتطاير لتهبط على جسد الآسن... تتكسرُ على وجههِ، لترسمُ لوحةً من الجراحِ، تتداخلُ الخطوطُ فيها، تَنْقُشُ تاريخًا جديدًا... لن يُمحى.

يلقونَ به خارجًا، من البابِ الخلفي، حيثُ... لَمَّا استعاد وعيَهُ... فتح عينيه على أحجارٍ صفراء، مفتتة من حائط البيت الذي كان أصفر. أحجارٌ تهدَّمت حينما تهدمت بعضُ أجزاء البيت، اختبأت في الترابِ، لم تَلْحَق أدخنةُ الحريق الكبير أن تُخفي معالمها. التقطها، أخذ يُقلبها بين أصابعه، تصبغها بالأصفر... اللون الذي... أضافَ بُعدًا جديدًا له. التقطَ ما وَجَدَ منها، وقام يتخبَّطُ في مَشْيِهِ، يلعنُ قومَ الرُّمَّان، ويلعنُ تلك الرُّمَّانة التي تسببت له في جراحٍ أليمةٍ... لكنَّ كلماتها ظلَّت تَرُجُّ عقلهُ. أخذَ يتأملُ جسده القوي التي تحدثت عنه، وعينيه الجميلتين، ويديه اللتين ما فعل بِهِما إلا كل جميل، وما صَنَعَ بِهِما إلا كل ما سَرَّ الناظرين.

- لقد... رأتني.. جميلًا!

بينما الظلامُ حالكٌ، يتبعُ طريقًا جانبيًّا تُضِيئُهُ شعلاتٌ فقيرةٌ... سمِعَ أحدهم يُنادي...

– سألتُ الذي يعلمُ ما بين الأحمر والأخضر... فما وَجَدت أحمر ولا أخضر...

نَقَّبَ عن مصدَرِ الصوت، لا أحد. الصياحُ بذاتِ الجملةِ يتكرر... والقائلُ يتأوه ويبكي... يتقطَّعُ صوتُهُ، يجيءُ ويذهبُ... حتى اندثَرَ في الظلام... مثلُهُ مثل أي شيءٍ آخر في البلدة.

قُبيل نهاية طريق الشعلات، وجد «آسنُ» جماعةً من حاملي الشعلات الخشبية، يلتفُّونَ حولَ أحدهم. رجلٌ أربعينيُّ الهيئةِ، طفولي الوجهِ والبسمةِ، يقولُ كلامًا حَسنًا. اقتربَ «آسن»، ألقى بالتحية، ففُتِحَت الدائرة وسَمَحوا له بالانضمامِ إليهم.

– ما الذي أتى بآسنِ الوجهِ طيب القلبِ إلى بلدتنا هذه؟!

قالها أحدُ الجماعة...

– لا تَقُل آسن الوجه... هذا «فنَّان»... يحكي لنا عما بينَ الأحمرِ والأخضر..

قالها الرجلُ الأربعيني... الذي لَفَتَتْ عباءته الحمراء اللامعة انتباه «آسن» منذ اللحظةِ الأولى التي رآهُ فيها، لَمَّا كان على جسر المحرقة ينظرُ إليه ويبكي... عندما أتى أول الزُّوارِ المحترقين.

– اسمي «ودود»...

– أنا «آسن»...

– بل، أنت «فنان»... هكذا سأدعوك، وهكذا سيَدْعُونَك...

❋❋❋

(٩)

اللوحةُ السَّادسةُ...

«ربما، قد تجِدُ ما يرضيك هناك، في تلك الأراضي الترابية... حيثُ الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر»

كان ينظرُ بتَمَعُّنٍ إلى اللوحات القديمة، التي كانت، مُتَّسِمةً بالسواد الفاحم حتى أنارها بعضٌ من بياض الحجر الأبيض... لكن ذلك النور... لم يَكُن أبدًا أشد زهوًا من اللون الأصفر الذي تضفيه تلك الأحجار من البيت الذي كان أصفر. كانت المرَّة الأولى، التي يختبرُ فيها ضوءًا دافئًا... يريحُ عينيه الحمراوينِ. ضوءٌ لما اختلطَ بالأبيضِ الجِيرِي... دفعهُ إلى الخروج من البئرِ مجنونًا.. يبحثُ عن صديقه الوحيد في تلك البلدة... «ودود».

اعتادَ على الهروبِ- مؤخَّرًا- إلى مكانين... إلى حيثُ بيت العاهرات، يلتقي بتلك الرُّمَّانة التي ما عاد يطيق أن تَمُرَّ فترة إلا ويأتيها سَعْيًا، تداعبهُ في الظلام، وتُسمِعهُ من حلاوةِ الحديثِ والوصفِ عنه وعن رجولته و تَمَيُّزِهِ عن الآخرين. كانت تشكو وتشكو وتبالغُ في شكواها له، من كُلِّ أمرٍ ينالها، يستمعُ إليها بإنصاتٍ تارةً، وبالإجبارِ تارةً أخرى... عندما تُدَاعِبُ كُلَّ شِبرٍ بجسدهِ. لا يمَلُّ من شكواها، ولا

تَمَـلُّ مـن إغوائِـهِ، وإذا فَكَّـرَ لمجـرد التفكـير أن يشـكو لهـا... أسـكتته... بحركـةٍ تفعلهـا بيديهـا، تمامًـا كـما تفعـلُ لباقـي الزبائـن، فينصهـرُ بـين اليديـن الماهرتـين... أو... بِقُبلـةٍ تَخمُـرُ عـلى بـصرهِ ووعيـه، فـلا يعـودُ للزمـان والمـكانِ داعٍ وصِفَـة... ثـم تعـودُ للشـكوى مـن جديـد.

عندمـا يفـرغُ منهـا... يخـرجُ تائهًـا، يبحثُ عـن مُرشِـدِهِ وصديقـهِ «ودود». يـروي لـه عـمَّا جَـرَى. يؤنِّبـهُ الصديـق الواعـظ، يتلـو عليـهِ مـن كتـاب البلـدةِ المقـدس، حيـثُ الذهـابُ إلى تلـك الأماكـنِ ومضاجعـة النسـاء مُحَرَّمة...

– ولكـن... هـذا قانـونٌ يـا «ودود»... قانـون يـسري عـلى الجميـع... هـذا مـا يقولونـه هنـا... هُـنَّ يتكَسَّـبنَ أرزاقهـن..

– أعلـم... لكـن اسـمع... كتـاب القديـر يقـول «ليـسَ في يـدِ التائِـه مـن شيء، لـو أتتـهُ زوبعـةُ الخطيئـة، فلَـو دَفْـنُ الـرأسِ في الرمـالِ خِسَّـةً وجُبْنًـا... فَدَفْـنُ الجسَـدِ كلّـهُ فيهـا، لِيُفَادِيهَـا... فضيلة.

«آسـنُ» يسـتمِعُ... بتمعـن. يـرى في فصاحـةِ صديقـه مـا لم يـرَهُ في أهـلِ الرُّمَّـان. لكـن لَمَّـا أتـى الحديـثُ عـن البيـتِ، وعـن النسـاءِ فيـه... ذكـرَ لـه السـيدة العجـوز ذات الأنـفِ القبيـح. مـال «آسـنُ» إلى الاعتـذار لهـا مـن جديـدٍ أمـام «ودود»، الـذي لم ينعتـه أو يُناديـه منـذ عرفـه بـ»الآسـن» كالآخريـن. كان ينعتـه بالفنـان، ويُناديـه مـن بعيـدٍ أمـام النـاس بالـ»فنـان»، ويثنـي عليـه...

– لكـن يـا «ودود»... ألـن تنتهـي تلـك الزوبعـةُ أبـدًا؟!... فحتـى الأعاصـيرُ لهـا أوانٌ وآخِـر...

– كُلٌّ بوقتِه... المهم، ألا تعود إلى ذنبِكَ ذاك مرة أخرى..

– ولمـاذا لا ينتهـي منـه حاملـو الشـعلات الذهبيـة؟!... لمـاذا أراكَ تُـدَاوِمُ عـلى نُصـحِ حامـلي الشـعلات الخشـبية، تتجاهـل الباقـين؟!!

صَمَتَ «ودود»...

حاولَ تغيير دفَّةِ الموضوع، أشارَ إلى جماعَةٍ ضالِّين يتجولونَ بالطرقاتِ، يعبثونَ بالشعلات المُعَلَّقَةِ بها. ذهب إليهم، يقرأُ على مسامعهم من كتاب القدير... بينما... كَفَّ «آسنُ» عن الحديث. كان يخشى أن يخسَرَ صديقه الوحيد، الصديقَ الذي كان أول من زارهُ بالمحرقةِ وسألَ عنه... أولَ وآخِرَ من نزلَ معه إلى غرفته التنتة... إلى البئرِ. يومها، كانت الرائحةُ أشدُّ عفونة، لم يقوَ «ودود» على تحملها... أخذ يسعلُ بِشِدَّةٍ... بينما... تتجولُ عيناهُ على اللوحاتِ المُعَلَّقَة. يحاولُ الخروجَ من البئرِ، تطاردهُ لوحاتُ الوجوهِ والنيران على الحوائط...

– ما.. ما هذا؟!!... أنتَ... عجيب...

– أنا آسف... لا يُقَدَّرُ لي أن أتكلم مع أحد هنا... لا شيء سوى الرسمِ..

– تلك الوجوه... مشوهة... تمامًا كَسَريرَتِكَ... عينا الشيطان تحكم... هذا مكانكَ الحقيقي... النار... حيثُ تغسلُكَ من تلك الرُّوحِ الآسنة..!!

هَمَّ بصعودِ السلم العَظْمِيِّ... صاحَ به «آسنُ» يومها...

– إذا كانت النَّارُ تغسلُ الذنوب... فَلِتَغتَسلوا أنتم فيها... أنتم من تستحقونها لا أنا..!!!!

بعدَ تلكَ الحادثة... وبعدَ أن أتاهُ «ودود» مُعتَذِرًا عن انفعاله، تَقَبَّلَ منه. لم يَعُد يُخفي شيئًا عن القديس الشاب ذي العباءة الحمراء، والعاهرة التي لا تتوقَّفُ عن الشكوى كُلَّمَا أتاها في الخفاء.

– من أنا؟!...

– أنتَ الفنَّان...

– لا... ابحث في كتابك عَمَّنْ هُم مثلي... ربما ذكر القدير شيئًا عنِّي..

– هذا كلامٌ لا يقوله سوى جاحدٍ...

– أنا لستُ منكم، وهذا يقتلني... ولا تشبهونني ولا أُشبِهكم... لا تَرَونَ ما أرى، ولا تشعرونَ بما أشعرُ... ابحث في كتابكَ عنِّي..

السؤال الذي يؤرِّقُ «ودود»، فلا يجدُ إجابةً له. كان يسألُ «آسنَ»... عمَّا يدفعهُ حقًّا وراء تلك الأسئلة. يُقنِعُهُ بأنه لا فائدة من البحثِ، وماذا إن عَرَفَ حقًّا من هو أو مما خُلِق، أو تلك التغيرات العجيبة التي تطرأُ بجسدهِ...

– لكنَّي أشعرُ أن الأمرَ أكبر... من مجرد حياةٍ بائسة لبلدٍ عقيمٍ لا تتكسَّبُ إلا من الرُّمَّانِ الذي تزرعهُ، فتنفقَ كُلَّ ما يأتي منه في حربٍ كُل عامٍ لا تنتهي... ومن العاهرات اللاتي يعملنَ بها..!!.. قُل لي.. ماذا يوجد خارجُ تلك الأسوار؟!!

– أنت مجنون..!!

– ربما..

– خارجُ الأسوارِ ظلامٌ لا ينقطعُ... وجوعٌ ووحشَةٌ... لا أحد يعود يا «فنان»... لا أحد...

– من ذاك «الذي يعرفُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر»؟!!

كلما تهَرَّبَ «ودود» من الإجابة، كانت عينا «آسن» الباردتانِ تُحاصرانه. قال بأن هناك عَرَّافًا... بالأرضِ الترابية... يعلمُ الماضي والمستقبلَ... ويصنَعُ الحاضِرَ. سأله «آسن» في لهفةٍ عنه، فأجابهُ بأن هذا العرَّاف يمكنه أن يُعَلِّمهُ من عِلمِهِ... فيرى ما بينَ الأحمر والأخضر تمامًا مثله... وقتها سيعرفُ كُلَّ شيء. تذكَّر «آسن»

ذلـك الزائـر الهزيـل مـن المحرقـة، الـذي أخـبرهُ بأنـه اسـتطاع الوصـولَ إليـه. أنكـرَ «ودود»، مُعَلـلًا بأنـه يسـتحيل أن يصـل هنـاك ويعـود...

– يـا «آسـنُ»... يسـتحيل عـلى مـن يُمكنـه أن يخـرجَ مـن ظـلام تلـك البلـدة اللعينـة أن يعـودَ إليهـا... المجانـين فقـط يفعلـون ذلـك..!!!

– ولكنَّهُ أخبرني بذلك... لماذا يكذبُ؟!... بدا واثقًا..!

– إذن... مجنونٌ هو لأنه اختار أن يعود... وتكون نهايتهُ مَحْرَقَة...!

❊ ❊ ❊

(١٠)

«ألم آمُركَ بأن تلزَمَ البئرَ حتى آتيك؟!»...

قالها... «رشيد»... وهو يتمتَّعُ بمشاهدةِ عملاقَيْه يَجْلِدَانِ الآسنَ. السِّياطُ تُغَنِّي على جسدِهِ غِناءَ القَهرِ وقِلَّةِ الحيلة، حتى كانت آخرَ نوتةٍ، التي أفقدتهُ وعيَهُ، ورسمَت على وجههِ جُرحًا آخر... كاد يُخفي إحدى العينين الجميلتينِ.

- الناس لا تكُفُّ عن الرقصِ والغناء... قُل لي يا «آسنُ»، من أينَ آتيهم بأقفاصٍ جديدةٍ تكفي تلك الأعداد؟!!

قالها «رشيد» العجوز، ببرودٍ و خِسَّةٍ.

تركوه مُلقى في البئرِ، وأنهى العجوز حديثه بتحذيرٍ أخيرٍ..

- لو رأيتُ أحدهم يرقصُ ويضحكُ بالطرقات... ويُرَدِّدُ حكاياتك الفارغة عن «الأحجار الملونة» والضوءِ الأصفر... فإنِّي أقسمُ لك بعباءتي تلك التي لا يجرؤ أحدٌ على ارتداءِ مثلها في البلاد، لأجعلنَّ حريق المحرقةِ أحَنَّ عليكَ مما سأُقحِمُكَ فيه...!!

«الضوء الأصفر»... بات ضرورة لـ«آسن». كان يَخرجُ ويُخالفُ أوامرَ «رشيد»، لَمَّا تأخرَ عليه في الرد. انتظرهُ لمدةٍ كافيةٍ لتفجير بركان، لم يأتِه. كان يخرجُ بينَ أهلِ الرُّمَّانِ، يردد حكاياته، ويُفَتِّشُ عن ملامحِ

ذاك الضـوءِ في كُلِّ مـكان... لا أثـرَ لأي أصفـرَ... لا أثـرَ لذلـك الضـوء الـذي بلوحاتـه. تذكَّـر مـن أيـنَ أتـى بالأحجـار الصفـراء، توجَّـهَ إلى بيـت العاهـرات، البوابـة الخلفيـة... بحـث هنـاك عـن حجـارةٍ أخـرى أو مصـدرٍ آخـرَ... لم يجِـد. صـارَ مجنونًـا، يمـشي بـينَ النـاس ويصيـح...

– ألا تـرونَ سـماءكم؟!!... ألا تـرونَ فَضيحَتَكُـم؟!!... ألا أجِـدُ منكـم رجـلًا إلا ووجدتُـه مَحنـيَّ الرقبـةِ ذليـلًا؟!!... ارفعـوا رؤوسـكم وانظـروا...

والمُهَرِّجونَ يتشقلبونَ في كُلِّ مكانٍ، ويُرددون...

– ابن الظلام، الأبيض الكالح... جُنَّ جنونهُ، ولوَّثَ الماءَ المالح...

النـاسُ الذيـن، كانـوا لحكايـات الآسـنِ يسـتمعون... باتـوا يرجمونـهُ بالحجـارةِ. في الظـلامِ الدامـس، يحمـلُ شُـعلته مـن عِظـامِ مـن ماتـوا في الحـربِ القديمـة، تَفضَحـهُ الشُـعلة، ويُؤجِّـجُ فضيحتـه المُهَرِّجـونَ، يلاحقـهُ قـومُ الرُّمَّـانِ بالحجـارة، ويلقـونَ بطريقِـهِ الزجـاج المتكَـسِّرَ لِتَهـتَرئ قدمَـاهُ، ويهـربَ دمـه النقـي مـن الجسـدِ الـذي تحـوَّلَ لونـه إلى لـونٍ آسـنٍ... اختلطـت فيـه كُلُّ ألـوانِ العـذاب.

هَـرَبَ إلى المـكانِ الوحيـد، حيـثُ لا أحـد يهتـمُّ. إلى حيـثُ «رُمَّانـة»، وإلى حيـثُ الصـفِّ الطويـل مـن الرجـال حامـلي الشـعلات الخشـبية، ينتظـرون بفـارغِ الصـبرِ أن يـؤذنَ لهـم بالدخـولِ... إلى حيـثُ المُتعَـةِ الأبديـة...

– أرجوكم أدخلوني... سأموتُ جوعًا...

أحدهـم، بجسـدِ رجـلٍ يجابـهُ العماليـق، يبكـي ذليـلًا أمـام البـاب. توقـف «آسـنُ» يراقبـه، وينعـى حالـه، يرتـدي فستانًا قصيـرًا وردي اللـون، يكشـفُ عـن عورتـه، ويُلطِّـخُ وجهَـهُ بمسـاحيقَ التجميـل النسـائية، يـصرخُ بحـراسِ البوابـة بـأن يُدخلـوه..

– أنـا أبٌ لثلاثـة أولاد... لم أُنجِـب بنتًـا واحـدةً ترفـعُ الحِمـلَ الثقيـلَ معـي... أأمـوتُ جوعًـا؟!!... أدخلـوني أعمـلُ مثلـما يعملـنَ هُـن..!!

– لو اقتربتَ خُطوة أخرى سنرميكَ بالرماحِ...

– أنـا في كل الأحـوالِ مَيِّـت... أرجوكـم، لـدي ثلاثـة صبيـانٍ، مـن أيـنَ نـأكل؟!... أدخلـوني أعمـلُ أي شيء... أُذَلِّـلُ حاملـي الشـعلات... أو أكـونُ عبـدًا لهـم، المُهِـم صبيـاني... نمـوتُ جوعًـا بالخـارج ويسـتلذون هـم بالداخـل؟!!

هجـمَ الرجـلُ عـى الحـراس، لم يقـترب كثـيرًا مـن البوابـة... حتـى مـا تركـت الرِّمـاحُ ثقبًـا بجسـدهِ إلَّا وأحدثَتـهُ.

تسـلل «آسـنُ» عـبر البوابـة الخلفيـة، أطفـأ شُـعلتَهُ واندَسَّ في الظـلام. بحـثَ عنهـا، بحـثَ عـن رائحتهـا، رائحـة الرمـان بـكل مـكانٍ ضَلَّلَـت عليهـا. كان يناديهـا، يهمـسُ باسـمها الـذي لم يعرفـهُ إلا مُؤَخَّـرًا... كـي لا يسـمعهُ أحدهـم. يتذَكَّـرُ في كُل خطـوةٍ يخطوهـا تلـك الكلـمات الأخـيرات التـي ألقتهـا بوجهـهِ آخـر مـرة..

– لماذا لا نتزوج ونهربُ؟..

– لأنِّي... أنا لا أعرفُ من أكون..

– أنتَ عِندي «ذو العينين الجميلتين»... هذا يكفيني..

– لكنَّهُ لا يكفيني أنا...

– أنـتَ أغبـى مخلـوقٍ شـهِدَتْهُ تلـك البلـدة... أقـول لـك تعـالَ نتـزوج ونهـربُ مـن هـذا العفـن، تقـول لي لا تعـرفُ مـن أنـت؟!... أوه... بالطبـع لا تعـرف، لعَلَّـكَ ابـن عاهـرةٍ مـن الذيـن يُنجَبـون كل يـومٍ في طقـسِ الشرعيـة السـخيف..

– أرجوكِ، أنا أودُّكِ أكثر من أي شيء... لكنِّي...

– لكنَّكَ مجنونٌ ابن عاهرة... أظنني بتُّ أصدِّقُ أنك لَوَّثْتَ بحيرتنا كما يقولون...

ظَلَّ يبحثُ عنها، حتى سئمَ الظلام والرائحة. خرجَ مسعورًا، يكسرُ كل ما يجدهُ. الجميع حولهُ يتوجسونَ منه خيفةً، بدأوا بتصديقِ ترديداتِ المُهَرِّجين. يرمقونهُ بنظراتِ خوفٍ تارة، ووعيدٍ تارةً أُخرى... و»آسنُ» يركضُ هربًا... حتى... تبدَّلَ غِناءُ المُهَرِّجين...

– زائرٌ جديدٌ... لباسهُ من جريد... وقلبهُ من حديد... يقفزُ إلى المحرقةِ العظيمة..!!

هذه المرَّة، لم يتسارع «آسنُ» ليلحقه... هذه المرَّة كان ينظرُ إلى الراكضين بالأفواج من أولئك القوم بعينِ الشفقة. تتبدى منه ابتسامةٌ بائسةٌ.. وهو يراهم يتلاحقونَ ويتزاحمونَ، يوقعونَ بعضهم ويدهسونَ البعضَ الآخر في محاولة اللحاقِ بالعَرضِ الجديد، حيثُ بائس آخر، أو مجنونٌ آخر كما يقول «ودود»... يعودُ إلى البلدة اللعينة ويحترق في سوادها...

– زائرٌ جديدٌ... لباسهُ من جريد... وقلبهُ من حديد... وابنتهُ الصغيرة، ذات العقدِ المُلَوَّنِ الفريد...

انتبه «آسن»...

لَمَّا سَمِعَ أن الزائرَ ليسَ وَحدَهُ...

ازدادَ حماسُ الناس، ركضوا أسرعَ. كان فضول «آسن» أشدَّ منهم، فركضَ بأقصى ما ملكَ يومًا من سرعةٍ، يتخبطُ بهم ويدفعهم عن طريقه... آملًا أن يصلَ قبلَ فواتِ الأوان.

الجسرُ ما زال متهالكًا، حيثُ الطريق إلى فُوَّهَةِ المحرقة العظيمة. يتسلق «آسن» من سلِّمٍ آخرَ صنَعَهُ مباشرةً إلى الجسرِ... والناسُ

يُتابعون الزائرَ الجديد من الأسفل... يُهَلّلونَ له ويصفقون. وصلَ «آسنُ»، يبحثُ عن زائره الجديد... فإذ برجلٍ شَيَّبَتْ شَعْرَهُ المهالكُ، يملكُ جَسَدًا مفتولًا، طويلَ القامَةِ... يعدو كالرِّيحِ لا يسبقهُ «آسنُ» كما فعلَ مع السابقين، يقتربُ من الفوهةِ بسرعةٍ... يصرخ به «آسنُ» بالخلفِ، فلا يُعيرهُ اهتمامًا... يحملُ فتاتهُ الصغيرة على كتفه... تبتسمُ وهي تنظرُ إلى الأسفل، حيثُ أحجام الناس كالنَّملِ، و تُشيرُ إليهم وتُصَفِّق...

- انتظر... لا تقفز...!!

- لا وقتَ... المثلث... المثلث لم يكن ثلاثة أضلاعٍ...

- أيُّ مثلثٍ؟!!

بينما كان يركضُ، رماهُ أحد الهاتفينَ من الأسفلِ بحجارةٍ كالتي يرمونَ بها «آسن»... تَعَثَّرَ الرجلُ وأسقَطَ ابنته... لحِقَهُ «آسن» واختطفَ منه الصغيرة..

- لا!.. ابنتي... دعها أيها الآسنُ...

- إذا أردت أن تنهي حياتك فافعل... أنت حُرٌّ... لا تُهلِكها معك، لا ذنبَ لها..

- أنتَ لا تفهم... أرجوك لا وقت، قدماي القويتان وجسدي ذاك لن يصمدا أكثر... اتركها أرجوك... اتركنا نلحقُ شمسنا...

- أنتَ مجنون...!!!

الناس لا تكفُّ عن الصياح، والمحرقةُ جاعَت... لا تكُفُّ عن النحيبِ والصراخ... لم يأتِها أحدهم منذ فترةٍ، تشتاقُ للمزيد، والفتاة الصغيرة، تربت على كتف «آسن» وتبتسم...

– شمسنا كبيرة... كبيرة ومدورة، تضحك لي كلما نظرتُ إليها... أبي سيأخذني إلى هناك...

رأى، للمرةَ المائة بعد الألفِ، أحدهم ينزفُ ذلك السائلَ الشَّفاف من عينيه... يتوسلُ إليه ويُقَبِّل قدميْه الجريحتين اللتين لم تتوقفا بعدُ عن النزيفِ...

– لقد ذَهَبتُ إلى الذي يعرفُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... فما وجَدتُّ أحمر ولا أخضر... أرجوك...اتركها واتركني... دعنا نلحقُ شمسنا قبلَ فواتِ الأوان...

سَهَى «آسنُ» لثوانٍ يُفَكِّرُ... فاختطفَ الرجلُ البنت وركض... حاولَ «آسنُ» اللحاق به لكنه تباطأ في الجَرْي... حتى توقف، لما توقف الرجل... الذي يحمل فتاةَ تبتسم وتُلَوِّحُ للآسن...

«فَتِّش عن الضَّوءِ الأصفر... الذي يغمرُ حُمرةَ الوجهِ، فيَزيدها خجلًا... ويغسلُ الأشجارَ، فيُنَقِّي خَضَارَها من دَنَسِ الظلالِ، ويُدَغدِغُ الماءَ الرّاكِد بالبحيرةِ المقدسةِ، فتستبشرُ، وتكشِفُ عن خفايا مخلوقاتها... فَتِّش عن الضوءِ الدافئ، الذي، يَغمُرُ مُرُوجَ الرُّمَّانِ، فتَخمَدُ الحربُ هناك... فَتِّش عن الضوءِ العَطِر، حيثُ لا مكانَ لِجيفَةِ القلوبِ، حيثُ القِبْلَة الأخيرة... فَتِّش عن رائحةِ الشَّمسِ... تَأمَنْ»

قالها... قبل أن يقفزا، والصَّغيرةُ تُلَوِّحُ بِفَرَحٍ...

– شكرًا لك..

انفَضَّ الناس، ككل مرةٍ بلا كَلمةٍ واحدةٍ زائدةٍ. عاد المُهَرِّجونَ إلى جحورهم، والسماء اسودَّت أكثر، حتى أمطرت، للمرة الأولى على بلد الرمَّان. المطرُ أسود، كُل قطرةٍ منه هي الظلام بعينه... و»آسن»... الذي باتَ آسنًا... تغيرَ لونُهُ، سَعَى في البلدِ يصرخُ ويصيح...

– يـا «ودود»... يـا صديقـي الـودود... يـا صاحـبَ البَسـمَةِ والموعظـةِ الجميـل... ابحـث في كتابِـكَ عـن آسـنَ يمـشي بـينَ النـاسِ بالحَسـرَةِ... يحكـي عـن حكايـات اللَّـونِ، الـذي لم يُخلَـقْ في البلـدِ الذليـل... يحكـي عـن الوجـوه الملآنـة بالكَـسْرَة...

ظـل يـصرخُ ويعـوي... وذاتَ العينـين باردتـان، لا تذرفـان دمعًـا، احمَرَّتـا مـن الكُـرهِ والجُـرحِ، حتـى وَصَـلَ إلى بيـتِ صاحبـه... وجـدَ بِقُربِـهِ... عملاقَـينِ..!!

اختبـأ بـينَ الـزَّرْعِ، يراقـبُ عـن كَثـبٍ، عربـة خشـبية كبـيرة، يَجُرُّهـا عمـلاقٌ ثالـثٌ... وجوفُهَـا مـليءٌ بالرُّمَّـانِ الطـازج. جَحظَـت عينـاهُ مـن المنظَـرِ، يشـاهدُ في صمـتٍ... «رشـيد»... يطـرقُ بـاب «ودود»، الـذي اسـتقبلهُ بالأحضـانِ والترحـاب، وقَبِـلَ هديـةَ «الأخِ الحنـون» الغاليـة...

بينما...

كانت السماءُ، الكَظِيمَةُ..

ما زالت تُفرِغُ ما بجوفها من سوادٍ...

تُمطِرُ ظلامًا... أطفأ كُلَّ شُعْلَةٍ ببَلَدِ الرُّمَّان.

❋ ❋ ❋

(١١)

لوحةٌ، لن تُرسَم...

أنا شابٌّ، في بلدِ الرُّمَّان...

شابٌّ، يُخطئ ويرتكبُ ما قد يرتكبهُ أيُّهُم هُنا من ذنوب...

أصومُ عن كُل مشتَهًى، في بلدةٍ، يعتقدني الجميعُ فيها واعظًا، فقط لأنِّي... في يومٍ من الأيام... كنتُ في الكهفِ مع الجَمْعِ، عند البحيرةِ المقدسةِ... نشاهِدُ الطفل الأبيضَ كالثَّلجِ يستحمُّ فيها، ويُحيلُ ماءها... عسلًا حلوًا.

أتعلمُ يا «فنان»؟!...

يومها، كان جميع من أتى لمشاهدة الحدث مُقبلينَ على الشُّربِ منها، يشربونَ بشيءٍ من البهجةِ. يَرْوُونَ، عَطَشَ سنينٍ، إلى الفرحة. يرقصونَ في دوراناتٍ، ويضحكونَ، كما كانَ أجدادنا يضحكون قبلَ الحريق الكبير. كنتَ يومها مُعجِزة، و كُنتُ صغيرًا أراقبُكَ وأراقبُ النَّاسَ... بل... كُنتُ أصغَرَ فردٍ ارتدى عباءة حمراء من جماعة الاثني عشر...

- أَستَقبَلُ بالماءِ الآسنِ بعدَ قدسيةِ البحيرة... أيها الأخُ الحنون؟!!

هكذا هَمَستُ في أذنِهِ...

وهكذا... تَعَالى صوتي بينهم، لَمَّا قرأتُ في عينيهِ قبولًا لكلامي..

- أيـنَ قُدسـيةُ البحـيرة؟!!... المـاءُ وإن صـارَ حُلـوًا، لا تخلـو شـفافيته مـن تعكـيرِ العسـلِ..!!

هكـذا صِحـتُ بـينَ النـاس... التـي توقفـت عـن شربِ المـاء الحلـو. لَمَّـا وَجَـدتُ فيهـم تلـك النظـراتِ المُشَـكِّكة في أمـرِ المـاء... نـدت منـي البسـمة... المـرَّة الأولى، التـي يُسـمَعُ فيهـا صوتُـكَ يـا «فنـان»، وسـطَ جَمـعٍ كهـذا... هـي بمثابـةِ الضـوءِ الأخـضرِ لـكُل شيء... وهنـا انتصبـت قامتـي، ورفعـتُ يـدي للأعـلى...

- لقد فقدت البحيرة عُذريَّتَها يا قوم...

ضَحِكـتُ بـسِرِّي... يومهـا... ألـفَ ضحكـةٍ... ضحكـتُ لَمَّـا تذكّـرتُ يـومَ أن أطفأنـا النـارَ التـي احتضنـت أجسـادنا... أنـا وباقـي الاثنـي عشر... فارتمينـا في البحـيرة مُحَـلَّاةِ المـاء لنُطفِئهـا، عـادت جلودنـا كـما كانـت، بينـما تركنـا قذارتنـا وأنانيَّتَنـا فيهـا... فَمَلُـحَ ماؤهـا...!!

ضَحِكـتُ... كـما أضحـكُ اليـومَ أمامـك وأنـا أحكـي لـك عـن بعـضٍ مـن أمـرِ تلـك البلـدة...

أتُصَـدِّق؟!!... صِرتُ قِدِّيسًـا، أدعـو النَّـاسَ هنـا وأمشي بينهـم بالموعظةِ. صرتُ أحفَـظُ كِتـابَ القديـرِ عـن ظهـرِ قلـبٍ... أوَّلُ قدِّيـسٍ شـاب مـن مُرتَـدي العبـاءات الحمـراء حَظِـيَ بـه بلـدُ الرُّمَّـان. كانـت كلمَتِـي تلقـى احترامًـا بالغًـا مـن الجميـع...

«القديس الشاعر... الذي رأى الآسنَ الصغير يُلَوِّثُ ماءنا»

أتجـولُ بـينَ الرجـال الجالسـينَ بالطرقـات، لا يعملـونَ ولا يزرعـون، لا يفعلـون سـوى الثرثـرة في كُل شيء. هنـا، يُحِبُّـونَ الثرثـرةِ يـا «فنـان»، ومـا كُنـتُ أفعَـلُ سـوى الثرثـرة مثلهـم، لكـن قُـل، كلـماتي مسـموعة حتـى الهبـاء منهـا.

لكنِّي..

كما قُلتُ لك...

شابٌّ مثلهم، وأُخطئ... أنا كاذب!.

كانت ليلة، كحيلة، لا تَقِلُّ سوادًا عن نهارنا الذي لا يَطلعُ أبدًا... وكانت هناك فتاة... أو إن أردت فقُل «عاهرة»... من عاهراتِ البيتِ الذي صارَ أسود. رائحتها رُمَّانٌ، غَزَتْ قلبي قبلَ أنفي، وعينانِ صيَّادتانِ لا تستعصي عليهما فريسةٌ مثلي. جاءتني تتوسَّلُ، طالبَةً رِضاي...

- ولكنْ... ماذا بِيَدي سيدتي؟!..

- رِضاكَ هو رِضا القدير..

وأنا الذي ظننتُ أنِّي سَلَكتُ دربَ الرَّبِّ بتلك السنواتِ السابقة... هَزَمَتني بضعُ كلماتٍ كتلك!!...

تَرَجَّتني يومها أن أضاجعها!!... أرادت أن تَحمَلَ منِّي، كي تُكمِلَ «طقسَ الشرعية» خاصَّتها. قالت إن تلك خدمة، على رجل دين مثلي أن يُساعدها فيها. بَكَت وارتمت عندَ قَدَمَيَّ تُقَبِّلهما... طلبَت أن يكونَ هذا هو سرنا الصغير، وأن تلك مساعدة لفتاةٍ مسكينةٍ قد تضيع فرصةُ زواجها الوحيدة. حاولتُ أن أقنعها، بأن البلدة بها رجالٌ غيري، فبَكَتْ من جديدٍ... وقرأت عليَّ من كتابِ القدير ما أذهلني لمعرفتها تلك التفاصيل...

أتصدق؟!!...

كانت تحفظُ منه أكثر مما حفظته ورددتهُ بينَ الناس...

أقنعتني... تلك الشيطانة... بأن زوجها المستقبلي، ذا العينين الجميلتين، سَيَمتَنُّ إليَّ كثيرًا، لأنِّي سأكونُ مُتَمِّمًا لرباطٍ مقدسٍ سينقذهما... بعد أن يهربا معًا خارجَ البلدة!

في اليـوم الـذي، رأيتـكَ فيـه للمـرَّةِ الثانيـة، تـصرخُ في الطُّرُقـاتِ بِحُرقَـةٍ... تلعَـنُ آكلي الرُّمَّـانَ وزارِعِيـه... رأيـتُ أحدهـم يتسـول. اقتربـتُ منـه، أعطيتـه عملتـينِ نقديتـين. هـل سـتُصَدِّقُني لـو أخبرتـكَ، أنهـا كانـت المـرة الأولى التـي ألاحـظُ تلـك الكلـمات المنقوشـة عـلى العُملـة النقديـة؟!!...

«مَجِّدِ القدير... مَجِّدِ الرَّزَّاق»

الفقـراء هنـا يـا «فنـان»، يكتفـونَ ويصمتـون، بأقـل القليـلِ يَرضـون. كلـما أعطيتهـم تلـك العمـلات النقديـة، يثـورونَ في البدايـة، يتحـسرونَ مـن قِلَّتِهـا... لكنَّهـم... سُرعـانَ مـا يقـرأون مـا نُقِـشَ عليهـا... تنكـسرُ أعينهـم... ويَرضـون. يتمنـونَ فقـط لـو أن «القديـر»، الـذي نُقِشَـت أحـرُفُ اسـمه عـلى النقـود، أن ينظـرَ لهـم بعـينِ الرأفـةِ. يتمنـون فقـط لـو أنـه، يُراقـبُ صبرهـم وجوعهـم... ويصـبرون.

لـو كُنـتَ لا تـراني رحيـمًا، فأسـتطيعُ أن أجـزم لـك أنِّي لم أسـكت بعدهـا. فَعَلـتُ مثلـك، صرخـتُ في الشـوارعِ وأمـامَ البيـت النَّجِـس... وألعـن البلـدة والبحـيرة... حتـى أتـاني أحدهـم..!

عملاقـانِ يَجُرَّانـني بـلا سـابقِ إنـذارٍ. هـددني أحدهـم بالسـيفِ الـذي يقطـعُ الجبـال... صِحـتُ بوجهـه... أتصـدق؟!.. لم أخـف يومهـا مـن الأذى. قُلـتُ لـه:

- لـو مَسَسـتَ شـعرةً منِّـي، سأسـتنجدُ بالنـاس، وأنـتَ تعلـمُ أنِّي «أنـا النَّـاس»...

وقتهـا، ضُرِبـتُ... حتـى ارتـوَت الأرضُ مـن دمائـي التـي رأيتهـا لأول مـرة منـذ وُلِـدتُ. أخذانـني إلى بيـت «الأخ الحنـون»، والحـق يُقـال، الرَّجُـل كان يتحـدَّثُ بلهجـةٍ هادئـةٍ، لكنهـا أرعبتنـي...

– عـن أي أُنـاسٍ تتحـدثُ يـا هـذا؟!... إذا كُنـت تقصـدُ أولئـكَ الذيـنَ يثرثـرون ولأيِّ ذي صـوتٍ رخيـم يسـتمعون... فكـما صَنَـعَ منـكَ المُهَرِّجونَ قديمًـا، سـأُطلِقُهُم بـين ذات النـاسِ لِيوْحِلـوا سـيرَتَكَ بالقـذارة... أم أنَّـكَ نَسـيتَ أمـرَ تلـك العاهـرة التـي تسـتَّرتَ عليهـا... يـا شَـقي!!!

كنتُ أسمعُ كلامهُ، بلا نَفَسٍ... حتى أنهاهُ بكلماتٍ حاسمةٍ:

– لا تَجعَلَـنَّ حديثَـكَ إلا فيـما يُهَـدِّئُ النـاسَ ويَسُرُّهُـم، واتـرك أمـورَ الـرِّزقِ لِمَـن يـرزُقُ... ولا تجعلنـي أسـتدعيكَ ثانيـةً... حتـى لا أكـون أشَـدَّ عليـكَ مـن المحرقـةِ العظيمـة... يـا «مولانـا الشـقي»!!

لا تنظـر إليَّ هكـذا... أبعِـد عينَيـكَ الباردتـين عنِّـي، لـن أقـوَى عـلى مواجهتهـما. أعـرفُ تمامًـا مـا يـدورُ بعقلـك، لم يَـرَنِي أحـدٌ مـع تلـك العاهـرة بعينيـه... لكـنْ قُـل لي... إذا كانـوا صدَّقـوا عنـكَ أنَّـكَ آسـنٌ مـن حديثـي أنـا... وأنـا الـذي كُنـتُ نَكِـرة... لا أحـد منهـم يلحظنـي... ألـن يصدِّقـوا إذن كلامًـا يـأتي مـن «أخيهـم الحنـون»؟!!.

لا أطيـقُ النَّظَـرَ إلى نفـسي، لم أعـد أذهـبُ إلى دورِ العبـادة الكريهـة التـي بَنَوهـا مـن البيـوت الكبـيرة. البيـوت التـي كان أصحـاب الشـعلات الذهبيـة يملكونهـا... قبـلَ حريـقِ حـربِ الرُّمَّـانِ الأولى، حيـثُ أكلتهـا النـار وتهَدَّمَـت، لتَصِـيرَ دور عبادتنـا فيـما بعـد. اكتَفَيـتُ بـما أسـميه ثرثـرة، ويُسـمونه دعـوةً بـينَ النَّـاسِ. اكتفيـتُ ببيـعِ الـكلام لقـوم لا يفقهـونَ سـوى الـكلام. لا أخـرجُ عـن السـياقِ يـا صديقـي... هكـذا أتكَسَّـبُ حِصَّتـي مـن رُمَّـانِ «الأخ الحنـون»...

وإن شئتَ يمكنكَ القول...

بأنِّي أعملُ عملًا إنسانيًّا...

النـاسُ هنـا يـا «آسـن»... لا يحتاجـونَ إلى سـماءٍ، يرهقـونَ رقابَهُـم

برفعِ رؤوسهم حتى يروها... لا يحتاجونَ إلى ألوانٍ، يرقصونَ فرحًا بحكاياتها، حتى إذا ما انتهَى زمنُ الحكايات، عادوا منكسرينَ، مُكتَئِبينَ من جديدٍ... الناسُ هنا... لا يحتاجونَ إلى «شمسٍ»... فإذا أردتها أنت، ابحث عنها، ولكن تذكر... من يخرجُ من هنا، لا يعود..

ولكن انتظر...

قبلَ أن ترحلَ أريدك أن تَعِي...أنَّكَ سببُ كل مصيبةٍ وُضِعْتُ فيها. لولاكَ لما تلوَّثَت البحيرة، وما قُلتُ أنا ما قُلتُهُ يومها... لولاكَ ما عرفني الناس... الذين باتوا الآن يملكون هلاكي وبيَدِهِم أن يُنهوا أمري... لولاكَ لكُنتُ الآن مجردَ واحدٍ بسيطٍ منهم، أختبئ بينهم، وأرتضي بالقليل... لولاك... لكانت البلدةُ أفضل.

أنا ألعَنُ يومَ أن وُلِدت... ويومَ أن كَبرتَ... ويومَ أن جَعَلتَني ذليلَ «الأخ الحنون» إلى الأبد... أيها الآسن.

❊ ❊ ❊

«بَنَفسج»

(١٢)

«ذَهَبتُ إلى الذي، يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضَرِ... فمَا وَجَدتُ أحمر ولا أخضر»...!!

استيقظَ...
يفتحُ عَيْنَيْنِ جميلتَينِ... غاضبتَينِ...
كأنَّ فَتْحَهُما مثل غَلقِهِما...
ظلامٌ مُتَشَبِّعٌ... بالغُرْبَةِ.

استيقظَ ليجد نفسَهُ، في بطنِ الظلام، يبحثُ عن مخرَجٍ... بلا جدوى. آخِرُ ما يتذكَّرهُ هو تلك الجموع من أهل الرُّمَّانِ، يحاوطونَهُ، يحملُ كُلٌّ شُعلتَهُ، يوَجِّهُهَا إليه، يُعَرِّيهِ أمام الأعينِ. آخِرُ ما يتذكَّرهُ هو نظرةُ «رُمَّانة»، التي كانت تقِفُ بجوارِ أحدهم... من حاملي الشُّعلاتِ الذهبية... تحتضنُ ذراعه وتستنجِدُ بِجاهِهِ، بينما يتقدمها هو، كأنه يحميها من ذلك الآسن، الطَّريح أرضًا. يتذَكَّرُ تلك النَّظرة من «ودود»، الذي وقفَ بجوارِ «الأخ الحنون»، حيثُ... ألقى الأخير خطابَهُ أمام الجميع... فاتحًا ذراعَيهِ إلى الآسن...

«لقد مَدَدْنا لك يَدَ العونِ، رغمَ أنَّكَ لوَّثتَ بحيرتَنا... آويناكَ في أكثَرِ الأماكِنِ قداسةً في البلدة... تركناكَ تتجولُ بيننا كما لو كنت بالفعلِ واحدًا منَّا... وكُنتُ- أنا- «الأخ الحنون»، الذي يسعى لمصلحتك، أكثر القوم حرصًا على سلامتك، أترككَ تروي حكاياتِكَ الفارغةَ بين قومي، عن الألوان العجيبة، والعالم الآخر... والآن... الآن فقط... تنشُرُ الوباء بينهم؟!!... تنشرُ خرافاتِكَ المجنونة بينَ قومي؟!!... أهكذا ترد الدَّيْن؟!!»

وقفَ على قدمَيه، بالكاد تحملانه. تحدثَ إليهم بهدوءٍ وأسًى...

«أنا لم أكن يومًا منكم... ولا كُنتم منِّي»

استيقَظَ مفزوعًا، يتذَكَّرُ كيفَ حملوه، وفي الأقفاصِ الخشبيَّةِ العملاقة... زَجُّوهُ. يلقي عليه كُل من يَمُر به القذارة، والحجارة... التي كان يرسمُ بها آلامَهُ. يحملُ القَفَصَ عملاقٌ كريهٌ، ظَلَّ يمشي بِهِ في ظلام البلدة، والشُّعلات المرتعِشةُ تُضيءُ الطريقَ بِخَجَلٍ، حتى أتت آخرُ واحدةٍ... وانطفأت... حيثُ نهاية البلدة، وبدايةُ المَلكوتِ خارجها. سورٌ عظيمٌ، خَشَبِيُّ البِنْيَةِ، يَحُدُّها، ولا يسمَحُ إلا بالخروج منها. أُلقِيَ القفصُ بالخارج، حيثُ ظلامٌ ما بعدهُ ظلامٌ، ورياحٌ عاصفةٌ. تتلقَّفُ الأرضُ الرملية القفصَ الذي ارتطمَ «آسنُ» بكل زاويةٍ منه، بينما أخذت الرياحُ تُقَلِّبهُ بينَ كَفَّيْها. مهما فتَّحَ عَينَيهِ، لا يرى شيئًا... فظَنَّ لوهلةٍ... أنه أصيبَ بالعمى... حتى انزلقَ القفصُ، على وادٍ، يسحبهُ لأسفلِ طريقٍ غيرِ معلومِ النهاية....

- يا «ودود»... يا صديقي الودود... يا صاحبَ البَسمَةِ والموعظةِ الجميل... ابحث في كتابِكَ عن آسنٍ يمشي بينَ الناسِ بالحَسرَةِ... يحكي عن حكايات اللَّونِ، الذي لم يُخلَقْ في البلدِ الذليل... يحكي عن الوجوه الملآنة بالكَسْرَة...

أخذَ يصيحُ، يُنَاجي صاحِبَهُ...

يكررها، فلا يسمَعُ سوى صوتِ ارتطامِ القفصِ بالأرضِ الرمليةِ، يتدحرجُ للأسفلِ... ولا يَشعرُ بشيءٍ إلا ارتطامَ رأسِهِ بزوايا الأقفاصِ... حتى فَقَدَ الوَعي.

يستيقظُ، يقفُ على قدمَيهِ، يتلفتُ في الظلام محاولًا الإمساكَ بقُضبانِ القفصِ... لا قَفَص. باتَ حُرًّا منهُ، سَجينًا في قفصٍ آخرَ. يركضُ كيفما يشاءُ من المسافاتِ، فلا الظلامُ ينقشع، ولا المسافات تنتهي. يشعرُ بأن السِّجن الحقيقي هو بتلك الحرية التامة، خارج القفص. يتذكَّرُ الفحم، وكل شيءٍ أسود قابله ببلد الرُّمَّانِ. يتذكر أيضًا، تلك المقولة التي تلاها عليه «ودود، في كتابِ القدير...

«ليسَ في يدِ التائِه من شيء، لو أتتهُ زوبعةُ الخطيئة، فلَو دَفْنُ الرأسِ في الرمالِ خِسَّةً وجُبْنًا... فَدَفْنُ الجسَدِ كلّهِ فيها، لِيُفَادِيهَا... فضيلة»

يُفَكِّرُ بالكلماتِ، التي لم يفهمها من قبلُ. يُقَلِّبُها بعقله، يبدأ بالحَفرِ. يحفرُ حُفرةً بيديْه اللتينِ لم تتوقفا عن كَبشِ الرمالِ، والرياحُ العاصفةُ تشتَدُّ... وكلما حفرَ عميقًا، حرَّكَت الرِّياحُ الرمالَ من حولِهِ... لِتَملأ الحفرةَ، التي كانَ «آسنُ» يحاولُ دَفنَ نفسِهِ فيها... حتى تهدأ الزوبعة... ويَرضَى عنهُ القدير.

«آسنُ» يدفنُ رأسَهُ، في الرمالِ الباردة، فلا يختلفُ الظلام بالأسفلِ عن الأعلى. يُطَبِّقُ كلام القدير، كما تَلاهُ عليه «ودود»...

- ولكن... لماذا لا تذهبُ الزوبعة؟!!... لماذا؟!... لقد فعلتُ كما قال لي «ودود»...أهذا ما كنتَ تقصده أيها القدير؟!!... أهذا ما أرَدتَهُ؟!!... أن تُذِلَّني وتوحِل رأسي في التراب؟!

لا يكُفُّ عـن الـصراخِ، وركلِ الرمـالِ التـي لا يعلـمُ مصدرهـا. لا يكُفُّ عـن الركـضِ والرَّكـضِ... ثـمَّ السَّـيرِ عـلى اثنتَـينِ... ثـمَّ الزَّحْـفِ عـلى أربَعٍ، حتـى هـدأ، خـارَت قـواهُ، وعـلى ركبتَـينِ جَريحَتَـيْنِ جَثَـى.... وكان آخـرُ مـا رآهُ، كُـرَةً حمـراء صغـيرة، مـن بعيـد... يناديـهِ وَهَجُهـا بِحـرارةٍ، مَـدَّ يدَيْـهِ إليهـا، يُحـاولُ الإمسـاك بهـا، حتـى ترتسـمَ عـلى شـفتَيهِ تلـك البسـمة مـن جديـدٍ... قبـلَ أن يسـقطَ مغشـيًّا عليـه.

❊ ❊ ❊

(١٣)

«هل من أحدٍ هنا؟!!»...

حتى مدَّةٍ ليست ببعيدة من الزَّمنِ، ظَنَّ أن ما كان يَمُر به هو محضُ كابوسٍ مظلمٍ، وأنَّ، عينيهُ ستُفتَحانِ في أي لحظةٍ... لكن ما إن أفاقَ من غفلتِهِ مرَّة أخرى... حتى وجَدَ الكرة الحمراء المضيئة على ذاتِ المسافة البعيدة. أخذَ يركضُ، يلهثُ من الحماسِ... لا من التعبِ... كلما اقتربَ أكثرَ من مصدر الضوءِ، الذي كَبُرَ واتَّسَعَت دائِرتُهُ... حتى وجدَ نفسَهُ أمام مدخلٍ شاهقٍ... لجوفِ ما يشبِهُ الكَهف. ألقى نظرة قبلَ أن يدخُلَ... على القناديلِ الزَّاهِيَةِ بأضواءٍ حمراء... ليسَت بِنارٍ كالتي يعرفها...

- هل من أحدٍ هنا؟!!...

لم يُجِبهُ مُجيبٌ...

اجتازَ المدخلَ، يرتجفُ من البردِ بالخارج. يُراقبُ الممر الواسع، ويتَتَبَّعُ القناديل المضيئة. يلمسُ إحداها، هلامية الملمس، فورَ أن لكَزَهَا بإصبعهِ؛ انقلبَ ضوؤها الأحمرُ أخضرَ... وتَبِعَتهُ سائرُ القناديل... أمسى الطريقُ أخضرَ مُشِعًّا. سارَ في الممر الذي لا ينتهي، والأضواءُ التي لم يعرف مصدرها لا تنطفئ... وعندَ آخر قنديل... بدأت همهماتٌ في الانتشارِ من حوله... تحولت... إلى ضحكاتٍ خبيثةٍ... تتسرَّبُ من كل جهةٍ...

- أتيتُ بِسلامٍ... لا أريدُ إيذاءَ أحدٍ...!!

تعالَت الهمهمات، وبدأت أصواتُ أنفاسٍ تحومُ حولَهُ، حتى ظهرَ أحدهم، من خلفِهِ، يُكَبِّلُ ذراعَيهِ... وأيادٍ كثيرةٌ، من حولِهِ تمسكهُ... وتهمس:

- لقد وصل...!!

- أتيتكم بسلام!!... صدقوني لم أقصد التطفل..!!

أغشى أحدهم عينَيْهِ بالسواد، حملوه وركضوا بِهِ إلى حيثُ لا يدري.

أزالوا القماش الذي حولَ وجههِ، ليرى ما أذهَلَ كُل ذرةٍ من كيانه...

ألوانٌ عجيبةٌ، تَدْهِنُ الصخورَ حولهُ، تُبَطِّنُ أسقُفَ الكهفِ العالية، يَلمعُ طيفُهَا الذي تزيده الأنوار الخارجة من القناديل المعلّقةِ على كل جانب...

- أينَ أنا؟!!...

- انتظرناك زمنًا...

قال أحدهم، رادًّا على «آسن» الذي... بدا لوهلةٍ غريبًا عمن حولهُ من أناسٍ... يصبغُ جسدَ كلٍّ منهم لونٌ، صافٍ، لا يشوبهُ لونٌ آخر..!

رأى، أطفالًا، يلعبونَ ويتسابقونَ أمامهُ...

طفلٌ أصفر، وآخرُ أحمر... وطفلةٌ وردية، وأخرى خمرية...

ورأى..

عاشِقَينِ، لونَاهما نَقيَّانِ، يجلسانِ على مقربةٍ منه. يستندانِ إلى صخرةٍ مُلَوَّنةٍ، بديعةِ الشكلِ، يتلوانِ ترانِيم؛ شَعَرَ «آسنُ» أنه سمعها من...

قبـل، لا يلقيـان بـالًا بمـن حولهـما. رأى الجميـعَ يتحركـونَ صوبَـهُ، كُلٌّ لـه لـونٌ نقـي... أحدهـم يحمـلُ حجـرًا، لامـعٌ سـطحُهُ كأنَّـهُ مـرآة، قرَّبَـهُ مـن «آسـن» الـذي بـدا مذهـولًا مـن سـكان الكهـفِ... لـيرى نفسَـهُ ولونـه، للمـرة الأولى... رمـاديٌّ مُلَطَّـخٌ مـن كُلِّ لـون.

***

(١٤)

«هي الدَّابَّة، التي خَرَجَت من النَّهرِ لتلتهِمَ كل ساكني «مدينة الأطياف». هنا أيها الغريب، ترعرعنا، كَبرنا من الظلام، وأكلنا من الظلام... هنا... كان الواحِدُ منَّا لا يعرفُ له شكلًا ولا لونًا، نتعاملُ بالأصوات، نتلمَّسُ طريقنا بأيدينا، و نعرفُ بعضنا بنبراتِ الصَّوتِ... ثم... تأتي تلك الدَّابَّةُ العظيمة، تُطِلُّ علينا من النَّهرِ الذي لم نعلم بوجودِهِ إلا عندما ابتلعت جماعةً منَّا، وهربت بنا إليه. وجدنا أنفسنا بداخلها، وبواقي مُدُنِ التهَمَتْها، وجُدرانُ مَعِدَتِهَا كانت مُضَاءةً بتلك القناديل الغريبة، لا نعرفُ مصدرَ نورها، هلامية، كلما ضغط عليها أحدنا، كانت تعصرُ عصارة، إذا دَهَنَتْ الواحد منَّا صبَغَتهُ، فيُسَمَّى بذلك اللون».

اشتَكَى أحد المُلَوَّنين إلى «آسن»، الذي عَرَفَ أن المدخل الذي أدخله إلى هنا... كان فَم تلك الدَّابَّة العملاقة. تخرجُ من النهرِ لتأكل وتُسبب الخراب لأقربِ بلدٍ تجده، وتعود إلى النهر الأسود. لَّما سأله «آسن» عن ذلك النهر، قال الملوَّنُ الشّاب إن الدَّابَّة قَتَلها أحد سكان قومِهِ، لَّما التهمتهم بالأرضِ التي كانوا يسكنونها. سكنوا جوف الدَّابَّةِ أعوامًا، كانوا آمنينَ بها، يستنيرونَ بالأنوار، والحجارةِ الغريبة التي وجدوها بجوفها. سأله «آسنُ» عن تلك الحجارة، التي كان قد رأى مثلها في الكهفِ حيثُ البحيرة المقدَّسة...

ابتعدوا عنه...

فَزِعوا، لَمَّا ذَكَرَ البحيرة المقدسة...

حاولَ «آسن» أن يطمئنهم، أنه لم يأتِ بالشر، قال، مغيرًا دفَّة الحديث... إنه سمعهم يقولون «انتظرناك».

- نعم، أنت لمستَ إحدى القناديل حمراء الضوءِ لِتُغَيِّرَ ضوءها إلى الأخضر... ألستَ ذلك العرَّاف الذين يتحدثونَ عنه؟!!

- مَن؟!.. مَن هُم؟!

- القبائل الأخرى..

- ولكن أخبروني... هل نحنُ حقًّا.. الآن... بداخل وحشٍ عملاقٍ؟!

سكتوا عن الهمهمات، وتوقف الأطفالُ عن اللهو...

- لا تقل وحشًا... إنها دابَّة، عظيمةُ الحجمِ، لولاها لكُنَّا الآن على حالنا السابق، تائهينَ في ملكوتٍ شاسع الاتساع، مرعب الظلمة، لولا تلك الدَّابَّة لكُنَّا بلا صِبغة أو هوية...

- إذن لماذا قتلتموها؟!

- لم نفعل... «الأبيض الهادئ» هو من فعل... لَمَّا تجولَ بجوفها، محاولًا استكشاف طريقٍ للخروج، وجدَ شيئًا نابضًا، بحجمِ تَلَّةٍ...

- ماذا يكون؟!

- لا ندري... لكنَّه غرَسَ فيه رُمحًا وجدهُ بإحدى الزوايا، حيثُ ابتلعت معدات حربٍ من بلدةٍ ما لا نعرفُ لها حقيقة...

- وماذا بعد؟!

– توقف ذلك الشيء النابض، وتوقفت حركةُ الدَّابَّة... خرجنا من جسدها، بعدما حفرنا في أبعد جزءٍ من جسدها، خرجنا منها، حيثُ للمرَّةِ الأولى... رأينا ذلك النهر..

عندما أتى ذِكْرُ «النهرِ» على لسانِ الرَّاوي، وقفَ الجميع، نظروا للأعلى وأغمضوا أعينهم، وبكوا...

– كيفَ كان... ذلك النهر؟!

– كان لونه غريبًا، لونٌ لم نرَ مثله من قبل... غامق... ليس بالأسود، ولكنه غامق، احترنا فيه. كانت تعلوه سحاباتٌ كثيفات، لا نعلمُ ما تُخفيه... لكن... ذلك الشعاع الضوئي الذي... يخترقُ إحداها، ويغطسُ إلى الأسفلِ، فَيُحدِث بقعةَ نورٍ على النهرِ... تلك البقعة المُنِيرة، عرفنا قيمتها فيما بعد...

لم تتوقف حكاياتهم عن النهر العظيم، وعن تلك الدَّابَّةِ التي لا يعلمون أصلها، والتي، صار جوفها مسكنًا لهم. سألهم «آسن» عن ذاك الذي ينعتونَهُ بال«أبيض الهادئ»، فقال أحدهم إنه أحد السكان القدامى... أصيبَ بمرضٍ ما، بعد أن قتلَ الدَّابّة، بات مشلولًا لا يقوَى على الوقوف والسَّيرِ... هذا «الهادئ»... هو الوحيد في أولئك القوم... الذي كان أبيض كالثّلجِ. لم يتغير لونه حتى بعد أن لامسَ الصبغات التي تُعصَرُ من القناديل. «لم يَكُن غريبًا عنا، لكنه كان أغربنا»... هكذا قال آخرٌ من الجالسين. قالوا بأنه صارَ يحكمهم، اجتمعَ حوله من كانت ألوانهم زاهية، وقد كان. اتَّخَذوا من الأماكنِ القريبةِ من النَّهرِ سكنًا لهم... بينما... ظَل الباقونَ بالداخل، لا يحِق لهم الخروج إلا في «موسم الاغتسال»... حيثُ كانت المرة الأولى التي عرفوا فيها تلك البقعة في النهر التي يضيئُها شعاع النور بالأعلى..!!

– أتعلمون؟!... أظنكم تُشبهونني... أظن أن هذا موطني... إذ من حيثُ أتيت، أنا الوحيد المُلَوَّن، هناك كنتُ «آسنا»... أما هنا، فأنا لا أختلفُ عمن سواي..

– لكنك لستَ بِلَونِنَا!!...

– لكنِّي... مُلَوَّن...

– لا تُشبهنا... أنتَ خليطٌ عجيبٌ، لم يسبق لنا أن رأينا مثله...!

قالها أحدهم، لتعود الهمهمات من جديد... والجميع ينظرُ إلى «آسن» بِتَخَوُّفٍ.

– ألستَ الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر؟!!

غَضِبَ «آسن»... رفسَ الأرضَ بقدمَيهِ، ظل يصرخ..

– أنا أبحثُ عن هذا الذي يَعْلَمُهُمْ... أبحثُ عنه... فلا تنعتوني بهذا الاسم!!!... طُرِدتُ من بلدي لأنِّي أبحثُ عنه... عن ذلك اللعين الذي يعرفُ كل شيء...!!

تجمهروا حوله، والغضبُ يملأ وجوههم...

انقضُّوا عليه، ينهالون بالضربِ والرَّكلِ. يشتمونهُ بالـ«آسنِ» والملوَّثِ والنَّجِس... وآخرون يبعدونَ أولادهم وأطفالهم عنه، كيلا يتلوَّثوا بلونه المُخَلَّط. أسالوا دمه من جديدٍ، أحدهم قفز على ظهرِهِ، وانهالَ على وجههِ بصخرةٍ حادةِ الأحرُفِ... رَسَمَ خريطةً تعريفيةً جديدة... لوجهِ «الآسنِ».

– لا تقتلوه الآن... لنأخذهُ إلى «الأبيض الهادئ»...

حملوه، مغشيًّا عليه، لا يعي من أمرِهِ شيئًا. مَشوا بِهِ إلى داخلِ الدَّابَّةِ، سلكوا دربًا أخذَ في الاستنارةِ أكثر كلما مضوا إلى آخرِهِ...

وأخـذت الرائحـةُ الكريهـة في الذوبـان بالهـواءِ المنعِـش. ألقـوهُ خـارج الدَّابَّـة، حيـثُ النهـرُ الأسـود أمامـه، والظـلامُ حولـهُ، لا يـرى سـوى تلـك البقعـة في النَّهـرِ، شـديدةُ الإضـاءة، بالنـورِ الأصفـرِ السـاطع، المولـود مـن السـحابات الكثيفـات المظلـمات بالأعـلى... وأحدهـم ينـادي بصـوتٍ رخيـمٍ...

- يا أهلًا بالآسنِ... يا أهلًا بالعدوِّ... من قومِ الرُّمَّان...!!

❊ ❊ ❊

(١٥)

بيتٌ صخريٌّ، نُحِتَ في الجبلِ المواجِهِ للنهر الأسود. خَدَمٌ باهِتو الألوان، يطوفونَ بالداخل، يشبهونَ بعضهم، لا يفرقهم سوى نبرةِ الصوتِ... ورجلٍ... ثَلجِيِّ البياض، يتَّكئ على مصطبةٍ من صخرةٍ منحوتةٍ، ينظرُ إلى «آسن»، يتأمل هيئتهُ ولونهُ الرماديَّ الغريب... ثم ينظرُ إلى لونِهِ هو الأبيض... ويضحك ويصفق بيديه كطِفلٍ راشدٍ.

- أعتذرُ عمَّا فعلوه بكَ الهَمَجْ... كفاك كسلًا وقُم تحدث معي..!

بنبرةٍ هادئة، قالها... و«آسنُ» يتقلَّب في نومته، مُكَبَّلٌ بالحديد، يَلبَسُ من قماشِ السُّندُس، يفتحُ عينَيه ليرى رجلًا شديدَ البياضِ، يرتدي حريرًا أبيض، عيناهُ وشعرهُ ولحيته كأنَّها الليلُ... يرقدُ أمامه، يتطلَّعُ إليه بِشَوقٍ...

- أين أنا؟!!..

- أنتَ في ضيافَةِ «الأبيض الهادئ»... في ضيافتي يا «آسن»... ألستَ تُدعَى هكذا في بلدك؟!

حاول «آسن» الهربَ من مكانه، تَرُدُّهُ السلاسلُ الحديد... والرَّجلُ القَعيد لا يزال إليه ناظرًا، مُتَطَلِّعًا لأي كلمةٍ تخرجُ من فمهِ.

- ولكن... من أينَ تَعرفني؟!

– الأغبياء ظَنُّوكَ ذلك العرَّاف، يتحدثونَ عنه طوال الوقت... أنا أعرفُكَ جيدًا... بلادُنا تُرسِلُ إليكُم أفضل أنواعِ البخور والأحجارِ المُلَوَّنَة...

– عن أي بلادٍ تتحدث...؟

– ألا زِلتَ نائمًا؟!... حرب الرُّمَّان... تلك الحرب التي تُبادلونا إياها...

اقتربَ «الأبيض الهادئ» منه... أخذَ يتلمَّسُ جسدَهُ الرمادي، تعلوهُ الدهشة والإثارة..

– هذا جسدٌ لم أرَ مثله من قبل... لم أختبرهُ من قبل...!!

قالها... وابتسمَ بِخُبثٍ. اضَّيَّقَتْ عيناهُ، يُحَرِّكُ إصبعهُ بِدلالٍ بِفَمِه... بينما، ازداد قلق «آسن».

– عندما أُرسِلُ رجالنا بالبخور إلى بلدتكم، كانوا يأتونني دومًا بأخبار... عن شابٍّ لونه غريب، مختلف، يمشي بينَ الناس بحكايات وأقاويل غريبة، عن أحجارٍ ملونةٍ وسماء سوداء، عن عالمٍ آخر لا حربَ رمان فيه... عن ضوءٍ أصفر يوجدُ بمكانٍ لا يعلمهُ أحدٌ سواه...

– أنا لا أعلم مكانه... أنا أبحثُ عنه، وقد أتيتُ باحثًا عن ذاك الذي يعلمُ ما بين الأحمرِ والأخضرِ، يعلمُ الماضي والمستقبل ويصنع الحاضر... علَّهُ يُعلمني من أمرِهِ شيئًا ينفعني!

نادَى «الأبيض» على خَدَمِهِ، أتوهُ مسرعين. تَعَجَّبَ «آسنُ» من أولئكَ الخدم، يشبهون القوم الذين ضربوه بالخارج، لكنَّ ألوانهم باهتة، تكاد تنعدم، مُنَكَّسي الرأسِ لا يرفعون أعينهم من الذُّل. أمَرَهُم بِحَلِّ وثاقِ الآسن... قال له «أنتَ ضيفي الآن». انطَلَقَ الخادمان يَجُرَّانِ

عربة يقعُدُ عليها «الأبيض»... ثم بدأوا جميعًا بجولةٍ بالبيتِ الصخري المنحوت في الجبلِ... وكُل نافِذةٍ فيه على طول الممرات تُطِلُّ على النهرِ الأسود.

- ما بال أولئكَ الخَدَم؟!... لمَ لونهم...

- دعكَ منهم، قُل لي... هل أعجبتكَ بلدتنا؟!

- حسنٌ، ربما تعرَّضتُ للضربِ منذُ قليل، لذا...

- أنا أعتذر مرة أخرى، لكن لن يمَسَّك أحدٌ بسوء هنا..

- شَعَرتُ أنِّي أشبههم، لا أعرفُ لماذا تحولَ لوني هكذا، لكن على الأقل... أنا مثلهم... مُلَوَّن.

سكتَ «الأبيض الهادئ»... لفَّ ذراعَهُ حول «آسن»، أمَرَهُ بألا يُشَبِّهَ نَفسَهُ بأولئكَ الهَمَج. لَّما وجدَ «آسن» قليل الكلام، بدأ يحكي له عن بدايةِ مملكتِهِ تلك...

«أن تكونَ بالصحراءِ الموحِشةِ تحيا، والظلامُ يُكَبِّلُ حركَتك بوحشيةٍ... تتمنى لو أن الموت يأتيكَ ويلتهمك، يُحَررك من ذلك الضلال... نعم... ويا للسخرية... تمَنَّينا جميعًا الموت، أو أن يبتلعنا وحشٌ يريحنا من عذابنا... حتى أتت تلك الدَّابَّة، التي جَعَلَت من كل فردٍ منا مَلِكًا... أعطته صبغةَ لونٍ يتلوَّنُ بها من تلك العُصارة، نقلتنا من الرمالِ الباردة إلى حيثُ النَّهر. كانت المفاجأة، أننا لما خرجنا منها، تذوقنا ماء النهر الأسود، المالحة اللعينة، ما طاقَ أشَدُّنا بأسًا طعمها... لدينا نهرٌ هائلٌ وماؤهُ لا يصلحُ للشرب... يا للسخرية!! عُدنا إلى داخلِ الدَّابَّةِ الميتةِ، التي قتلْتُهَا بِرُمحي... عدنا بعد خيبةِ الأمل في النهر... بحثنا في داخلها عن أي شيء، ورائحة جسدها المتعفنِ تزداد عفونةً مع انقضاءِ كل يوم... حتى وجدنا...

بجـوفِ معدتهـا الأكثـر عُمقًـا... ثـرواتٍ هائلـةً، مُرعِـبٌ مـا وجدنـاهُ مـن الذَّهَـبِ والحجـارةِ المَاسِـيَّةِ... وتلـك المـادة الصخريـة، التـي مـا إن نحرقهـا بالنـارِ حتـى تُسـتَحضَرُ منهـا الروائـحُ العطريـة كالأشـباح، تُطِيـحُ بِعَقـلِ الواحـدِ منَّـا، فيرتخـي ولا تغـادرُ الابتسـامَةُ وجهـهُ حتـى تنتهـي الرائحـة».

كان «آسـنُ» يسـتمعُ إليـه، بإنصـاتٍ شـديدٍ، حتـى إذا مـا مَـرَّوا عـلى النافـذةِ الأخـيرةِ، رأى منهـا بعضًـا مـن أهـلِ البلـدة، يسـتحمونَ في النهـر... في تلـك البقعـة التـي يسـقطُ عليهـا شـعاع النُّـور...

- سيدي... من أين يأتي ذاك الشعاع؟!... هناك!..

- لا نعـرفُ... ربـما يـأتي مـن الأعـلى، حيـثُ القديـر... اسـمع، لا نسـأل عـن تلـك الأشـياء هنـا... المهـم مـا يفعلـهُ ذلـك الشـعاع بنـا.

صرخ أحدهـم بالأسـفل، كان يسـتحمُّ في النهـرِ... لَّـما أراد أن يقـترب مـن بقعـة الضـوء، جَلَـدَهُ الحـراس بِكَرَابِيـج معدنيـة السَّـوط، أخرجـوه، ثـم صـاحَ «الأبيـض الهـادئ»... الـذي مـا عـادَ هادئًـا في تلـك اللحظـة...

- ألم يَقولـوا لـك إن يومَـكَ لم يـأتِ بعـد؟!!... لمـاذا يُجـبرني هـؤلاء الهَمَـجُ عـلى إيذائهـم؟!!

ابتسـمَ لـ«آسـن»، قـال بأنـه لا يغضـب هكـذا عـلى الـدوام، إلا عندمـا يدفعـهُ أولئـك البهائـم إلى الهاويـة، حيـثُ لا مجـال آخـر للأمـرِ أو النَّهْـي.

وصـلا نهايـةَ الرحلـة، داخـل البيـت المنحـوت. أمـرَ «الأبيـض الهـادئ» خَدَمَـهُ برعايـة «آسـن»، وأن يُلبـوا أي طلـبٍ لـه. تركـه يسـتريح حتـى ليلـة الغـد... ولَّـما أدارَ «الأبيـض» ظهـره... نقـرَ أحـد الخَـدَمِ باهِتِـي الألـوان عـلى كتـفِ «آسـن». قَـرَّبَ فَمـهُ مـن أذنِـهِ... وهَمَـسَ:

- اهربْ...!

***

(١٦)

من «الباهِتِ» إلى «الآسِنِ»...

آسف، لأنِّي أَخَفْتُكَ بالأمسِ...

أكتبُ إليكَ اليوم، على تلك القماشة من ملبسي، ولم أغير رأيي بعد... اهرب!

المكان هنا لن يُناسبك، ومن تبحثُ عنه لم يوجَد ولن يوجد هنا. هنا، ستجدُ فقط مجموعةً من معدومي العقل، كانوا بلا ملامحَ، قبل أن تلتهمنا دابَّةٌ عملاقةٌ جعلت منا قومًا... هنا... لا أحد يعرفُ الآخر، ولا أحد يهتم بالآخر يا سيدي الآسن. أنا أفهمُ تمامًا لماذا ضربوكَ وآذوكَ، فقط لأنك لستَ ذلك الذي يعرفُ ما بينَ الأحمر والأخضر... وأعرف... أنهم سيؤذونَ كل من يأتيهم بعدك. ربما كنتَ تظن أنك تشبههم، فقط، لأنك مُلَوَّن... وهذا يا سيدي ضربٌ من الغباء...

اقرأ رسالتي إلى النهاية، واحكم بعدها!

أكتبُ إليكَ سِرًّا، وحولي يُجاورني الكثير ممن بَهَتَتْ ألوانهم مثلي، لأننا، لم ندفع الضريبة كالباقين. ستسأل عن أي ضريبةٍ أتحدث... وسأرد:

«ضريبة الغُسْلِ في بقعة النهر المُضيئة»

كما قُلتُ لك يا سيدي من قبل... واعذر لي خوفي وارتباكي وأنا أكتبُ لك... نحنُ كنا قومًا بلا صبغةٍ، بلا لونٍ... حتى اكتشفنا تلك العصارة بداخل القناديل المُضيئة، التي أعطت لكلٍّ منا لونًا لا يُشبه الآخر. بتنا نُفَرِّقُ بين بعضنا، وبِتنا نُسَمِّي أنفسنا بأسماءِ ألوان. لفترةٍ من الزمن، سادَ عصرٌ جديدٌ على تلك المخلوقات البائسة، ظنَّت فيه أنه صار لها هوية بين القبائل... حتى أتى اليوم الذي... صرخت فيه إحدى إناثنا، لما بدأ لونها في البُهتانِ... حتى اختفى تدريجيًّا، وعادت باهتةً كالسابق...

بيد أن..

لما كنا نعيشُ في الصحراء المظلمة، لم نكن نعرفُ أننا باهِتو اللون... كان الظلام يغشانا، ولم تكن تعنينا بالأصل أشكالنا وصفاتنا...

ولما دخلنا تلك الدَّابَّة، واستنَرْنا بأنوارها، بدأنا نعرفُ حقيقتنا، بدأنا، نرى عيوبنا... عرفنا أننا كنا قومًا خاوينَ، باهتي الألوان... ووقتها، قَدَّسنا تلك القناديل وتلك الأصباغ بها، التي أعطتنا هوِيَّة تُمَيِّزنا...

تكررت تلك الحادثة، وبدأ لون واحد تلو الآخر بالاختفاء... بدأنا نعود إلى بهتاننا الأول.. حتى، اكتشفَ أحدنا... أن الاغتسال في البقعةِ المُضيئةِ من النهر الأسود، يُعيد إليه صبغته، يُعيد إليه لونه كما كان.

هنا يا سيدي الآسن... بدأ كل الطغيان، الذي أعتقد بأنك رأيت جزءًا منه بالأمس...

أقامَ «الأبيض الهادئ» سورًا، يحجِبُ النهرَ عن القومِ التائهين

المساكين. إذا أرادَ أحدنا أن يغتسلَ ليعودَ لونُهُ، كان لِزامًا عليه أن يدفعَ ضريبة... أطلقَ عليها «ضريبةَ الغُسْلِ»...

ليس هذا كل شيء... الناس هنا أغبياء، مساكين... لكنهم قطعًا لا زالوا يُفكرون، وقد تجد في بعضهم من الحكمةِ والرزانة ما يُشعِلُ نارًا من التساؤلات في عقولهم... كما فعلَ أحدهم...

«أتدفعونَ لِكَي تأخذوا ما هو حَقٌّ لكُم؟!!... أنتم من صنعتم ذلك الأبيض الهادئ... لا تتركوا ذلك القعيد يتحكم بكم»!!

قالها أحدنا، كان قد بَهتَ لونُهُ، ثارَ في الناس... الذينَ ما أن التفتوا لتلك الكلمة... «قَعيد»... حتى باؤوا بغضبٍ شديدٍ... وهنا يا سيدي، حَوَّلَ «الأبيض الهادئ» الأمرَ إلى رؤية... رؤية أتته من «القدير» في نومِهِ...

«يومَ أن أصِبْتُ بلعنة الشلل تلك، أتتني رؤية، في منامي... حيثُ كنتُ أسبحُ في ظلامِ صحرائنا. تائهٌ أنا في تلك الرمالِ الباردة، أرتجفُ خوفًا على قومي، وأسألُ «القدير» أن يحفظكم... لأجد ذاك النور باديًا في الأفقِ... وأجدُ نفسي ألهثُ لأصِلَ إليه. هناك يا سادة، وأنا أقتربُ من النور، كنت واقفًا على قدمَيَّ، وما إن لامستهُ بأصابعي... خَارَت قوايَ، شُلَّت قدمايَ... سَقَطّت. بكيتُ كثيرًا، حتى أتاني صوتُ القدير من الأعلى... قال «لقد اقتربتَ أكثر من اللازم، وسألتَ عن المسكوت»... يومها يا قومي، يا من صنعتم منِّي مَلِكَكُم... عرفتُ بأن الذهابَ إلى الضوءِ بحِسابٍ، نأخذُ ما نأخذ، ولا نسألُ عما لا يعنينا...».

أنت تضحك الآن... أليسَ كذلك؟!...

هـذا كلامٌ لا يصدقـهُ إلا ذو عقـلٍ ناقـصٍ... أوه، بالطبـع... تمامًـا كأغلبِ سـكانِ تلـك البلدة!!

بتنـا منـذ ذلـك اليـوم عبيـدًا للأبيـض، كلـما بَهـتَ لـون أحدنـا، يدفـع الضريبـة، ويغتسـلُ في البقعـةِ المضيئـةِ مـن النهـر... يعـودُ إلى لونـه الـذي كان عليـه. هنـاك البعـضُ... الذيـن صـاروا مـع الوقـتِ أكثـرَ بكثـيرٍ مـن مجـرد أعـدادٍ بسـيطةٍ... لم يقـدروا عـلى الضريبـة، عـادوا إلى البُهتـانِ الأول... عـادوا بـلا صِبغَـة... منهـم مـن قُتِلـوا محاولـينَ القفـزَ في النَّهـرِ، ومنهـم مـن غرقـوا محاولـينَ الهـرَبِ عـبرَ ذات النَّهـرِ...

لا تستغرب يا سيدي الآسن...

حـاولَ أكثرنـا الهـرب، حتـى أولئـكَ الذيـن مـا زالـوا عـلى لونهـم يُحافظـون... أمَّـا مـن لم يقـدر عـلى الهـربِ، وقـد بَهـتَ لونُـهُ... فـلا ملجـأ له سـوى البيـت المنحـوت، هنـا... وتحديـدًا يـا سـيدي... تلـك الغرفـة التـي تنـام أنـت بهـا!!...

الحيـاة هنـا لا تُناسـبك... يومًـا مـا... سـتنفدُ العصـارة بداخـل القناديل، وسَـتُولَدُ أجيـالٌ لا تعـرفُ طَعمَ اللـونِ...

يومًا ما..

سـيتآكلُ جسـدُ «الدَّابَّـةِ» التـي قاربَـت عـلى التَّعَفُّـنِ، حتـى صـارت رائحتهـا تجـوبُ البلـدان الأخـرى... وزاحَمَـت فضيحتنـا ذرات الهـواء مـن حولنـا...

يومًا ما...

كُلُّ مـا سـيتبقَّى لنـا هـو هيكلهـا العظْمـي، الـذي لـن يؤوينـا مـن الظلام بالخـارج، بينـما... «الأبيـض الهـادئ» ومـن يعملـونَ في ملكوتِـهِ... قـد آووا إلى الجبـالِ، وعَمِلـوا مـن قسـاوَتِها بيوتًـا لا تهزُّهـا أعاصـير...

أعـرفُ أنِّي أطلـتُ عليـك... وأن أمنيتـي بـأن تنهـي الخطـاب حتـى النهايـة هـي أقـصى مـا لـديَّ...

لكـن... ربـما لـو تَبِعـتَ مصـدرَ الضـوء الأصفـر الآتي عـبر الغيـمات الكثيفـات بالأعـلى... ربـما قـد تَجِـد ذاك الـذي تبحـثُ عنـه...

«الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر»

اهرب...!!

❊ ❊ ❊

(١٧)

الأيـامُ متشـابهةٌ، «آسـنُ» يتجـولُ في البيـتِ المنحـوتِ، يُراقـبُ الخَـدَمَ باهِتـي الألـوان. ينظـرُ في وجوهِهِـم، ينظـرونَ إليـهِ بـذات النظـراتِ المُنكَسِرة، تختبـئُ أعينهـم منـه. يبحـثُ بينهـم عـن الـذي بَعَـثَ لـه بالرسـالةِ أمـام بـاب غرفتـه. يتذكَّـرُ تلـك الكلـمات..

«كل مـن لم يهـربْ، ومـا زالَ لونـه باهتًـا... كان مصـيرهُ هنـا، البيـت المنحـوت، تحديـدًا تلـك الغرفـة التـي تنـامُ أنـت بهـا»

– ظننتُكَ لا تزال نائمًا كعادتك... أمامك الكثير لتحكيه لي اليوم..

باغَتَـهُ «الأبيـض الهـادئ» مـن الخلـفِ... كان في كل مـرةٍ يأتيـه مـن غفلةٍ، يُداعِـبُ جـزءًا مـن جسـده... يتأفـفُ «آسـن»... لكـن «الأبيـض» يتراجـعُ بهـدوءٍ ويُغـير الموضـوع.

كانـا يتجـولان في البيـت بصحبـةِ خادمـيْن آخريْن يَجُـرَّانِ العربة الخشـبية. يومهـا، لم يتكلـم «الأبيـض» كثـيرًا، كان شـغوفًا بسـماعِ حكايـات «آسـن». كان يطلـبُ منـه سرد حكايـاتٍ عـن الألـوان وعـن المحرقـة العظيمـة التـي عمِـلَ بهـا تـارةً... وكان يأمـرهُ بوجـهٍ غاضـبٍ تـارةً أخـرى... كلـما أحَـسَّ بـأن «آسـن» يُخفـي عنـه شـيئًا أو يتحفـظ في الـكلام.

– ولكن قُل لي يا سيد «أبيض»... أو.. اسمح لي بالسؤال..

- بالطبع أسمحُ لك... أي شيء للآسن ذي العينين الجميلتين...

- شكرًا... قُل لي... أنت هنا لستَ بحاجةٍ إلى شيءٍ من بلدتنا... أعني... كنت تقول بأنك تبعثُ إلينا بأفضلِ أنواعِ البخور... وقُلت لي إنكم لا تأكلون الرُّمَّان... ولستَ بحاجةٍ إلى نقودٍ، فكما أشَرْتَ لي بأنك تملِكُ من الذهب والخزائن ما يَزِنُ بُلدانًا...

انفجرَ «الأبيض الهادئ» ضحكًا...

- بالطبعِ لا أحتاج نقودكم يا سخيف...

- إذن علامَ تحصل؟!

توقف الخادمان عن جرِّ العربة، صمتَ «الأبيض» قليلًا... ابتسمَ بِخُبثٍ:

- أوه... ألم تفهم بعد؟!...

لم يُمهِل الخادمان «آسن» ليستغربَ، أحكما قبضَتَيهما عليه، أخضعاهُ على ركبتيْه...

- قديمًا يا «آسن»... وأقصد منذُ حربِ الرمَّان الأولى... أصدَرَ حاكمكم «الحنون» قانونًا ليُجبِرَ نساءكم وبناتِكم على العَمَلِ خارج بيوتهن. مساكينٌ أنتم، رجالكم وصبيانكم يُقتَلون كل سَنَةٍ في تلك الحرب الغبية... وبالطبع... على أحدهم أن يدفع الثمن... أن يدفعَ «الضريبة»... إنها دومًا «الضريبة» يا صاحبي الجميل...

- اتركوني!!... ما الذي تقوله؟!!

- أقول إنه من السهلِ إجبارِ حاكمٍ كحاكمكم على تصديرِ قوانين، كتلك التي أصدرها من عمل نسائكم الجميلات كعاهراتٍ... فقط... مقابل طِنٍّ من البخور الفاخر، وما يَزِنُ وزنَ ذلك الحقير من ذهبٍ خالصٍ. نساؤكم رائعاتٌ في السرير يا «آسن»... لا أجدُ مثلهن في أي مكانٍ...

نحنُ نُبادلكم ما لدينا بنسائكم الحلوات... عاهراتكم مُدرباتٌ لجَعلِ أعتى الملوكِ سعداء...

حاولَ «آسنُ» الفرار، لم يقدِر على الخادمَين... اللذين كانا ينظرانِ إليه بانكسارٍ...

- ألم أقُل لكَ «اهرب»..؟!

همسَ أحدهما في أذنَيْ الآسن... فهدأ قليلًا... نظرَ إلى «الأبيض»، بعينَيْهِ الباردتَيْنِ... بصقَ على وجههِ..

- أووووه... سأقبلها منك... فقط لأنَّكَ تُعجبني...

- أظنني الآن أفهم لماذا لا يجبُ على حرب الرُّمَّان أن تنتهي... لأن أمثالك لا يستحقون الحياة!!

- أنت أغبى مخلوقٍ مَرَّ على تلك البلدة... حتى عينيك الجميلتين لا تشفعانِ لهكذا غباء... أتظنُّ حقًّا أن تلك الحرب قامت لأجلكم؟!! أو لأجلي؟!! أو لأجلِ أي ابن كلبةٍ آخر؟!!... تلك الحربُ هي الوسيلة الأسهل للتخلصِ من «أبناء العاهرات» ببلدتكم، الذين يُولدون بالآلافِ والملايين في كُل «طقسِ شرعية» تُحاول فيه إحدى نسائكم الأفاضل أن تُنجِبَ، لتُثبِت لرجالكم الملاعين أنهن قادراتٌ على الزواج!!... كل مَولودٍ يأتي، لا يُلقَى له بالٌ، يُترَكُ لينمو بينكم... تزدادونَ عددًا... وتزدادُ الأفواه، في بلدٍ لا يعملُ الرجال به... الحربُ هي البطاقة الخضراء للتخلص من تلك الأعداد... كما أن... لدينا هنا الكثير من «الباهتين» لا نود أيضًا في ازدياد أعدادهم!!... الحرب نعمة، وأنا الذي يقول لك: «ليتها لا تنتهي»..!

– ماذا تريد مني؟!

– أريدك...

– ماذا؟!

– أريدك أنت... أنا آتي بالعاهرات من بلدتكم، هذا صحيح، لكنَّهنَّ لسنَ لي... هُنَّ لأبناءِ قومي... الذينَ يعملون في شقاءٍ لإرضائي، ألا يستحقونَ بعضًا من كراماتي؟!!

انفجرَ ضاحكًا من جديدٍ... قرَّبَ يدَيهِ البدينتين إلى جسدِ «آسنِ» الذي كانَ يُحاولُ الخلاصَ من إمساكِ الخادِمَيْنِ...

أفلَتَ «آسنُ» يدَهُ اليسرى، غَرَزَها بِجَسَدِ «الأبيض» وهو يدفعهُ بعيدًا عن العربة التي تحملهُ...

ارتطمَ بالأرضِ، يصرخُ من الألمِ. تركَ الخادمان «آسن» وهَمَّا نحوَ «الأبيض»... حيثُ حدثَت تلك المُعجِزة..!!

– ماذا يحدثُ لي؟!!... أنا... أنا أمشي على قَدَمَيَّ!!

توقَّف «آسنُ» عن الركضِ، عادَ ينظرُ إلى الرجل الذي كانَ أبيض... قبل أن يُلاحظ تلك البقعة الرمادية على جسدِهِ... حيثُ غرزَ «آسنُ» يدهُ!!. البقعة أخذت تتوسع، تنتشرُ بجسدِ «الأبيض الهادئ»، الذي ازدادَ نشاطًا وقوةً... قامَ يقفزُ وينظرُ إلى السماءِ، يرقصُ في دوراناتٍ ويصيحُ عاليًا، حتى تحوَّلَ لونُهُ بالكاملِ إلى الرمادي... بينما... انسحبت كُل الألوان المُخَلَّطَةِ من جسدِ «آسن»... ليتبقَّى فقط... لونٌ أحمر متوَهِّجٌ... يكسو جسدَهُ بالكامل!

ركـضَ المَلِـكُ الرمـادي، طـافَ بأرجـاءِ البيـتِ المنحـوت. لا يتعـبُ ولا يَـكِلُّ، يصيـحُ بالنـاس مـن الأعـلى... «تحققـت رؤيـايَ، عولجِـتُ يـا شـعبي»... بينـما، تأمَّـلَ «آسـنُ» جسـدَهُ ولونـه الجديـد... تأمـل ذلـك الشـعور الغريـب الـذي سرى بِجُثمانِـهِ، والخَـدَمُ تَجَمَّعـوا حولـهُ، يُبادلونـهُ الإعجـابَ للمـرة الأولى.

– هكذا... أنتَ واحدٌ منَّا يا «آسن»... واليوم اسمُكَ «أحمر»

– ولكن... أنا لا أفهم!

❊ ❊ ❊

(١٨)

هَلَّلَ الناس المُلَوَّنونَ بالأسفل، للـ«أحمرِ» بالأعلى. مرَّ يومان، على تلك المعجزة، أصدر فيهما «الأبيض الهادئ» قرارًا بفتحِ سورِ النهرِ يومًا كاملًا، للجميع، يغتسلونَ فيه احتفالًا بمواطنٍ جديدٍ كان سببًا في شفائِهِ. تغيرت تلك النظراتُ بعيونهم، كل من يرى «آسن» بالطريق، داخل الدَّابَّةِ أو على ضفَّة النهر أو بالبيتِ المنحوت، يربت على كتفه، يحتضنه. الجميع انقلبوا بولاءٍ ومحبةٍ للآسن، وهو في ذهولٍ من أمره... والخادمُ الذي أرسَلَ إليه بالرِّسالة... ينظرُ إليه من بعيدٍ، بعينين منكسرتين، لم تتغيرا.

ذهبَ إليهِ «آسن»، سألهُ عن ذلك القَهر البادي على وجهه. بِعَيْنَيْنِ باردتيْن، طمأنهُ بأن النَّهرَ سيُصبحُ متاحًا للجميع، وأنه بالإمكان أن يعود كما كان، وأن لا داعي للحزن. ابتسمَ الخادم، حدَجَهُ بنظرةٍ أخيرةٍ...

- أنت لم تفهم بعد...

قبلَ أن يُجيبهُ «آسن»... كان الخادمُ قد قفزَ من شُرفةِ البيتِ المنحوت... وسطَ ذهولِ الذي صارَ «أحمر»... بينما الجميعُ بالأسفل... لا يلتفتونَ إلى الجثة المُكَوَّمة..

- أأنتم مجانين؟!!... ألا تشعرونَ بأي شيء؟!... الرجل مات..!

لا أحد يرد..

يُهَللون بالمواطن الأحمر، الأطفال تراقِصُ الحيوانات، وأضواءُ القناديل تضيء الظلام، و«آسنُ» لا يفهم.

يهربُ إلى النهرِ الأسود، يتأمَّلُ البقعة المضيئة وسطَ غموضهِ. يتَتَبَّعُ مصدرها، الآتي من الأعلى. تصطدمُ عيناهُ بالسحاباتِ السوداواتِ الكثيفات... يتكاتفنَ لِيُخفينَ حقيقةً بدا واضحًا للآسنِ أن عليهِ أن يتبعها.

انطلقت أبواقُ البيتِ المنحوت، تصرخُ في نغماتٍ صارمةٍ، «أنَّ موسمَ الغُسْلِ قد بدأ»... والتَّطَهُّرِ من الذنوبِ والبُهتانِ قد آن له الأوان. جحافِلُ الباهتين اختلطت بالمُلَوَّنين، في سباقٍ ضارٍ نحوَ موقِعِ النَّهرِ الأسود. الجميع تركَ ما وراءَهُ، كُلٌّ سواسية، لم يَعُد يُفَرِّقهم لونٌ كالسابق... و«آسن» يُراقب أولئكَ القوم... بينما يجلسُ قُربَ جُثَّةِ الخادم الباهت... الذي كانت عيناهُ مفتوحتينِ... بِئْرانِ تَنِزَّانِ من ذلك السائل الشفاف الذي لم يَفهَمهُ حتى الآن.

– لا أحد يطأُ ماء النَّهرِ المُقَدَّسَةِ قبلَ «الأبيض العظيم»... من يقترب سيَلقى حتفَهُ..

بهذه الكلمات الصارخة، ارتعشت قلوبُ القوم العطشى للغُسْلِ... وبذلك اللقب الجديد... «الأبيض العظيم»... لُقِّبَ المَلِك.

ركَدَ موجُ المُتَقَدِّمين، هدأت الجموعُ، والهمهمات اندثرَت أمام خِطابِ «الأبيض العظيم». خلعَ ثيابهُ، استعدَّ للاغتسال بجسدِهِ القوي الجديد، ذي اللون الرمادي. ارتعشَ من برودةِ المياه، اقتربَ من بقعةِ الضوءِ يسبحُ بِقوةٍ ومثابرةٍ، بينما يُراقبُ الجميع. اتسَعَ شعاعُ النُّورِ من الأعلى، اتسعت دائرتهُ على ملامحِ النَّهرِ، رَفَعَ «الأبيض العظيم» ذراعهُ لأعلى، يُحَيِّي شَعبَهُ على ضِفَّةِ النَّهرِ... ليتلقى نظراتهم الذاهلة...

- ماذا بِكُم؟!... لماذا تنظرونَ إليَّ هكذا؟

استقامَ الجميع، أشارَ بعضهم إلى النَّهرِ، وإلى بقعةِ النورِ التي أخذَت تتبَسَّمُ أكثر إلى ذات النهرِ الكظيم... وصاحَ أحدهم:

- انظروا... لقد شَفَّ ماءُ النَّهرِ...!!

تعالت الهمهمات، أشارَ أحدهم إلى «الأبيض العظيم»، إلى جسدِهِ العاري... الذي انسَحَبَ منه «اللون الرمادي»، عاد أبيض كما كان. انسَحَبَ ذلك الأبيض إلى بطنِ النهرِ، ركضَ ثلاثة حراس باتِّجاهِهِ... يُخرجونهُ من النهرِ غارقًا... ولَمَّا أخرجوه، كانت قدماهُ مشلولتَينِ... تمامًا كالسابق!!..

- ماذا يحدثُ لي؟!!... الويلُ للآسن...!!!

أحد الأطفال كان يشد ذراعَ أمِّهِ، يقول «أمي.. الأبيض صارَ باهتًا»!!

كان المَلِكُ يتلقى نظرات الناس بِفَزَعٍ... حتى تَفَقَّدَ ذراعَيهِ، اللتيْنِ انسَحَبَ منهما اللون الأبيض. يراقبُ جسدَهُ الذي... بات أكثرَ بهتانًا من جُثَّةِ الخادم!! انسَحَبَ اللونُ الأبيض حتى صارَ بلا هويةٍ، في الوقت الذي مَسَحَ أحد الحراس- الذين أخرجوه من الماء- وجهَهُ... ليتذوق لسانُهُ ماءً حلوَ المذاقِ...

- سيدي... انظر النهر!!

النهرُ الذي كان أسود كظيمًا... صَفَى لونُهُ... حلِّيَت مياهَهُ... وبقعةُ النورِ اتسعت، والغيماتُ الكئيباتُ ضَحِكَت. «الأبيض الهادئ» صَرَخَ في الناس، الذين هَمُّوا إلى النهرِ يُشَمِّرونَ عن ثيابِهم، صاحَ فيهم فلم يستجيبوا... أنستهُم حلاوةُ الماءِ المُسَكَّرِ، للمرَّةَ الأولى... مَلِكَهُم الجائر... بينما كان «آسنُ» يُراقبُ طريقَ النُّورِ الذي بدا لهُ الوِجْهَة القادمة...

- إياكُم والماءِ الآسن... إياكُم واللعنة... ألا تتدبَّرونَ حالي؟!...

إياكُـم والمـاءِ المُسَـمَّم، الـذي أذهَـبَ لـوني، وأهلَـكَ بَـدَني... تلـكَ لعنَـةُ الآســن، ألا تعقِلــونَ؟!!

الكلـماتُ التـي بـدَت مقهـورةً، تخـرجُ مـن لسـانٍ واثِـق... عَرَجَـتْ بِرجـاءٍ خائـبٍ عـلى مسـامِعِ بعـضٍ مـن المُلَوَّنـين... الذيـن لوهلـةٍ خافـوا عـلى صبغاتهـم. أمَّـا الباهِتـون، كانـوا مـن المـاءِ المُسَـكَّرِ يشربـون، ولحديـثِ «الأبيـض» لا يلتفتـون... إذ كانـوا لا يخشـونَ شـيئًا مـا داموا شَرِبـوا تلـك الميـاهِ الصافيـة. شَـعَروا للمـرَّةِ الأولى بالحريـة...

أن تَملكَ نهرًا جارفًا حلوَ المذاقِ، لا يجِفُّ مجراهُ أبدًا...

شربـوا حتـى الثَّمالَـة، حتـى امتـلأت بطـونُ بعضهـم فبالـكاد اسـتطاعوا التَّنَفُّـس... فغَـرقَ منهـم مـن غـرق، وخَـرَجَ منهـم مـن خـرج. عـاد كُلٌّ مـن خـافَ عـلى لونـهِ، وأن ينالـهُ مـا نـالَ مَلِكَهُـم... بينمـا... صـاحَ الـ«أبيـض» الـذي صـارَ شـفَّافًا بـلا صبغـةٍ في الباقـين... يُكَـرِّرُ ذاتَ الجملـة:

«إياكُـم والمـاء الآسـن... إياكـم والمـاءَ المُسَـمَّمَ بلَعنَـةِ الآسـن... إياكُـم والـذي أعْيَـا جسـدي، وأهلَـكَ روحـي»

عـاد مـن عـاد، ومـن أبـى منهـم العـودةَ إلى الضِّفـة... كانـت سِـهامُ ورِمـاحُ الحُـرَّاسِ أسرَعُ إليـهِ مـن الريـحِ الباردةِ، التـي كانـت تُمَلِّـسُ عـلى سَـطحِ النَّهـرِ الـذي كانَ أسـود...

– مـن خَرَجـوا إلَيَّ هُـم قومـي... ومـن اختـارَ السُّـمَّ واللعنـةَ فأولئـكَ عاصِيـو القديـر... لا يمكننـي السـماح لهـم بتلويـثِ قومـي... أولئـكَ مـن هَلَكـوا في الدنيـا بِبُهتانهـم... وهَلَكـوا عنـدَ القديـرِ بِعِصيـاني..

«الأبيـضُ الهـادئ» يبحـثُ بعينيـه عـن «آسـن»، الـذي كان يبحـثُ عـن مَخـرَجٍ مـن تلـك المُصيبـة... حتـى أشـارَ القـومُ المُلَوَّنـونَ إليـه... يحـاولُ الفـرار. البلـدة بأكملهـا، كانـت تُسـابِقُ «الآسـن»... الـذي كان أحمـر... واحـدًا منهـم منـذ لحظـاتٍ... يتتبعـونَ آثـارَهُ. حـاولَ الاختبـاء في الدَّابَّـة،

الرائحة ازدادت نتانةً داخلها، تذكر البئر والمحرقة... تذكر تلك المَعيشَة التي تَمَرَّدَ عليها حتى طُرِدَ شر طردة... اختبأ خلفَ صخورٍ مُلَوَّنَةٍ بأحد الأركان... رأته طفلةٌ ورديةُ اللونِ. ابتسمَ لها، أشارَ لها بإصبعهِ ألا تتكلم، ألا تُفصِح عن مكانهِ... صاحَتْ الطفلة بِصوتٍ مَرِح:

- «آسن» هنا «آسن» هنا... «آسن» يلعبُ الغُمِّيضة... أمسَكتُ بِهِ... «آسنُ» هنا..

سَمِعَ أصواتَ أقدام، انسَحَبَ من جَسَدِهِ بعضٌ من اللونِ الأحمر. شَعَرَ بشعورٍ عجيبٍ، كان يختبرهُ للمرَّةِ الأولى. دون أن يدري، ترَجَّاها أن تصمت... الفتاة تصيحُ أعلى..

أمسَكَ بها...

حاصرها بِقوةٍ، كَمَّمَ فَمَها الدَّقيق...

الناسُ يبحثون، والآسنُ يُسكِتُ الصَّغيرة... حتى وجدهُ أحدهم، يصيحُ من جانبِهِ:

- المَسْخُ خَطَفَ الصَّغيرة..!!

فَزِعَ «آسنُ»، من الذي باغَتَهُ من جانبهِ... رَكَلَهُ، ليُبعِدهُ، بينما كان لا يزالُ يُكَمِّمُ فَم الصغيرة التي ما كَفَّت عن الصراخ المكتوم.

حاصروه... أخيرًا...

رَفَعوا سيوفهم، وجَّهوا رِماحَهُم، ومن قَبلِها عيونهم القاتلة... حتى إذا ما تركَ «آسنُ» الفتاة ورَفَعَ يديْهِ مستسلمًا... سَقَطَتْ على الأرضِ... جُثَّتُها هامِدة.

- لقد... قتلها!!..

- قتلها الآسنُ اللعين..

- ابنتي!!... ابنتي... آاااه يا ابنتي..

- الويلُ لِمُلَوِّثِ النَّهرِ..!!

كان «آسنُ» يرتعش، يتسَحَّبُ إلى جَسَدِهِ الأحمرِ لونٌ جديدٌ...

انهالوا عليهِ بالضربِ والطَّعنِ بأيِّ شيءٍ حاد، لا ينطِقُ ببنت شفة أمامهم. أمسَكوا بِهِ حتى تأكدوا بألا يفلت، كان «الأبيض الهادئ» يصرخُ بِحُرقةٍ أمام الجميع... يتَصَنَّعُ البُكاء... يندب حظَّهُ ويلعن مَرَضَهُ الذي مَنَعَهُ من الانتقامِ من «قاتلِ الأطفال» كما نَعَتوه.

- تلكَ اليَد اليسرى... آذتني أولًا لَّما لمستني... ثم قتلت المسكينة... تلك يدُ شيطانٍ آسنٍ!

الصراخ..

الذي اختبرهُ «آسن» للمرَّةِ الأولى، داخلَ البِئرِ بالمحرقة...

عندما نَبَتَ له فَمٌ بَعدها...

لم يكُن شيئًا، أمام صراخ تلك اللحظة التي... رَفَعَ أحدهم فيها... سيفًا مسلولًا، إلى أعلى... وانهالَ بِهِ على ذراعِ «الآسِنِ» اليُسرى...

ليقطعها أمام عينَيهِ، تتلوى على الأرضِ، أفعى، تُحاولُ الفرارَ من الموتِ... حتى فارقتها الحياة، وأفرَغَت ما بها من دماءٍ طاهرةٍ، لامعةٍ، باتت آسنةً...

الصراخُ الذي اختبرهُ يومها... لَّما شَعَرَ بذلك الشعور، لأول مرةٍ، حينما عَرَفَ معنى «الخوف»، لَّما فَقَدَ ذراعًا، كانت لسانهُ الذي ملأ حائطَهُ باللوحات... ودوَّنَ آلامَهُ بِقِطَعِ الفَحم...

الصراخُ الذي كَسَرَهُ... لما أطفأَ لونُ الخوفِ «الأزرقِ» جسدَهُ الأحمر... صارَ «بنفسجًا».

***

«أصفَر»

(١٩)

«اقتلوه...»

«لا.. قاتلُ الأطفالِ يجِبُ ألا يموتَ هكذا، عليه أن يتعَذَّب»

«اشنقوه...»

«لا... ما هذا ببشرٍ مثلنا... لن يُجدي الشنْقُ مَعه»

«احرقوه...»

«أنحرِقُ مُشَعوِزًا شيطانيًّا... فَتَحِلَّ لَعنَتُهُ على البلدة؟!»

«قَطِّعُوهُ إرَبًا، ولِتُطعِموا الكلابَ لحمَهُ...»

«لا، لا تفعلوا... لا تُطعِموهُ للكلاب التي تسهر على راحتنا، أهكذا تُعاملونَ المخلوقات الرَّئيفة؟!!»

«الآسنُ» مُلقى على الأرضِ الرملية، التي كانت بالصَّفارِ تبتهِج، حتى أخجَلَتْها دِماؤهُ الطاهرة، فغَدَت برتقالية. المُلَوَّنون يتبادلونَ النقاش، حولَ جُثمانِه، الذي طفحَ باللونِ البنفسجي فزادَ قَلَقُهُم. قالوا إن وجود هذا المخلوق قد يُعَكِّرُ ما سَطَعَ من نورٍ بَعدَ أن حُلِّيَ ماءُ النَّهرِ. قال «الأبيض الهادئ»، الذي عادَ قَعيدًا، إن بهتان مَلِكِ البلدة هو من بهتانِ البلدة، وإن وجود ذلك المخلوق الدُّوني هو السببُ في غَضَبِ القدير عليه... فلو أنه تَخَلَّصَ منه منذُ البداية...

لما حدثَ ما حدث. هَتَفَ في الجميع أن ما اختبرهُ من صِحَّةٍ ولونٍ، لَّما لَمَسَهُ الآسن، هو اختبارٌ من القدير. قالَ إن القدير لو أرادَ أن يُرِيَهُم حقيقةَ أمرٍ، ابتَلاهُم بالمالِ والقوة... فما إن بَدَت الحقيقة... عاد كُل شيءٍ، وما نابَ العَبد إلا البصيرة...

– أنا وقَعتُ في فَخ النِّعمَةِ يا سادة... فالتمسوا لِأبيَضِكُم الهادئ الأعذار... أنا أستسمَحكم في العَلَن... فَقَومي هم الأولَى أن أتذَلَّلَ لَهُم..

بَكَى بعضهم، وجثى البعضُ على ركبتَيهِ. صفقَ آخرونَ لِكلماتِ الأبيض، حتى الباهتين المُهَمَّشين، الذين لم يَخُصَّهُم المَلِكُ بالحديث، انساقت مشاعرهم نحو القعيد الذليل الذي أخذَ يسترعيها. انتبه أحدُ الحرَّاسِ إلى جثةِ الخادم الباهت، كانت لا تزال مُلقَاةً أسفلَ الشُّرفة التي قفزَ منها. أمَرَهُ «الأبيض» بإحضارها. كانت الجثَّة ثقيلةً، تَزِنُ ما تَطَلَّبَ من سبعة حراسٍ أن يحملوها... ثُمَّ عشرة... ثُمَّ اثنَي عَشَر حارسًا... لم يَعلموا ماذا حَل بها. تركوها، وقد ازدادت في التثاقُلِ والبهتان اللّوني أكثر. أمَرَهُم بِحَملِ جَسَدِ الآسن الفاقد للوعي نَحوها، تركوا الاثنَينِ بجانِبِ بعضِهِما.

تأملوا الجسدَينِ، ثُمَّ بدأ التصويت...

احتاروا في طريقةِ التَّخَلُّصِ منهما، حتى أتَتْهُم الرياحُ المتسللةُ من الخلفِ، تخطفُ حواسَّهُم وتُلقي بها في النَّهرِ المُرتَعِشةُ مياهُهُ... الجارية إلى مكانٍ غير مَعلومٍ... حتى نهايةِ النَّهرِ التي خافوها.

«نُلقيهما، بالنهرِ الجاري... إلى حيثُ لا نعلم، بعيدًا عن بلدنا الحبيب»

قالها أحدُ الشيوخ، وهَلَّلَ الأصغَرُ سِنًّا لقرارِه. حملَ الحرَّاسُ جسدَ «آسن»، مقطوع الذراع، الذي كان ما زال ينزف... وما استطاعوا

حمـلَ جثَّـةِ الخـادم الباهِـت... دَفَعوهـا بأرجلهـم حتـى تَلَقَّفَهـا النهـر، سـاحبًا إياهـا. أخـذَت الجُثَّـة تتلـوَّنُ بألـوانٍ عِـدَّةٍ، وسـطَ ذهـولِ الأعـين، حتـى غابـت عنهـا. ازدادوا قلقًـا، لكنَّهـم لم يتوقفـوا. حملـوا جسـدَ «آسـن» الـذي خَـفَّ وزنُـهُ أضعافًـا، كان فاقـدًا للوعـي، ألقـوا بِـهِ... في ذات الوقـت الـذي... كانـت زُمـرَةٌ مـن النَّـاسِ تَمـلأُ قُدورهـا بالمـاءِ الحُلـو. جَـرَفَ النَّهـرُ جَسَـدَ الآسـنِ حتـى تـوارى عـن الأنظـار... بينـما صرخَـت أنثـى... تُوَلْـوِلُ...

- زوجي!!... أطفالي...!!

التفـتَ الجميـعُ إليهـا، كان الطفـلانِ يبصقـانِ دمًـا... والأبُّ يتلـوَّى عـلى الأرضِ، ممسـكًا بِمَعِدَتِـهِ، يتقيـأُ كميـاتٍ مـن الـدَم، يُشـيرُ إلى القـدُورِ المملـوءةِ بالمـاءِ الحُلـو، وبالـكاد يتكلـم:

- لا تقربوا الماء!... الماء المُسَمَّم..!!

وحتـى لفظـوا أنفاسـهم الأخـيرة، كانـت السـماءُ السـوداء غاضبـةً، بَصَقَـت عـلى البلـدةِ قطـراتٍ مـن مطـر، ليـسَ كأيِّ مطـر... ثـم بَكَـت نِفْطًـا أسـود... صَبَـغَ أجسـادهم الملونـة بالأسـود، صبـغَ الباهِتِـينَ أيضًـا بالأسـود، صَبَـغَ النَّهـرَ الـذي مـا عـادَ شـفافًا... بالأسـود. رائحـة النفـطِ مـلأت الأرجـاء، كيانُـهُ لَـوَّثَ المـاء الحلـو، سَـمَّمَهُ فـما عـاد للشَّـاربينَ سـائغًا. صَبَـغَ الجميـع بِهويَّـةٍ جديـدة... هويـة جَعَلَـت منهـم سواسـية في اللـون... لكنَّهـا سـمَّمَت النَّهـر... أضاعـت الحيـاة.

النّهـرُ غاضـبٌ، يركـضُ إلى وِجْهَتِـهِ بِـإصرارٍ، يلهـثُ بأمـواجٍ صغـيرةٍ تُقَلِّـبُ جَسَـدَ «آسـن»، الـذي كاد يتوقـفُ عـن النزيـف. يبتعِـد عـن البلـدة، عـن الدَّابَّـةِ التـي لا تـزالُ رائحتهـا فوَّاحـةً، عـن القـوم سُـودِ الصبغـة، عـن الحاكـم الـذي كان أبيـض... يبتعـد عـن الغيـماتِ الكثيفـاتِ الكظيـمات

بالأعلى، وعن بُقعةِ النُّورِ التي أخذَت تضيق على أهل الأطيافِ... حتى زادتهم ظلامًا على ظلامٍ. فَتَحَ عينَيهِ قليلًا، يجد حاله يرثى لها. ينظر إلى يده اليمنى، الباقية، يطفحُ البنفسج بها. يبحثُ عن اليد اليسرى، عن الذراع بأكملها... يُحاولُ الصراخ!... فتخذلهُ قواه. عندَ منحدر، تبدأُ ملامحُ النَّهرِ في التبدلِ، شلالٌ يسحبُ الجسدَينِ بِقوةٍ، تتفرَّعُ الطريق، ليسلك كلٌّ منهما طريقه. الغيومُ تتبدَّدُ، الظلامُ يجيء ويذهبُ... حتى يستقر بعيدًا... يَحل محلّهُ ضوءٌ أصفر ساطع. المياهُ تهدأ، تَعِبَ النَّهرُ من الرَّكضِ، وفسادُ البلدةِ يزولُ شيئًا فشيئًا... حتى صَفَتْ مياهُهُ، شَفَّت من جديدٍ، ابتسمَت... ألقَت بِجَسَدِ الآسنِ على أرضٍ خضراء... يفتحُ عينَيهِ عن آخرهما، يقفُ على قدمَينِ هزيلتينِ بالكاد حملتا الجسدِ التَعِب.

يرفَعُ يَدَهُ إلى السماءِ الزرقاء، الصافية، يحاولُ ملامسة الكرةِ الساطعةِ بالأعلى... بعيدةٌ هي... ضئيلة، بِحَجمِ عقلةِ إصبَعِه. كلما أمعنَ النّظرَ إليها، ردعتهُ بِسطوعِها، خَرَّتْ عيناهُ تختبئان، ثم يعاودُ النَّظَر.

يَشُم تلك الرائحة، تُشبِه الرُّمَّان، لكنَّها ليسَت كريهة كالتي كانت ببلدِه...

يجاهِدُ نفسَه للمَشي، المساحات شاسعة أمامه، الأراضي متمايلة، مرتفعةٌ ومنخفضة. يركُضُ كما لم يركُض من قبلُ، البراحُ يملأ مُتَّسَعَ عينَيهِ، والرياحُ تُدَلِّلُ مُسَطَّحاتِ الأرضِ الخضراء، تقشَعِرُّ من دغدغتها، فيرقُصُ العُشبُ الصغير ويتمايل... بينما... يرقصُ الآسنُ ذو الذراعِ الواحدة في دورانات، يتدحرجُ من أعلى تَلَّةٍ زَرْعِية. تُدَفِّئُ الكرة الساطعة بالأعلى جَسَدَهُ، يختبرُ ذلك الشعور للمرةِ الأولى، يختبرُ تلك الرائحة، يسمعُ الأصوات الهادئة تعزفُ لحنًا جديدًا... يسمعُ الصخور، الروائح... يشعرُ بأن كُل شيءٍ يُناديه.

الألوان...

التي رآها في الكهفِ...

عندَ البحيرةِ المُقَدَّسَة...

لا تُشبِهُ تلكَ الألوان التي يراها.

الألـوان في الكهـفِ بائسـةٌ، يدخـلُ الظـلامُ في تكوينهـا، يُزهِـقُ روحهـا، يقتـلُ بهجتهـا... كأن مـا رآهُ مـن ألـوانٍ في السـابق كانـت أشـياء تَدَّعـي فقـط أنهـا ألـوان. الألـوان هنـا، تحـتَ ذلـك الضـوء الأصفـر العجيـب... تضحـك!!... تتبسَّـم لـه في كُل خطـوةٍ. يستكشـفها للمـرةِ الأولى، مـا كانَ الأخـضَرُ أخـضرَ، ولا كان الأصفـرُ أصفـرَ، ولا كان الأحمـرُ أحمـرَ... حتـى ذلـك البنفسـج عـلى جسـدِهِ، لم يَكُـن كـما تلـك الأزهـار البنفسـجية، التـي كانـت تـتراصَّ فتمـلأ تلَّـةً أمامَـهُ... تكسـوها بِلِبـاسِ البَنَفسَـج. لم يفارِقـهُ الذهـول للحظـة، عندمـا اختـبرَ للمَـرَّةِ الأولى رائحـة الألـوان!!... الهادئة... الدافئـة... الحنونـة. لم يَجِـد بقعـةً بـالأراضي حولَـهُ مُظلِمـة!

يبتسم...

ينظرُ حولهُ...

- أصفر!!... أحمر!!... أزرق... أخضر!!... و... من أنتِ؟!

❊ ❊ ❊

(٢٠)

«تبدو غريبًا، عن أهلِ الخارِج..!!»

قالتها، تلك التي سَحَرَت عَيناها اللَّيلِيَّتانِ عينَيْهِ الحمراويْنِ. ظَهَرَت أمامَهُ، عاريةً، إلا من شَعْرٍ ممَوَّجٍ يسبَحُ للأسفَلِ، يُداري رُمَّانَتَيْ اللَّذّةِ النَّافِرَتَين... ينتَهي عندَ رُكبَتَينِ من مَرمَرٍ. سالَ لُعابُ الآسِن، اقترَبَ منها بِحَذَرٍ تشوبُهُ الرَّغبة. أطالَ النَّظَرَ إلى الجسدِ الخمري أمامهُ، لم يتوقف عن الاندهاش، توَهَّجَ اللونُ الأحمر بِجَسَدِهِ أكثر... بينما كانت الحسناءُ تضحك.

- مِمَّ أنتِ؟!!

- أنا؟!... لا أعلم ماذا تقصد!!

- مِمَّ أنتِ؟!

تضحَكُ بِخَجلٍ. يستفيقُ «آسنُ» من شرودِهِ، يشيرُ إليها، إلى جسدها العاري... يقتربُ مسرعًا.

- لا!!... ماذا تريد؟!

- انتظري... ألا تَبْردين؟!

خَلَعَ سترتهُ الحريرية، التي كان «الأبيض الهادئ» قد ألبَسَها له. ألبسها إياها، لم يَكُف عن استنشاقِ عِطرِ شَعْرِها المظلم... الشيءُ

الوحيد المُظلم على تلك الأراضي المُنيرة... حيثُ رأى لأول مرة «ظلمَة بَهيجة». خَجِلَت منه، دَفَعَتهُ برِفقٍ. تحسَّست ملمسَ الحرير، رقصت ودارت في دوراناتٍ سريعةٍ، بينما اكتفى هو بِتأمُّلِ الكائن العجيب ينثرُ البهجةَ ببقاعِ الأرضِ التي كلما دبَّت قدماها عليها... دَبَّت فيها الحياة.

كانت لا تكف عن الإشارةِ إلى لونهِ، تقول إنه يُشبهُ لون الرُمَّان الفاسِد في الحديقة الخلفية... لكنَّهُ لا يشبهُ لونَ أيٍّ ممن مَرُّوا على تلك الأرض. لم يَكُف «آسنُ» عن سؤالها، كانت تسحبُهُ وتركضُ بِهِ إلى أبعد، يتوقف ليستريح، لكنَّها تسحبهُ من جديدٍ. مَرَّا على شتى الألوانِ، الألوانُ على تلك الأرضِ مخلوقاتٌ تشعُرُ وتُعَبِّرُ عن ذاتها. على مقربةٍ من غابةٍ كثيفةِ الأشجار، يخترقها طريقٌ مُظلِمٌ، لا تدخلهُ شمسٌ ولا يحيا بِهِ لَون... توقفت.

- أخافُ الظلام..!

- أوه... وأنا أيضًا، لو تعلمينَ من أينَ أتيتُ لفَهمتِ.

- لا أقصد... أخافُ تلك الغابة!

الطريقُ المظلِمُ المؤدي إليها، ذَكَّرَ «آسنَ» بالطرقِ الضيقة ببلدةِ الرُّمَّان، حيثُ الشعلاتِ الخشبية المرتعِشَةِ اللهب تتوزَّعُ على الجنبَينِ تُضيئُه، إلا أن طريقَ الغابةِ خالٍ من أي أمل.

- أعتذرُ عن ردائي المُلَطَّخ بالدم، لقد آذوني كثيرًا، و...

التفتَ ليَجِد أنه يُكَلِّمُ نفسهُ، كانت تناديه من مكانٍ آخر ركضت إليه. تُلَوِّحُ له بيديْها أن يأتي مسرعًا... كي لا تفوته تلك الفرصة!

صَعَدَ تلَّةً خضراء، الصعود بذراعٍ واحدةٍ هو الجحيمُ الجديد الذي عاناهُ «آسن». كلما ارتفَعَ أكثر عن سطحِ الأرضِ، كلما ازدادت الألوانُ في الاحمرار. القرصُ الصغيرُ الوهَّاجُ ما عادَ بِحَجمِ عقلةِ إصبع،

يكبرُ ويتَّسِع. يَمُد «آسنُ» ذراعهُ، ملأت الكرةُ الملتهبةُ يدهُ بالكامل، كانت لا تزالُ بعيدةً جدًّا.

- أنتَ كسول!...

- أنتِ مجنونة!!

نادَتهُ من أعلى التلَّة، ينظرُ إليها، شامخة، ساقانِ مصقولتان، جسدٌ ممشوقٌ... والرِّياحُ فنانة... تحومُ حولَها... تنحتُ من قماشِ الحريرِ على ذلك الجسد لوحةً للجنة... لوحة، لم يَقدِر الآسن على خَلقِ مثلها على حوائطِ البئرِ الحزينة، من الفحمِ والحجارة.

القُرْصُ الوهَّاجُ يكبر، لا تتسع يد «آسن» لاحتوائه. خَفَّ وهَجُهُ قليلًا، فباتَ بمقدورِ كليهما النظر مباشرةً إليه. اقتربَت الحسناءُ منه، أشارت بأصابعها إلى القرصِ بالأعلى. كلما حاول أن يتكلم «الآسن» بجانبها، كانت تُسكِتهُ بيدها الأخرى، تأمرهُ بالتَّأمُّل وحسب، تُخبِرهُ بأن «الشَّمسَ» تستيقظُ كُل يوم من حيثُ لا تدري هي... تسطعُ بالأعلى... تلسعُ بشرتها الخمرية النَّاعمة... توقظها من النوم... تَمُرُّ على المروجِ الخضراء، تسقيها من الأصفَرِ الذَّهَبيِّ، فتبتهِج. تَمُرُّ على أشجارِ الرُّمَّانِ، تغسِلُ حبَّاتها الأرجوانية التي كان الظلامُ يُنهِكها، فتَغدو حمراءَ بَهيجة. تَمُرُّ على فرعِ النَّهرِ الذي أنهكَهُ السَّفَرُ عبرَ البلاد، تُدفِئ مجراهُ، وتُنَقِّيهِ من دَنَسِ الغُربَة، فيغدو مُتَبَسِّمًا. حتى إذا ما أتت على تلك الغابة التي مررنا بها، مهما أعطَتها من نورها... لا تتخلَّى عن ظلامها ووَحْشَتِها...

«أحيانًا أشعرُ بأن «الشَّمسَ» تخشاها، أو، فقدَت الأملَ في إضاءتها... فكانت تهربُ بعد ذلك إلى هنا... حيثُ نقفُ الآن»

كان «آسن» مسحورًا، بنبرةِ الصوتِ، التي تعزفُ نوتة لا تنقطع،

تـأسِرهُ بِوَصفهـا لتلـك الكـرة بالأعـلى. كانـت تضحـكُ منـه، كلـما حـاولَ الإمسـاك بالشَّـمسِ. ينظـر إليهـا ولا يُلقـي لهـا بـالًا، يسـتمرُّ بالقفـزِ محـاولًا حبسـها في قبضتـهِ التـي باتـت صغـيرةً بالمقارنـةِ لحجـمِ القـرصِ العظيـم.

– حتـى لـو أمسـكتها... سـتحرقُ يـدك... دعهـا هكـذا مبسـوطة، فَرِحَـة، لا تؤذينـا ولا نؤذيهـا..

– أنتِ لا تعلمين شيئًا... لقد بحثتُ عنها في كُلِّ مكان!!

– وها قد وجدتها، لا تُفسِد الأمر!

لا تَكُـفَّ عـن ملاحقتـه بِعَينَيهـا، وهـو يقفـزُ ويُحـاول، حتـى أنهَكَـهُ التَّعَـب... وأذهَلَـهُ ذلـك اللـون البرتقـالي الـذي طغـى عـلى كُلِّ شيءٍ حولـهُ. الظـلالُ بـدأت تظهـر، لكنَّهـا ليسـت كتلـك المَيِّتـة التـي عهدهـا قديـمًا. الظـلالُ اتَّسَـمَت بِـ «لـون»... لون بنفسـجي يتصـارعُ معـهُ الوهـجِ البرتقالي عـلى كُل شيءٍ حولـهُ.

– ولكن، كيف؟!!... الظلامُ هنا يتلون!!

– تتحدثُ وكأنَّكَ أتيتَ من الجحيم.

– ربما أتيتُ منهُ بالفعل!

لَّـما خافَـت منـه بعـدَ تلـك الكلـمات، اعتـذَر. كشـفَت نسـماتُ هـواءٍ متسـللاتٌ عـلى شَـعرها، ذلـك الوجـهَ، الـذي أمعَـنَ «آسـنُ» فيـه. الوجـهُ الملائكـي، الـذي لا يعيبُـهُ سـوى مِئـات النـدوب، حَفَـرَت خنـادِقَ قاسـية، أخفَـت جمـالًا كاد أن يكتمِـل. كانـت الحسـناءُ تراقِـبُ نظراتِـه، ابتسـمَت. سـألتهُ عـن اسـمِه، قـال إنهـم يُلَقِّبونَـهُ بـ«آسـن». سـألته عـن معنـاه، لم يُجِب، سـكتت. بعـد لحظـاتٍ، سـألها عـن اسـمها بلطـفٍ، كَـشَّرَت، قالـت لا داعٍ، أدارَت ظهرهـا لـه و تَمَشَّـت بِـدلالٍ وتـأنٍّ... اسـتوقفها... عـرضَ عليهـا أَن يُخبرهـا معنـى الاسـم، فقـط، لـو أخبرتـه باسـمها.

– لا يُهِـم، لا أريـد أن أعـرف، لأني بالأصـلِ أعلـمُ معنـى اسـمك... أنـتَ آسـنٌ... تمامًـا مثـلَ حبَّـاتِ الرُّمَّـانِ الفاسـدة بالحديقـة الخلفيـة، التـي أجمعهـا قبـلَ أن تُلَـوِّثَ الحبَّـاتِ الجميـلات، وقبـلَ أن تُفسِـدَ بهجـةَ أزهـارِ الرُّمَّـان الحلـوة!

جَلَـسَ مُكتَئِبًـا، عـلى الأرضِ الخـضراء. يتفـادى النّظـرَ إليهـا، يـرُد بهـدوء... «هـذا مـا يقولونـهُ جميعًـا». اقتربَـت منـه، جَلَسَـت بجانبِـه، اقتربَـت أكثـر، حتـى شَـعَرَت بارتجـافِ جسَـدِهِ. أدارَت ذقنَـهُ لِمواجهتهـا، كان يخجَـلُ مـن النظـرِ إليهـا، لكنَّهـا، ابتسـمَت... ليجـد نفسَـهُ بـلا مقاومـةٍ يبتسـم!...

– ولكنِّي لا أراكَ آسنًا... تبدو غريبًا، عن أهلِ الخارِج.

– وأنتِ... لَستِ كتلك النساءِ ببلدتنا.

– كيف؟

– هُنَّ... تظهرُ عليهن أماراتُ الـ...

– ماذا؟!..

– اسمعي، تبدينَ مختلفة، لا تسألي أكثر!!

توهَّـجَ اللـونُ الأحمـر في جسـدِهِ، بينـما كان الأزرقُ يعتريـه، يأبـى أن يتركـهُ. كانـت لا تَكُـف عـن البحـثِ في وجهـهِ، تجـوبُ مـا بـينَ الجبهـةِ العريضـة، تسـحبها تلـك الندبـة العظيمـة، القبيحـة، التـي تجـاورُ عينَـينِ حمراوَيْـنِ بَدِيعَتَـيْن، وأنـفٍ بـاتَ جميـلًا، وفَـمٍ مرسـومِ الشَّـفتَينِ. تتأمَّـلُ جمالَـهُ بِدِقَّـةٍ، لا يُفسِـدهُ سـوى تلـك النـدوبِ المُوَزَّعـةَ عـلى خارِطَتِـهِ... بينـما... تأمَّـلَ هـو عينَـينِ سـوداوَيْنِ واسـعتَيْن، وتمنَّـى، لـو أن كُلَّ الظُلـماتِ كانـت بمثـلِ سِـحرِهِما... مـا كان هَـرَب مـن الظـلامِ أبـدًا. كادَ يسـألها عـن تلـك النـدوب التـي شـوَّهَت وجهًـا لم يـرَ مثلـه مـن قبـل في نسـاءِ بلدتـه، لكنَّهـا اسـتوقفته...

– أتعلم؟! ولِدتُ هنا... ولا أعلمُ حتى كيفَ أبدو... لا أعلمُ كيفَ يُفتَرَضُ بي أن أبدو!!

– أنتِ... أجملُ ما رأيت!

– أتَلَمَّسُ جسدي، أشعرُ به لَيِّنًا... ناعمًا... وشَعري هكذا منذُ أن ولِدت، لم يقصر ولم يطُل... لكن... لماذا وجهي ليسَ ناعمًا أيضًا؟!

– في الحقيقة...

– حاولتُ أن أراهُ، في كُل مكانٍ، لا فائدة... حتى النَّهر، ما عادَ يَصْفَى، ماؤهُ جارٍ، أتذكَّرُ فقط عندما كنتُ صغيرةً، رأيتُ وجهي مرَّةً واحدةً... كانَ سعيدًا، دائريًّا، وكانَ الماءُ راكِدًا... وكان... وجهي ناعمًا... قبلَ أن يحدث ما حدث..!

– ماذا حدث؟!

– أنا خائفة!!...

ابتعدَت عنه، بَكَت بُكاء شديدًا، حتى رأى «آسنُ» ذلك السائلَ الشَّفَّاف، ينسابُ من عينَيها، نهرًا جاريًا. ينظرُ إليها بِعَينَينِ باردتَيْن، يربتُ على كتفها، تهدأُ وتلتفتُ إليه. تُخبرهُ بأنه منذ أن حدثَ ما حدث، وهي تتلمَّسُ وجهها بعد أن استيقَظَت، لم تجدهُ ناعمًا، بل مليئًا بِحُفَرٍ وخنادِق تُزعِجُها... ومع الوقت... اعتادَت عليها.

– لو أنِّي أرى وجهي مرَّةً واحدةً فقط... أنا خائفةٌ.

– لا تخافي، أنا هنا.

– أنتَ مثلكَ مثل أهلِ الخارِج، ربما تختلف عنهم، لونك ليسَ لونهم... لكنَّكَ سترحل.

– ولكن، أنا هنا أسعَد مما تظنِّين، أعتقد أن هذا المكان هو وطني الحقيقي...

أخـذَ يحكـي لهـا، عـن بَحثِـهِ الدائـم، عـن ذلـك الـذي يعلـمُ مـا بـين الأحمـر والأخـضر. يحكـي لهـا عـن الظـلام الـذي عاشَـهُ، عـن تلـك الألوان التـي رآهـا عندمـا كان صغـيرًا، عـن البئـرِ والمحرقـةِ العظيمـة... عـن قـومِ الرُّمَّـانِ الذيـنَ آذوه... وعـن قـومِ الدَّابَّـةِ الذيـنَ قَطَعـوا ذراعـهُ اليـسرى. كانـت تفـرَحُ وتبتهـج، كلـما ذكـرَ حديثـهُ السَّـاخِر عـن الأقـوام، وتبكـي كلـما سَـمِعَت عـن المـرَّات التـي آذوهُ فيهـا... لكنَّهـا كانـت تسـتعجِبُ مـن عينَيـهِ البارِدَتَـين، العينـيْن اللتـيْن لا تخشـيانِ شـيئًا، لا تفتقـدانِ شـيئًا... ولا تتذكَّـرَانِ صديقًـا أو حبيبًـا.

– ولكنَّكِ لم تُخبريني باسمكِ الحقيقي بعد..

– لأنِّي لا أعرفهُ.

– أنـتِ تكذبـين!!... بعـدَ كُل مـا حَكَيتُـهُ لـكِ؟!... مـا زلـتِ خائفـةً منِّـي؟

– لا... لا أقصـد... لكنِّـي لا أعـرفُ اسـمي... حتـى الذيـن يأتـونَ مـن الخـارجِ لا يسـألونني، يـأتي كُلٌّ منهـم ليقـضي حاجَتَـهُ، وينـصرف!

– إذن، سأُسَمِّيكِ كما رأيتُكِ...

– ماذا؟!

– «شمس»...

❊ ❊ ❊

(٢١)

«اسمي «شمس»... وما أنا بِشَمس»

لا تسألني عن اسمي، فإنِّي أجهله...

لا تسألني عن سِنِّي، فالوقتُ هنا على المروجِ الخضراءِ لا يعنيني...

لا تسألني عن شكلي، صِفْني كما تراني وحسب...

لكنِّي سأخبرك، حتى لو لم تسأل، سأخبركَ بِكُل شيء...

سَئِمتُ من إخبارِ أشجارِ الرُّمَّان، سَئِمتُ من البَوحِ بأسراري إلى السماءِ الزرقاء، إلى الشمس بالأعلى...

سَئِمتُ هذَياني المستمر، من الجنون الذي شارَفتُ على عتباتِهِ أكثر من مَرَّة... وحينما أصرخُ وحيدةً... لا شيء يَرُد وحدتي سوى صدى صوتٍ يُخيفُ الطيور فتُهاجِر أعشاشها...

سأخبِرُكَ، لأنَّكَ الوحيد من أهلِ الخارِج الذي أعطَيتَني شيئًا... حتى وإن كان مجرد رداء من حرير مُلَطَّخ بالدَّم.

وجدتُ نفسي وحيدةً، على تلك الأرضِ التي لم أعرف غيرها. أيقظتني حرارةُ تلك الكرةِ العجيبة بالأعلى، حيثُ لم تَكُف منذ وقتها عن إيقاظي كُل يوم. عندما حدَّثتَني عن حكاياتِك العجيبة، وعن المكان الذي أتيتَ منه... لم أستوعب... لأنِّي لم أرَ ظلامًا في حياتي من قبلُ.

كُل شيءٍ هنا مُلَوَّن، هادئ، آمن... أو هكذا فَهِمتُ معنى الأمنِ... بعد أن حدثَ ما حدث. تجوَّلتُ بتلك الأراضي الشاسعة، أبحثُ عن شيءٍ وأبكي، حتى وجدتُ شجرةً عظيمةً، تتعلَّقُ بها كُراتٌ حمراء وأخرى أرجوانية. كنتُ جائعةً، أبكي، ولا أحدَ سوايَ هنا. أتت ريحٌ شديدةٌ، أسقطت بضعَ كُراتٍ من تلك على صخورٍ حادةٍ أسفلَ الشجرة... تهَشَّمَ بعضُها، وأفرغَت ما بِجوفِها من حباتٍ حمراءَ صغيرةٍ. التقطها، قربتها من لساني، استسغتُ طعمها... وأخذتُ آكل منها بلا توقُّف. شَبِعت، تأمَّلتُ تلك الشجرة، نظرتُ حولي لأرى بستانًا أخضرَ تصطفُّ فيه كُراتٌ حمراءُ كثيرة، وأشجارٌ عالية تحمِلُ ذاتَ الكُراتِ.

لا شيء هنا جميل ولا سيئ، فقط، لأنَّي لم أكن أعرفُ الفرق. أستيقظُ كل يوم، أبحثُ عن حدائِق جديدة، أتابِعُ ما يسقطُ منها من تلك الكُرات التي عَلِمتُ فيما بعد أنها تُسَمَّى بالـ«رُمَّان»... أتلقفها... وأجمعها في مكانٍ معلوم. أراقِبُ أشياءَ أخرى كانت تنمو أيضًا بجانبِ كُل رُمَّانةٍ... زهورٌ حمراء... أوراقُها رُمحِيَّةُ الشَّكلِ، لامِعٌ سطحُها... بديعة المنظر. في فصلٍ ما من فصولِ العام، كانت أفرع أشجارِ الرُّمَّانِ تستَطيل، تتحوَّلُ إلى أشواكٍ قصيرةٍ. حاولتُ في أحدِ الأيام أن أقطُفَ تلك الرُّمَّانة الكبيرة، جَرَحْتُ أصابعي بتلك الأشواك القاسية، وبكيتُ حتى جَفَّت دمائي.

«أحدهم قادم... أشعُرُ بخطواتِ أقدامِهِ تَدبُّ على الأرضِ»

اختبأتُ بينَ الأشجار...

كانوا... عماليق... أكثرُ من ثلاثة... لا أذكر..

كنتُ خائفةً..

لم أكن أعلمُ أن هناك من هم أكبرُ حجمًا...

ومـا أخافنـي أكثـر، هـو أنَّهـم أتـوا مـن تلـك الغابـة الموحِشـة، كثيفـة الأشـجار.

أتـى ثلاثـة منهـم في البدايـة، كانـوا يبحثـونَ عـن شيءٍ لم أكـن أعرفـه. تلاهـم اثنـان أكثـر قُبحًـا، ثُـمَّ حُـرَّاس كُثُـر، يقطعـون الأشـجارَ بِسِـيوفِهم العملاقـة، يصرخـونَ فَيُخيفـونَ الطَّـيْرَ عليهـا. توقفـوا عـلى مقربـةٍ مـن الحديقـة، التـي جَمَعـتُ فيهـا كل حبَّـاتِ الرُّمَّـان. تهللـت وجوههـم، قفـزوا في فـرحٍ، نـادى أحـدُ العماليـق بصـوتٍ ارتَعَشَـت لـه الشَّـجَرة الكبـيرة خوفًـا، وبَكَـت مـن حبَّـاتِ الرُّمَّـانِ أعلاهـا...

- أحضروا الأقفاص!!...

أقفـاصٌ خشـبيةٌ كبـيرةٌ، جمعـوا مـا اسـتطاعوا مـن الرُّمَّـانِ الأحمـرِ الطـازج، بينـما، لم يُلاحِظـوا ذلـك الأرجـواني الحامـض، الـذي كنـتُ قـد جمعتـهُ بعيـدًا عـن الأحمـر، في الحديقـةِ الخلفيـة.

عـادوا مـن حيـثُ أتـوا، مـن الغابَـةِ الموحِشـة. اقتربـتُ بِحَـذَرٍ، عَـلَّ أحدهـم لا يـزال موجـودًا. كانـوا قـد حصلوا عـلى كل حبَّـةٍ تقريبًـا، ركضت إلى حيـثُ الحديقـةِ الخلفيـة، وهنـاك، كانـت حبَّـاتُ الرُّمَّـانِ الأرجوانيـة الفاسـدة قـد أصـدَرَت رائحـةً كريهـةً. عُـدت إلى الأشـجار، كانـت حزينـةً، بائسـةً، وكنـتُ إلى جانِبهـا أجلـس... أربـتُ عليهـا بِحنـانٍ، أواسـيها، أقـول لهـا لا تحـزني، لـن يأتـوا ثانيـةً. بينـما كنـتُ أبكـي بذلـك السـائل الشـفاف الـذي لا يَجـف مـن عينَـيَّ، والأشـجارُ تبكـي ورقًـا وأزهـارًا حمـراء ذابلـة... لَمحـتُ شـيئًا! أشـياء صغـيرة، سرطانـات كانـت خارجـةً بِجِـوارِ الأشـجار. ألمسـها بأصابعـي الصغـيرة، أحملهـا، خُيِّـلَ إليَّ أنهـا أبناؤهـا الصغـار، كانـت عبوسـةً جـدًّا...

- أتَبكون كما تبكي أمُّكُم؟!!

حملتها، جميعها، ووضعتها بِتُربَةٍ قُربَ النَّهرِ الجميل. غطيتها بالطِّينِ، خبَّأتها، كيلا يأتونَ مرَّةً أخرى ويخطفونها مثلما فعلوا مع الرُّمَّان.

لن تصدق هذا، تمامًا مثلما لم أصدِّق أنا في البداية!!

مرَّت مدَّة، لا أعلمها، ولم أهتمَّ بِعَدِّها...

عُدتُ إلى النَّهرِ من جديد، صُعِقتُ مما رأيت!!

السرطانات التي كنتُ أخفيها تحت الطين، أبَتْ أن تختبئ وتهرب من العماليق!!... لقد نَمَت من جديدٍ... نَمَت أشجارًا وحبَّات رُمَّان، تكسو بعضها زهورٌ حمراء رُمحيةُ الشَّكلِ!!...

حديقة جديدة من الرُّمَّانِ قد تشكَّلَت!!

أنا أقضي هنا، على تلك الأرضِ، فترةً غيرَ معلومةِ الأجل. لا يحدُثُ بها سوى أنِّي بتُّ أجمَعُ السرطاناتَ المُجاوراتِ للأشجار، أُخبِّئُها في التربة، أهمِسُ بها، أرجوها ألا تصعد من جديدٍ كيلا يأتوا ويخطفوها... لكنَّها تأبى الاختباء... تكبرُ وتعلو أشجارها... حتى في تلك الأيام التي كان الجفافُ يضرِبُ بها الأرض، وتتشقَّقُ التُّربة، لا تتوقف أشجارُ الرُّمَّانِ عن النمو أبدًا... حتى يأتي يومٌ، آخرُ، وتأتي العماليق الكريهة، من الغابة، تحمِلُ أقفاصها الكبيرة، تعرِفُ وجهتها ككُل مرَّة. أختبئ من جديدٍ خلفَ الأشجار، أراقبهُم... إلى أن جاء يومٌ... أتى أحدهم. كانَ غريبًا، لكنَّهُم كانوا ينحنونَ أمامَه... يلقبونَهُ بالـ»أخ الحنون»... أتى غاضبًا، ثائرًا، يُفَتِّشُ عن شيءٍ وسطَ حباتِ الرُّمَّان الحمراء النَّضِرَة...

– ليسَت تلك، ولا تلك... لا لا... ولا هذه... ولا... آاااه، لا تُشبِه تلك الحبات الحمراء اللعينة...

كان يضربُ الأرضَ بقدمَيه، يمسِكُ بَحَبَّة رمان حمراء، يشمّها،

يشـقّها نصفـين بسِـكّينِهِ، يتـذوّق مـا بهـا، ثـم يقذفهـا عـلى الحـرّاس أو العماليـق. كان يصيـحُ بهـم قائـلًا:

«الأخـرى كانـت أرجوانيـة يـا أبنـاء العاهـرات... أرجوانيـة لا حمـراء، ألا تفهمـون؟!!»

كان الجميـع يـردون عليـه بـأن الحبـة الأرجوانيـة كانـت حامضـة... لكنه ظـل ينعتهـم بأبنـاء العاهـرات ويقـول بـأن طعمهـا كان يُشـعِرهُ بِلَـذَّةٍ عجيبة، تجعلـهُ يرتعـش ويقفـزُ حتـى يـكاد يلمِـسُ السـماء!!

أرعبتنـي نظراتـه، تراجعـتُ إلى الـوراء، حتـى هشَّـمتُ أغصانًـا عـلى الأرضِ أسـفَلي!!...

- من تِلك؟!!... أمسكوها...!!

ركضتُ...

أركضُ.. أركضُ.. أركضُ...

لا شيء سوى الركضِ...

لا أفكرُ، لا أنظرُ خلفي..

وأصواتهم تصرخ، ودبيبُ أقدامهم يَرُجُّ الأرضَ...

- أمسـكوا تلـك العاهـرة... لا تجعلوهـا تُفلِـت... لم أعُـد أريـدُ رمانًـا مـن تلـك الأشـجار... أوَدُّ أن أقطـفَ تانِـك الرمانتَـينِ السَّـاخِنتَينِ المُتهدِّلَتَينِ عـلى ذلـك العـود المُقَـوَّس!!

هكـذا كان يـصرخُ، وهـو مَحمـولٌ عـلى كَتِـفِ أحـد العماليـق، يـكاد يسـبقني...

أوَّلُ ما جالَ بِخاطري، كان الهربُ إلى الحديقةِ الخلفية...!

اختبـأتُ بـينَ أشـجارها، كانـت هنـاك تلـك الشـجرة.. شـجرةٌ عظيمـةٌ

أخـرى.. لا تطـرحُ إلا حبَّـاتٍ أرجوانيـةً، وكان الشَّـوكُ عـلى فروعهـا مُخيفًـا... قاسـيًا لا يرحـم...

لم أجِـد أعـلى منهـا كـي يكـونَ مهربًـا، مـن العماليـق الفارعـة. تسـلقتها، ومـا تركتنـي أشـواكها إلا وجرحتنـي. ظللـتُ أتسـلق وأُجـرح، بينـما في الأسـفلِ كانـوا قـد تجمعـوا، وتوقَّفـوا...

– أووووه... ها هي ذي!!...الرُّمَّانات الأرجوانية...!!

صـاحَ مُهَلـلًا، نَسِـيَني تمامًـا. أخـذَ يتفقَّـد بعضهـا، يتذوقهـا، تعلـو وجههُ القبيـح نظـراتُ اللـذَّة. أمَرَهُـم أن يجمعـوا مـا يقـدرونَ عـلى حملِـهِ، بحـثَ في الأشـجارِ الأخـرى، لم يَجِـدني، ولم يَجِـد حبَّـاتٍ أخـرى. تركـوا المـكان، بينـما كنـتُ مُعَلَّقـة بالفـرعِ المُشَـوَّكِ، تقطَّعَـت يـداي، تركـتُ نفـسي أسـقُط... حتـى وقعـتُ بِكَومـةٍ مـن الشـوكِ الضـاري، تقلَّبـتُ فيـه، كنـتُ أصرخُ وأتـأوَّه، أتدحـرجُ عـلى منحـدرٍ امتـلأ بأشـواكِ تلـكَ الشـجرة...!

لم أدر بنفـسي، إلا عندمـا أفَقـتُ، وقـد كانـت الشَّـمسُ بالأعـلى قـد هربَـت إلى ذلـك التَّـل حيـثُ أخَذتُـك... هربَـت وتخَلَّـت عنـي... لم توقِظني! أفَقـتُ وأنـا أشـعرُ بـأنَّ وجهـي يتقطَّـع، أتلمَّسُـهُ، فتغـرق يـدي بالدمـاء الحمـراء!!... ذات الدمـاء التـي نزفَـت حينـما جَرَحـتُ يـدي أوَّلَ مـرَّةٍ مـن تلـك الأشـواك. بكيـتُ مـرة أخـرى... بكيـتُ إلى أن هـدأت...

أتعلم يا «آسن»؟!...

ذلـك السـائِلُ الشـفاف، الـذي دومًـا مـا كان لا ينسـاب مـن عينَـيَّ إلا عنـد الشـعورِ بـالألمِ أو بالوحـدة...

ذلك السائل عجيب!!...

لكن هذه المرة، لم يغسل فقط الدماء التي نَزَفَت من وجهي...

بـل... شَـعَرتُ كأنـما غَسَـلَ ذلـك الشـعور الغريـب، الـذي أتـاني لَمَّـا

كانوا يُطاردونني. شعورٌ باردٌ، أزرق، بعيد، هكذا أحسستُ... أزرق... لكن ليسَت تلك الزُرْقَة بالسماء...

السائِلُ الشفاف الذي لا أعرفُ سببًا له، أراحني جدًّا... لكنه... بعدَ أن جَفَّفَ دمائي... تركَ وجهي مليئًا بالتعاريج والحُفَر... خنادِق بالطُّولِ وبالعَرضِ كانت وما زالت هنا، تتوزَّعُ على وجهي كلّه!! لا أقول إني لا أتمنى أن أعرف شكلي الآن، لكنِّي خائفةٌ، أنا دومًا خائفةٌ، إلا أنِّي سأخافُ أكثر لو لم يُعجبني شكلي بتلك الخطوط والحفر على وجهي!!

قد تجِدُ ما أحكيه غريبًا، لعلَّكَ الآن تفكر بأن هذا المكان... ربما ليسَ وطنك كما ظننت. ربما عليكَ أن تهرب، لأن أهل الخارج هؤلاء لن يتوقفوا عن القدوم، أعجبهم الرُّمَّان الأرجواني الفاسد أكثر من الأحمر الطازج. أخذوا ما أخذوا من الأرجواني، بينما كانوا يتركون الطازج، أحيانًا يُضرِمونَ فيه النَّارَ بِشُعلاتِهِم الذَّهَبِية... يستخدمونَ أحجارًا سوداء لم أرَها من قبلُ، لكنِّي كنتُ أجمعها، أخبِئها كلما ألقوا منها هنا. أدفنها في مكانٍ بعيدٍ كي لا يجدونها، ويضرمونَ النار من جديدٍ... ومهما حاولت... كانوا يأتونَ بكمياتٍ أكثر في المرات التالية!! سَئِمْتُ من جمعِ السرطانات ودفنها في التربة، ما داموا لا يبحثون عن الرمان الصالح. يستمرّونَ في تركِ الصالح... حتى يَذبُل، ويتبدَّلَ لونهُ، ليصيرَ أرجوانيًّا، حامضًا... فيأخذونهُ هكذا!

❋ ❋ ❋

(٢٢)

الأيـامُ الذَّهَبِيـةُ عـلى المـروجِ الخـضراء، لا تنتهـي. «آسـنُ»، بعـدَ مـا حكَتـهُ «شـمس»، لم يَعُـد يُفارِقهـا. كانـا يستكشِـفانِ كل شِـبْرٍ مـن جديـدٍ، يهمِسـانِ بالحَجَـرِ، ويسـتمِعانِ إلى الألـوانِ مـن حولهـا. اصطَحَبَتـهُ إلى الحديقـةِ الخلفيـةِ، حيـثُ رأى أطنانًـا مـن الرُّمَّـانِ الفاسِـد، الأرجـواني، يمـلأُ تربتهـا. رائحتـهُ المُسْـكِرة تُهَيْمِـنُ عـلى الهـواء، لونـهُ الأرجـواني، شـكلهُ الذي تذكَّـرَهُ مـن الوهلـةِ الأولى، وذَكَّـرَهُ بالأيـامِ السـالفة وأهـلِ الرُّمَّـان. ينظـرُ بالأعـلى، لا حـدودَ لِسـماءِ المـروج، لا أسـوارَ حولهـا، لا ينقَطِـعُ الضـوءُ الأصفَـرُ هنـا... حتـى إذا مـا خَجِلَـت الشَّـمسُ منهـا... تركتهـا قليـلًا، هاربـةً إلى التَّلَّـةِ المكسـوة بأزهـارِ البنفسـج، تاركـةً ضـوءًا برتقاليًّـا رائقًـا... وظـلالًا بنفسـجية تحتـوي نَومَهُـا الهـادئ.

- ولكن... ما كُل هذا الفَحم؟!

- قُلتُ لك، يأتونَ بِهِ لِإضرامِ النَّار.

عينـاهُ الحمـراوان، تسـتطيع أن تُفَـرِّق الفحـمَ الأسـود عـن أي حجـرٍ آخـر. أمسـكهُ بيـده، لم يَكُـف عـن إخبارهـا بـكل خـواص تلـك الصخـور السـوداء الفريـدة. كان يقـول إن شـغله الشـاغل في المحرقـة العظيمـة هـو أن يستكشِـف الفحـم، ويُخَمِّـن مـن أي جُثـةٍ أتـى، وكانـت «شـمس» تسـتمِعُ باسـتغراب. يحكـي لهـا عـن لوحاتِـهِ عـلى جـدران البئـر، لا يكـف

عـن سرد ذات الحكايـة حتـى وإن ذَكَّرَتـهُ «شـمس» بأنّـه قـد رواهـا مـن قبـل مائـة مـرَّة. يعتـذر منهـا، ثـم مـا يلبـث أن ينسـى حتـى يتذكَّـر لوحـة أخـرى، يحكـي تفاصيلهـا... وهـي تبتسـم، ولا تكُـف عـن ملاحقـةِ شَـفَتَيْهِ في الحديـث... حتـى مـا إن كاد يقـوم مـن مقعـدِهِ عـلى الأرض... اقتربَـت منـه... قَبَّلَتْـهُ بِشَـفَتَيها الطريَّتَـنِ عـلى خَـدِّهِ الأيـسر...

قُبلَةً، طويلة...

دافِئة...

دَفَعَها...

أطـال النَّظَـرَ إليهـا، يُحَـدِّقُ في الشَّـفَتَينِ الوردِيَّتَـينِ، والبَـشرَةِ التـي بَـدَت أكثَـرَ ذَهَبِيَّـة، تحـتَ شَـمسٍ سـاخِنةٍ...

شيءٌ ما يتحَرَّك خَلفَ ضلوعِهِ..!!

يضطرِب، يحاولِ كسرَ الضلوعِ والتحليق بعيدًا...

شيءٌ ما، خلفَ ضلوعِهِ، يَشعُرُ بِهِ يتقافَز للمرَّةِ الأولى..

- ماذا فَعَلتِ بِي؟!!

- ماذا؟!...

الـشيءُ الـذي نَبَـتَ خَلـفَ تلـك الضلـوعِ الخاويـة، ظَـلَّ يقـرَعُ طبولَـهُ، يَضُـخُّ سـائِلًا شَـعرَ «آسِـنُ» بِـهِ يتغَلغَـل في كُل شِـبرٍ بِجَسَـدِهِ. لم يتوقـف، حتـى جَعَـلَ مـن وجنَتَيْـهِ حمراويـن ملتهبَتَـينِ... هَـرَبَ اللـونُ الأزرَقُ تمامًـا، مـن الجَسَـدِ البـارِد... بينـما... غَـلى الأحمَـرُ، بُـركانٌ فائِـرٌ، ينبِـضُ بِقـوة، يوَتِّـرُ الآسـن الـذي مـا عـادَ آسـنًا.

«شَمس» تَضحَك...

تراقِبهُ وتُصَفِّقُ بيَدَيها...

- انظر إلى عينَيك!!...

لا يَسَعهُ إلا أن يَبتَسِم، مُجبَرًا، أمام تلك الشَّمس السَّاطِعة...

وهو لا يفهم، إنها المرَّةُ الأولى، التي يزولُ فيها الأزرقُ البارِد...

المـرَّةُ الأولى، التـي يَهـربُ فيهـا الخـوفُ، مـن الجَسَـدِ الآسِـنِ، فَيَسـكُنُ الـدِّفءُ خـواءَهُ...

المّرَّةُ الأولى، التي ينبتُ له «قلب».

***

(٢٣)

«من السُّخريةِ أن أعلم، في النهاية، أن بَلْدَتِي بالكامِل، تتكَسَّبُ من عَمَلِ امرأةٍ واحدةٍ... بينما أقصى أحلام الرِّجالِ هناك... أن يَعمَلوا كعاهِراتٍ في البَيت الذي كان أصفر..!!!»

كلما بدأت «شمس» بالبكاء، كان يُمَلِّسُ على شعرها بِحَذَر، يتقرَّبُ منها، يُحَدِّثُها عن تلك البلدةِ التي لم يعرِف بها رِجالًا. يُحَدِّثُها عن النساء اللاتي يَدَّعينَ الشَّرَفَ في العملِ بالبيتِ الذي كان أصفر. يحكي لها، عن ذلك الرجل قوي البِنيةِ، الذي كانَ يُقَبِّلُ أقدامَ الحرَّاسِ أمام البيت، يترجَّاهُم أن يتركوهُ يعمَلُ بالداخِلِ كعاهرة. كلما رآها تَبكي، كان ذلك الشيءُ النَّابِض الذي نَبَتَ له خلفَ ضلوعِهِ يتألَّم. كلما كانت تبكي، كان يَشكو لها ضعفَه، يَصِفُ لها كم يراها أقوى من رِجالِ بلدةِ الرُّمَّانِ بأكملها... البلدة التي يتسكَّعُ فيها الرجال بينما تعملُ نساؤهُم...

– لو أنَّهُم يأتونَ هنا، يَرَوْنَ كم أن محصولهم من الرُّمَّانِ تزرعهُ أنثى فاتنة مثلكِ... لَغاروا مِنكِ يا غبية... لا تبكي..!!

– ولكن... أنا لا أريدهم أن يأتوا... ابقَ أنت فقط!

«البقاء»...

كلمة باتت غُصَّة في حلقِ الآسن.

تُكَرِّرُها «شمس»، تنظر إلى العينَينِ الحمراوَينِ اللتينِ ما عادتا جاحدتَينِ، عينانِ أصبَحتا أكثَرَ لَينًا... وقَلَقًا! يُغَيِّرُ دفَّةَ الحديث، يسألها عن ذلك الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر، تتأفف منه... وتتركهُ هاربةً إلى صَخرَةٍ ما، تستندُ إليها وتبكي. «آسنُ» لا يفهم سببَ بُكائِها المتكرر، كلما ذُكِرَت كلمَتَا «الرحيل» و«البقاء»، الأولى تجعلها تعيسةً، والثانية تَخلقُ منها البهجة... لكنه أيضًا لم يَعُد يفهَم ذلك السبب الذي باتَ يجعَلُ من الشيءِ النابِضِ خلفَ ضلوعِهِ بركانًا ثائرًا، مُضطَرِبًا... كلما رآها قلقةً.

- تريد أن تتركني؟!!... تراني قبيحة أليسَ كذلك؟!...

- لا!..

- أنتَ غَبي... أغبى مخلوق حَطَّت قدماهُ على تلك المروج..

- صدقيني أنا لم أقابِل مثلكِ يا شمسي!!

- تشتاقُ إلى نساءِ بلدتكم، إلى تلك التي لا تكُف عن الحديث عنها!!

- قُلتُ لَكِ أنتِ لَستِ مثلهنّ... الأمرُ فقط أني... ما زِلتُ لا أعرفُ من أنا!!

- أنت «آسن» فحسب، وهذا كُل ما يهمُّني...

ينظرُ إليها، بعينين حزينتين...

- أرأيتِ؟!... حتى أنتِ تنعتينني بالآسِن..

- وما أدراني باسمٍ غيرهُ يا غبي... أنا أكرَهُك!!

تعـودُ للبـكاءِ مـن جديـدٍ، لا يَسَـعهُ أن يفعـل شـيئًا لهـا... مـا زال يتأمَّلُهـا في صمـتٍ... لا يفهَـم مـاذا تريـد.

انقضـت مُـدةٌ، لم يَهتَـمَّا بِحِسـابِها، كانـا فيهـا لا يتحدثـان. الشـمسُ بالأعـلى تـدورُ دورانهـا المعتـاد، بينـما الشـمسُ بالأسـفَلِ عبـوس، أبَـت أن تَمْنَـحَ الأصفـر، فـكانَ وجـهُ الآسـنِ مُظلِـمًا، مُعتـمًا، بـارِدًا لم يطـأهُ الـدِّفءُ. كانَ يسـتيقظُ قبلهـا، يـأتي بِفَحـمٍ مـن الـذي كانـت تُخَبِّئُـهُ، يرسـمُ لهـا لوحاتٍ عـلى صخـورٍ راسِـخاتٍ بجوارهـا. يرسـمُ أناسًـا وحيوانـاتٍ، يرسـمُ زهـورًا وطيـورًا... ويرسِـمُ الشَّـمسَ بالأعـلى، تُـضيءُ للجميـع. كانـت تسـتيقِظُ لـترى مـا يفعـل، ومهـما رَسَـمَ لهـا، تلتقـطُ حِجـارة صغـيرة مـن الأرض، تَقذِفهـا بِقسـوةٍ عـلى الرسـومات... تـصرخُ بِوجهِـهِ...

«كُلّهـا سـوداء... كلهـا كاذبـة... تمامًـا مثلـك... الشـمسُ سـوداء، والزهـورُ سـوداء، النـاسُ سـود، وتلـك الطيـور اللعينـة ليسَـت ملونـة، سـوداء أيضًـا... أيـنَ الألـوان الحقيقيـة؟!!... أتَكـذِب؟!... انظـر للشـمسِ بالأعـلى... أتراهـا سـوداء يـا أعمـى؟!!... كاذِب، تمامًـا كلوحاتـك!!»

كلـما صَرَخَـت أكثَـر، اهتَـزَّ القلـبُ النابِـض خلـفَ ضلـوعِ «آسِـن»، كانَ يُشـعِرهُ بِـذاتِ الشـعور عندمـا كان أهـل الدَّابَّـةِ يركضـونَ خلفَـهُ، وعندمـا قَطَعـوا ذراعَـهُ اليُـسرى... شُـعُورٌ مقيـت...

– ولكن ماذا أفعَل لكِ؟!!... لم أجِد سِوى الفحم الأسود.

لا تَكُـف عـن الـصراخِ والبـكاء، ترميـهِ بالحجـارة، ثـم تهـدأ. كان البـكاءُ قـد أعياهـا، ذَبَلَـت كَتِلـكَ الزهـور عـلى المـروجِ الخـضراء. بينـما كانَ يتأمَّـلُ الشَّـمسَ بالأعـلى، يبحـثُ عـن مَشرِقهـا، يبحَـثُ عـن هويتهـا، ويُحـاولُ أن يلتقطهـا بِيَـدِهِ اليُمنـى... وقفـت...

حدجته بنظرةٍ لائمةٍ، أشارَت إلى موضِعِ ذراعِهِ اليسرى المقطوعة...

– ألم تسألني حتى لماذا لا أخشاك؟!... لماذا اطمأنَّ قلبي لك، رُغمَ تلك الذراع المقطوعة، وكُل النُدبات التي تملأ جسدَك؟!!... نعم لم أكن وحدي هنا على تلك الأرض... كَذِبت... كان هناك آخر... يُشبِهُك، ذراعاهُ قويتان، أتعلَمُ من أينَ أدركتُ قوَّتَهُما؟!... من تلك الصفعات التي كان يوَجِّهُها لي كُل صباحٍ ومساء، حتى خُيِّلَ إليَّ أنه قد وُجِدَ في تلك الحياة ليضربني وحسب. لا أعلمُ من أينَ أتى، لكنَّهُ كان يذهَبُ ويَجيءُ من الغابةِ الكثيفة، المُرعِبة. كنتُ أجمَعُ السرطانات وأزرعها في البداية لأجلهِ هو، كانَ يَلتَهِمُ الرُّمَّان بِنَهَمٍ لا ينقَطِع، ولَمَّا تنتهي الكِمِّية المزروعة، يصرخُ بي أن آتيه بالمزيد، فأقول له بأننا سنضطر لزراعة محصولٍ آخر... يضربني بِقَسوةٍ. أزرعُ من جديدٍ ما يكفيه، لكنَّهُ لا يكتفي... حتى كانَ يوم... يَقِفُ فيه على تلك التَلَّة التي تذهَبُ إليها الشمسُ مع نهايةِ اليوم، هناك، كان يسحبني رُغمًا عني لأشاهِدَ الشمسَ معه... هناك، لم أفهم أبدًا لمَ يُجبرني على فعلِ ذلك... حتى... بَدَت لي التلة عالية ذاك اليوم، ونظرتُ للأسفَلِ، وجدت كل شيءٍ بعيدًا... سحيق... والزهور متناهية الصِّغَر، حتى الصخرة الكبيرة التي كنا ننامُ أسفلها، باتت بعيدة من الأعلى... لم أفكِّر... كُل ما أردتهُ هو أن أدفَعهُ بعيدًا عنِّي، كي لا يضربني بذراعَيهِ القويَّتَين... دَفَعتهُ من أعلى التَّلَّة... كانت آخرُ نظرةٍ على وجههِ غاضبة، ربما، لم يَكُن يُصَدِّقُ أنَّ بِمَقدوري فعل ذلك... وعندما أتيت أنت!!... لم أخافك، ربما ذراعك المقطوعة تلك طمأنتني، أنك على الأقل لن تؤذيني مثلما فعلَ هو... ربما جِراحُكَ وندوبك التي تكسوك تُشبِهُ تلك التي تملأني... ربما لا ملجأ لنا سوانا، أنتَ تُشبِهني في كُل شيء، لقد آذوا كِلَينا... لا تذهَب...

كان «آسنُ» يستمِعُ بإنصاتٍ، يرى على وجهها للمرة الأولى علاماتِ الاحتقان، الكُره، تلك المشاعِر، التي كانت تكنّها لذلك الغريب الذي

قَتَلَتـهُ لا توصَـف. كانـت تخشـاهُ أكثـر مـن خشـيتها للآخريـنَ الذيـنَ أتـوا مـن نفـسِ الغابـة. حـاول أن يَـرُد عـلى كلامهـا، يُقاطعهـا، لكنَّهـا نَهَرَتـهُ بِغِلظـة...

- لا تتكلـم!!... لقـد سَـمِعتُ مـا يكفينـي مـن هرائـك، أنـت لا تفعـلُ شـيئًا سـوى الـكلام وأنـا أسـمع... لا تفهـم... تبحـثُ عـن مجهـولٍ قـد لا تَجِـد لـه وجـودًا... أقـول لـك أنـتَ الوحيـد الـذي أعطـاني شـيئًا فابـقَ معـي، وتقـول لي «أريـد أن أعـرف مـن أنـا؟!!»... ومـاذا إن عرفـت؟!... هـل سـتعود إليَّ؟!

- حتـى هـذه لا أضمنهـا يـا شـمسي... لعَـلِّي أجِـدُ أصـلي مَسْـخًا بالفعـل، وقتهـا، لا أعلـمُ إن كانَ بمقـدوري أن أعـود أم أبقـى وحيـدًا..

كلماتـهُ الأخـيرة، أخرسـتها. تنظـرُ إليـهِ بِتَعَجُّـب، بينـما يديـرُ وجهَـهُ لهـا، ينظـرُ إلى الشَّـمس بالأعـلى، يقفـزُ مـن جديـدٍ محـاولًا الإمسـاك بِهـا. القُـرصُ بعيـدٌ، بحجـمِ عُقلـةِ إصبَعِـه، يُغضِبـهُ أنـه لا يتمكـن منـه أبـدًا.

- أتَعلَـم؟!... بِـتُّ أكرههـا، لا أريـدُ رؤيتهـا عـلى تلـك الأرض... أتمنَّـى أن تتمكَّـن مـن الإمسـاكِ بهـا يومًـا، فتنطَفـئ هالتهـا، وتحـرِقُ يَـدَكَ الأخـرى... وأرتـاح أنـا..

انتبـهَ لحديثهـا، اقـتربَ منهـا، قَبَّـلَ رأسـها بِهـدوءٍ، قـال لهـا كَـم يراهـا جميلـة، وكـم كان يتمنَّـى لـو أن تـأتي معـهُ إلى بَلَـدِ الرُّمَّـان، فـيُرِي النـاسَ هنـاك تلـك المـرأة التـي يأكلـونَ بِسَـبَبِها، يُـري النسـاء هنـاك كيـفَ تكـونُ الإنـاث الحَـق... لكنـه حتـى لا يعلـمُ إن كان سـيعود أم لا، لا يذكـرُ مـن ذلـك البلـد سـوى الخـرابِ والآلام التـي سـببوها لـه... لا يذكُـر منهـا سـوى النَّبـذِ والبِئـرِ القـذرة، حتـى إن رائحتهـا لا تـزالُ عالقـة بِجِلـدِهِ لا تُفارِقـهُ.

– أنـا أبحـثُ عـن الـذي يعلـمُ مـا بـينَ الأحمـرِ والأخـضر... أبحـثُ عـن حقيقـةِ الألـوان، التـي وجَـدتُ نفـسي مفطـورًا عـلى رؤيتهـا في تلـك البحـيرة... سـامحيني، لا يمكننـي أن أعشـقَ وأنـا مجهـولُ الهويـة...

أيقَظَتهـا الشـمسُ بالأعـلى، والسـماءُ التـي خَفَّـت زُرقَتُهـا. بَحَثَـت حولهـا، لم تَجِـدهُ نائمًا أسـفَلَ الصَّخـرة. وجـدَت بِضـعَ أحجـارٍ مـن الفحـمِ، مُفَتَّتَـتٍ عـلى الـزَّرعِ، وجـدَت عـلى الصخـرةِ لوحـة...

اقتربَت منها، تتبَيَّنُ ملامحها...

وجـهٌ بديـعٌ لِفتـاةٍ، عيناهـا سـوادٌ مُهلِـك، يتوِّجُهـا ليـلٌ مُمَـوَّجٌ يتـدرَّج للأسـفَلِ...

شَفَتانِ ممتلِئَتانِ، وأنفٌ دقيقٌ...

بالأعـلى، شـمسٌ، لكنَّهـا ليسَـت سـوداء، كان قـد ألصَـقَ أوراقَ أزهـارٍ صفـراء فاقعـة، مـلأ بهـا دائـرة مرسـومة، أكـبَرُ مـن حجـمِ عقلـةِ إصبَعِـه، أرادهـا أن تَعـي أنـه ليـسَ بأعمـى... فقـط... لا شيء سـوى الفحـمِ يملُكـهُ...

أمعَنَت النَّظَرَ في الوجهِ المرسوم...

وجهٌ خالٍ من الندوب...

***

«أسود»

(٢٤)

الغابة والنهر، طريقانِ يغشاهُما المجهول، والآسِنُ هَرَبَ من الشَّمسِ بلا رجعةٍ. تأمَّلَ ظلام الغابة، اضطرَبَ القلبُ الجديدُ من وحشتها، لم يتقَدَّم خطوةً واحدةً لاستكشافها. كان يشتَعِلُ من ذلك القلب، الذي ما عاد يتركُ له خيارًا إلا وتَدَخَّل به. يمنعهُ من المُضِيِّ قُدمًا تارةً، يُجبِرهُ أن يُفكّر مرَّتَينِ تارة أخرى، يدفعهُ إلى الجنون أحيانًا، وفي أغلبِ الأوقات... يدفَعهُ نحو الهاوية. يضرِبُ صَدرَهُ محاولًا إخراجِ ذلك الشَّيء التي زَرَعَتهُ «شمس»، يضربُ رأسهُ بالصخور علَّهُ يختفي، لكنهُ يشعرُ بآلامٍ أقسى. تركَ الغابة، بَحَثَ عن النَّهرِ من جديدٍ. النهرُ جارٍ لا توقِفهُ رياحٌ مُعاكِسة، يتمَعَّنُ «آسنُ» بنهايةِ المجرى، فلا يلتقِطها بِعَينَيهِ. لا مَفَر آخر، قفزَ بِهِ يسبحُ باتجاهِ التيار، تاركًا جسدَهُ يُساقُ إلى مجهولٍ آخر... قد يدلّهُ على هويته.

العَومُ بِذراعٍ واحدةٍ شاق، كُل شيءٍ بعدَ فقدانِ ذراعِهِ الحبيبةِ شاقٌّ، ومكانُ البَترِ يَقتُلهُ كل يوم، يُذَكِّرُهُ بالقومِ المُلَوَّنين. حمَلَهُ النهرُ الجارف على طولِ طريقٍ بدا مُخضَرًّا، انسَلَخَ الأخضرُ منه شيئًا فشيئًا، غَلَبَت الصُّفرةُ من جديدٍ. رمالٌ صفراء، ليسَ كذلك الصفار من الشَّمسِ التي رآها. صفارٌ مؤلِمٌ لِعَينَيهِ الحمراوَينِ، صفارٌ لا ينتهي،

والطريـقُ أمامـهُ أبَـديٌّ. ميـاهُ النَّهـرِ جُنَّـت، تسـارَعَت، تَلهَـثُ بأمواجِهـا الصغـيرة التـي كانـت تصفـعُ الآسِـن عـلى وجهـهِ كلـما غفـا واستَسـلَم، تتسـارَعُ كأنهـا تلحـق شـيئًا. «آسِـنُ» فَقَـدَ كُل أمـل، الطريـقُ الرمـلي عـلى جَنبَـي النهـرِ لا ينقطِـع... والآسِـنُ يـصرخُ ولا يتوقَّـف...

– لم أعُـد أريـدُ شـيئًا... أريـدُ العـودة!!... أريـدُ العـودةَ إلى الألـوان... آاااااه... كَرِهـتُ الأصفَـر..!!

يصمُـت لوهلـةٍ، كلـما نظـرَ للأعـلى... تلـكَ الشـمس المُـدَوَّرَةُ لا تـزالُ هُنـاك... كأنهـا تنظـرُ إليـه، تبتَعِـد، حتـى باتـت أصغَـر مـن عُقلَـةِ إصبَعِـه. يصيـحُ بهـا، يسـتنجِدُ...

– ألا تذكُريني؟!... أنـا الـذي تـركَ كُل شيءٍ لـيراكِ... أنـا الـذي بَحَـثَ عـن أصفَـرِكِ في كُلِّ بُقعـةِ ظـلامٍ دامِسـة... أتبتعديـنَ عنـي الآن وأنـا تائِـهٌ في الملكوتِ الشاسِـع؟!...

تبتَعِـد، يبتَعِـدُ أصفَرُهـا، يَخْفَـتُ سـطوعها، بينـما يناجيهـا الآسِـن. صـورةُ البِئـرِ والمحرقـةِ تأبَـى أن تترُكَـه، ينظـرُ مـن جديـدٍ إلى أعـلى...

– بَحَثـتُ عـن الـذي يعلَـمُ مـا بـين الأحمـرِ والأخـضر... فـما وَجَـدت أحمـر ولا أخـضر... لكنِّـي وجدْتُـكِ أنـتِ... أخرجينـي مـن تلـك الغُربَـةِ، بِحَـقِّ كُل نُدبَـةٍ عـلى ذلـك الجَسَـدِ المقهـور، بِحَـقِّ كُل قطـرة دم خَسِرتُهـا... إن كُنـتِ خاصَمتِنـي لأنِّي حاولـتُ الإمسـاك بـكِ عـلى أرضِ المـروج فهـذا مـن لهفتـي للقائـكِ... العطشـانُ لا يُـلامُ عـلى سَرِقَـةِ المـاءِ المُقَـدَّسِ... أليـسَ هـذا مـا كان «ودود» يُـرَدِّدهُ؟!... أليـسَ هـذا مـا كانَ يتلـوهُ مـن كتـابِ القديـر؟!... وأنـا... عطشـانٌ للألـوانِ، بَحَثـتُ عـن كُلِّ أصفَـرَ في البـلاد، فـما وجَـدتُ في غَـيرِ أصفَـرِكِ أصفـر... إذا كُنـتُ قـد أزعَجتُـكِ بمطـاردتي، فأنـا آسـف... أنـا بائِـسٌ تائـهٌ يبحـثُ عـن أصلِـهِ... لا... لا تبتَعـدي

أرجـوكِ... إذا أردتِ تركـي، عـلى الأقـل أعيدينـي، أعيدينـي إلى المـروج... لا أريـد العـودةَ إلى بلـدِ الرُّمـان... لا أطيـقُ البقـاءَ في البئرِ الكريهـة، والمحرقةِ العظيمـة... لا أطيـقُ رؤيـةَ الألـوانِ الباهِتـة، التـي يُطفـئُ بهجَتَهـا الظـلام، ولا يُسـعِفها ضـوءُ الشُّـعلاتِ المُرتَعِـش، الـذي لا حـولَ لـه ولا قـوة، لا يُدفـئُ مـن أحـدٍ مـن أهلهـا، ولا يُـضيءُ لـه الـدَّرب... اسـمعي، أيتهـا الكـرةُ اللعينـة بالأعـلى... أنـتِ مـن أخرَجتِينـي مـن غَفلَتـي، ليتَـكِ كُنـتِ تركتِنـي!!... أنـتِ السّـبَب... أعيدينـي كـما كُنـتُ... جاهِـلًا بالنـورِ، أعمـى بالألـوان... انتظـري!!... لا تَذهَبـي!!... يـا كُـرةَ النُّـورِ يـا كاذِبـة!!... انتظـري...

أصابَـهُ صَفـارُ الرمـالِ الـذي لا ينتهـي مـن حولِـهِ بِـدوار، راحَ يُجَـدِّفُ بـذراعٍ يَتيمَـةٍ نحـوَ الهاويـة، التـي سَـقَطَ فيهـا مَغشِـيًّا عليـه... حيـثُ العينَـينِ المتثاقِلَتَـينِ غَفَتـا.

❊ ❊ ❊

(٢٥)

«سودٌ... لا يُنيرُ سوادهم بقايا الشَّمس»

يفتحُ عينَينِ، لم تبرد حُمرتهما بعد...

تلتقطانِ بقايا ضوء برتقالي، يُعافرُ وسطَ غيومٍ بدينةٍ، لا شَكلَ يَحِدّها، ولا لونَ يطليها... يولَدُ منها، جنينُ ضوءٍ ضئيل، يَهرَعُ إلى أرضٍ سوداء!!...

رمالٌ سوداء...

صخورٌ سوداء...

يتحسس موضع الذراعِ المقطوعة، يجدها كما هي. يبتسم، ظن أنه في كابوسٍ، وربما حاله في الكابوس بذراعَينِ، حتى يفيق من إغمائِهِ ليجدَ أنه ما زال على أرضِ الواقع. يتأمَّلُ السواد من حوله، ليسَ ظلاماً كما اعتاده. كُل شيءٍ أسود، الرمال الدافئة التي التصقت حبَّاتُها بجسدِهِ ووجهه سوداء، يَفرُكُ بها تلك الأصابع الخائفة، المتردِّدة، لا يزولُ سوادُها. يتابعُ الضوء البرتقالي، يصيح عاليًا...

«ألن أهربَ منك أبدًا؟!»

المكانُ خاوٍ حولهُ، لا صوتَ لِطَيرٍ أو مخلوقٍ، فقط، هو ذلك الحجر على ضفَّةِ النَّهرِ حيثُ وجدَ نفسَهُ. يتحسَّسهُ، حجَرٌ بِحَجمِ جَسَدِهِ،

أسـود، رائحتـهُ عَطِـرة، كرائحـة تلـك الأخشـاب عـلى أرضِ المـروج... أرض المـروج... «شـمس»!!... يتذكرهـا، يتنهَّـد طويـلًا، ينظـرُ للأعـلى إلى الضـوء البرتقـالي الباهـت...

- وأينَ هي الشمسُ الآن؟

يطـردُ صورتهـا مـن ذهنـهِ المُرهَـق، يتنبَّـهُ لأصـواتٍ قادمـةٍ مـن الخلـف، مـن حيـثُ طريـقٍ رملـي تَحـدُّهُ الصخـورُ عـن الجَنبَـينِ، وتكسـو مـا حولَـهُ نَخيـلٌ مِعوجَّـة القامـات، مُنْحَنِيـاتٌ للأمـام كأنهـن سـاجِدات، أوراقهـن سـوداء كالباقـي. اختبـأ خلـفَ إحداهـا، يتوجـسُ خيفـة وينبِـضُ قَلبُـهُ الجديـد فيضطـرب. دبيـبُ الأقـدام المتسـارعة، والهـواءُ الـذي يـضرِبُ عـلى أقمِشَـةٍ فضفاضـة كالدفـوفِ... أصـواتٌ شَـتَّى... وحـصى عـلى الأرضِ الرمليـة يتـأَوَّهُ مسـتنجدًا ممـن يدفنونـهُ بأقدامهـم.

الوجـوه سـوداء، مهـما وقـعَ عليهـا مـن ضـوءٍ برتقـالي لا يقـدِرُ عـلى إضـاءةِ سـوادها. الأجسـادُ عَفِيَّـة، مفتولـةُ العضَـلِ، تُشـبهُ عماليـق بلـد الرُّمَّـان... إلا مـن قامـاتٍ قصـيرةٍ، قِزمـة. خَـرَجَ «آسِـنُ» مـن خلـفِ النخـلاتِ السَّـاجِداتِ يتحسـسُ خُطواتـه، يشـاهِدُ بِعَينَـينِ مذهولَتَـينِ جماعـةً مـن الأقـزامِ سـود الوجـوهِ والأجسـاد، مفتـولي العضـلات... يسـجدونَ أمـامَ تلـك الصخـرة عَطِـرَة الرائحـة...

- بَحَثنـا عـن الـذي يعلَـمُ مـا بـينَ الأحمـرِ والأخـضر... فـما وجدنـا أحمر ولا أخـضر... ولكنَّـا وجدنـاكِ... يصبغـكُ السَّـوادُ مثلنـا، عَفِيَّـةٌ مثلنـا، عَطِـرةٌ سـيرَتُكِ، مِثـل كُل مـن أتـوا مـن النَّهـرِ المَديـد، وكُل مـن جَلَسـوا عـلى عَـرْشِ النَّخيـل...

خَـرَجَ الآسِـنُ عـن صمتـه، أحدهـم يذكُـرُ ذاك العـراف الـذي يبحـثُ عنه.

هَلَّلَ فرحًا، اندفعَ مبتعدًا عن النخلاتِ الساجِداتِ يركضُ نحوَ جماعةِ الأقزامِ السُّود..

- أنا بَحَثتُ عنه، أنا مثلكم، تركتُ كُل شيءٍ خلفي... بَحَثتُ عن العرَّاف...!!

فَزِعوا منه، تَفَرَّقوا كما النَّمل بأرجاءِ الأرضِ، يصرخونَ من الخوف. «آسِنُ» يركضُ بينهم عملاقًا مُشَوَّهًا، تملأهُ الندوب، يُلَوِّحُ بِذراعٍ واحدةٍ، لونهُ الأحمر القاني بُركانٌ مُتَّقِد. الأقزام يصرخون، يتوافد المزيد منهم، يحملونَ سيوفًا وحِرابًا نَصلُها حاد، يأمرهُ الوافدون الجُدُد منهم بالتوقفِ، بينما يحاول هو تهدئتهم بإشاراتٍ من يدهِ. جَثا على ركبتَيهِ رافعًا ذراعهُ باستسلام. توقفوا عن الحراك، فَعَلوا مثلما يفعل، جَثوا على ركبهم يُلقونَ بأسلحتهم أرضًا ويرفعونَ أذرُعَهُم لأعلى. كان «آسِنُ» يراقِبُ أفعالهم، يقفُ على قدمَيهِ من جديدٍ ليجدهم يُقَلِّدونَهُ. يتحَرَّك صوبَ الصَّخرةِ السوداء العَطِرَة، تعلو وجوههم الدَّهشة...

يسجدونَ له، تمامًا كالنَّخلات...

يقتربونَ منه، يَعمَلونَ دائرةً حولهُ وحولَ الصَّخرة بجانِبه...

أحدهم يشير، بإصبَعٍ سَبَّابة قِزم...

- هو!!... هو يَعلَم...!!

يسجدونَ من جديدٍ، و«آسِنُ» يتأمَّلُ اتجاهَ سجودهم واتجاهات سجودِ النَّخل. هدأ اضطرابُ ما خلفَ قفصهِ الصدري، عَلِمَ أنه ما من خَطَرٍ الآن، لكنَّهُم لا يَكُفُّونَ عن السجودِ له والتلويح بأياديهم القِزمة المُدَوَّرَة تجاههُ. سألهم إن كان بإمكانهم أن يُتركوه يبقى بعض الوقتِ ريثما يجدُ ضالَّتهُ، ظهرَ عجوزٌ مُتَهَدِّل البَطن، أفتحُ لونًا

بمراحل منهم. حاول «آسن» أن يوَجِّه كلامهُ إليه، العجوز يأمرهُ بالنَّظَرِ إلى الصَّخرةِ العَطِرة...

- انظر... أنتَ أتيتنا بعدَ حين، وما فقدنا الأملَ...

- أنا؟!... صدقوني ربما.. أعني.. من تبحثونَ عنه قد لا يكون أنا، أنا فقط مجرد...

- أنتَ من تعلم، لقد كُنَّا على وشك الهلاك، كان الضلالُ يحومُ حولنا منذُ أشهُرٍ، شبحًا جاثِمًا على صدورنا، تمامًا كتلك الغيماتِ الشريرات الملعونات التي تُجاهِدُ لِحَجْبِ النورِ عنَّا... لم نَكُن بهذا السواد من قبل...

- ولكن يا شَيخ أنا لستُ...

- انظر للصخرةِ وستعلم من أنت!!

الصخرة...

التي ما زادها ضوء السماء البرتقالي سوى لمعان، ولم يَخفُت سوادها...

كانت واقِفة بجانبهِ، شامخة. يرمقهم بنظراتِ استعجاب، لا يستوعب ما يرمونَ إليه...

- الصخرة... ذات الذراعِ الواحدة!!

لا يفهم ما يقولون، لكنهم لا يتوقفون عن السجود والتمتمة بلغةٍ لا يفهمها. ينظرُ من جديدٍ، يبتعِد عن الصخرة، يتراجع إلى الوراء...

صخرةٌ بِحَجمِ جَسَدِهِ، تُقارِبُ طولَهُ، تُماثِلُ عَرضَهُ، حوافُّها ناعمة ومتآكلة، هيئتها كأنها نُحِتَت على شكلِ جسدٍ. يبرزُ منها جزءٌ طويلٌ من جانبها، يمتدُّ كأنما يريدُ أن يلامسَ السَّماءَ...

الشـيخُ لا يتوقـف عـن ترديـد جملتـه، لا يتوقـف عـن تشـبيهِ «آسِـن» بتلـك الصخـرة ذات الـذراعِ الواحـدة...

- يـا أحمـر الصبغـة، يـا مـن تعلـمُ مـا بـينَ الأحمـرِ والأخـضر... دُلَّنـا عـلى أخـضَرِك!!

❊ ❊ ❊

(٢٦)

«ما من مخلوقٍ أتانا، على تلك الأرضِ السوداء، إلا وجعلنا منه مَلِكًا... فقط... لو أنه تطابق وتلك الصخرة العطِرَة... لكن من أتوا إلى هنا، لم يَكُن للأحمرِ عليهم سُلطانٌ كما وجدناك...!»

يُقال إن كُل من يُشبِهُ الصخرة، السوداء العطرة، على ضفَّةِ النهرِ، هو الأجدرُ باعتلاءِ عرشِ النخيل. يُقالُ أيضًا، إن تلك هي أكبرُ الصخور حجمًا على الأرضِ السوداء. يُقال إن شكلها يتغيرُ كُل فترةٍ من الزمن، غير معلومةٍ، ولا يمكن حسابها... لكن بِتَغَيُّرِ الشَّكلِ... يتغيَّرُ أيضًا من يعتلي العرش. يُقالُ الكثير هنا، على الأرضِ السوداء، التي لم تُفلِحُ بقايا الشَّمسُ بالأعلى في تَفتيحِ قتامةِ لونها... لكن... تبقى تلك مجرد أقاويل تُلقى على مسامعِ الآسِن منذ أن جَلَسَ على العرشِ المُزَيَّنِ بأوراقِ النخيل السوداء.

- الحياة كَـ «مَلِك»... لا تضاهيها حياة...

كانت تلك أول كلماتٍ تخرجُ من فَمِ «آسن»، بعد جلوسهِ على العرشِ لأوَّلِ مرة. ينظرُ إلى الأقزامِ السُّودِ من الأعلى، ساجدونَ له، لا يقومونَ إلا بأمرٍ منه. الشَّيخُ البدين يجاورهُ، يجيبُ عن أسئلته ويسأله عن سِر الأحمرِ والأخضر. «آسن» يتهرَّبُ من الإجابة،

يقـول إنـه يبحـثُ عـن ذاك العـرَّاف الـذي يعلـمُ كُل شيء، يعلـمُ المـاضي ويصنـعُ الحـاضر وبذلـك سـيحكي لـه عـن المُسـتقبل. الشـيخُ يسـتمعُ إليـه بإنصـاتٍ، ثـم يُقَـدِّمُ لـه مـن العطايـا والكنـوز مـا يُغنيـه عـن الكَـون بأكملـه، يرجـوهُ أن يبقـى معهـم، بينـما يتأمَّلـهُ «آسـن» ويتأمَّـل لونـهُ الفاتـح.

- أنتَ لا تُشبِهُ قومَك!!

- أنا أكبرهُم سنًّا، أقدمهُم عمرًا على تلك الأرض السوداء...

- هناك آخرون يُماثلونك في العُمر... أنت فقط... لونكَ...

صمت العجوز، يُفَكِّر، رَدَّ بكلماتٍ قليلاتٍ هادئاتٍ..

- ربما أعلمُ أكثر منهم..!

عـلى العـرشِ النخـليِّ اسـتكانَ الآسـنُ، الـذي مـا عـادَ آسـنًا. يُمَجِّدونهُ ويُهَلِّلونـهُ حتـى يُعيِيهـم التعـب مـن الرقـصِ والتمجيـد طـوال اليـوم. ينظـرُ للسـماءِ ذاتَ الغيـماتِ البدينـاتِ السَّـبع، بالـكاد يتسـاقطُ منهـا فُتـاتُ ضـوءِ القُـرصِ الوهَّـاجِ المُختَبـئ. يسـتعجِبُ مـن تلـك البلـدة، قومهـا لا يشـتغلونَ بـشيءٍ سـوى بِحَمـلِ الحجـارة مـن مـكانٍ ليضعوهـا بمـكانٍ آخـر. كلـما أرادَ أن يتجـوَّلَ بالبلـدة، أمـرَ الشَّـيخُ بعـضَ الأقـزامِ بِحَمـلِ حاكمهـم عـلى عـرشٍ آخـر متحـركٍ، قائـلًا بـأن «لا يجـوزُ لسـماحةِ المَلِـك أن يُدَنِّـس قدمَيـهِ الطاهرتَـينِ عـلى الأرضِ السـوداء». يحملونـهُ ويسـيرونَ بِـهِ حـولَ أرجـاءِ أرضهـم، يـرى بِعَينَـينِ مذهولتـين معالمهـا السـوداء. ليسـت بكبـيرةٍ، الأقـزام يحملونـهُ ويركضـون، يُدَغدِغـونَ الرمـال السـوداء بأقدامهـم الصغـيرة، يُدَلِّكونهـا حتـى يسـتوي ظهـرُ البلـدةِ مـن ذهابهـم وإيابهـم. يسـألهم الآسـن بتعجُّـب عـن البلـدة الصغـيرة، التـي مـا فَكَّـروا أن يُغادروهـا... ليخـبرهُ أحدهـم بـأن رِجـالًا منهـم فقـط مـن يَسـمَحُ لهـم الشَّـيخُ بالسَّـفَرِ

خارجهـا... ليجوبـوا الأرضَ عارضـينَ كنوزهـم عـلى بلـدان أخـرى ومقايضتهـا بالبخـور العطـرة أو حبَّـاتِ الرُّمَّـانِ...

- أو حتى النساء الحلوات من بلدةِ الرُّمَّان...

أحدهم قالها بِخَجَلِ طِفلٍ...

احمَـرَّت وَجنَتَـا القـزمِ السَّـوداوَانِ لمـا سـأله «آسـن» عـن نسـاءِ بلـد الرُّمَّـان. حَكَـى القِـزمُ عـن آخـرِ شُـحنةٍ مـن النسـاء وهَبهـا «الأخ الحنـون» لـلأرضِ السـوداء، قائـلًا بِأَسَـفٍ أنهـا كانـت تتضَمَّـنُ أجمَـلَ مـن مَـرَرنَ عليهـم، لكـن الملـك الـذي كان يسـبِقُ «آسـن» لم يوافِـق عـلى تـركِ نسـاءِ الرُّمَّـان هنـا.

- ولماذا لم يوافق؟

- لأَنَّهُـن كُـن لا يُجِـدنَ شـيئًا سـوى إلهائنـا عـن عملنـا الرئيسـي، الـذي كان المَلِـكُ قبلَـكَ يـا سـيدي الأحمـر يأمرنـا بِـهِ عـلى الـدوام..

- عَمَـل؟!!... أتسـمُّونَ نَقـلَ الحِجـارةِ مـن مـكانٍ لمـكانٍ آخـر دون فائـدةٍ تُذكـر بِعَمَـل؟!!

- هكذا وجدنا أنفسنا نفعلها...

كانـت الرحلـة التـي دارَت بـ«آسـن» عـلى عرشِـهِ المتنقـل حـول البلـد الصغـير قـد انتهـت باكـرًا. أمَرَهُـم «آسـن» برحلـةٍ أخـرى، قـال بـأن الوقتَ لا يـزالُ أمامهـم، قـال بأنـه لم يَكتَـفِ بعـدُ مـن حكاياتهـم. ارتَسَـمَت بَسـمَةٌ عـلى وجوههـم، ألقـى أحدهـم بكلـماتٍ مرتعشـةٍ فيهـا شيءٌ مـن الفرحـةِ...

- إنها المَرَّةُ الأولى التي يستمِعُ فيها حاكمٌ لنا!

وقال آخر: «أتعلمُ يا سيِّد أحمر؟... لم نَكُن بهذا اللونِ من قَبل»

قال آخر: «أذكُرُ جيدًا أن لوني كان قريبًا من لونِ الضوءِ بالأعلى.. لا أعرفُ بماذا يُسمى، لكنِّي أذكر أن لوني يُشبِهُ»

أراد «آسِنُ» أن ينزِلَ عن العرشِ المحمول، لتلتقط عيناهُ الأشواكَ المُسَنَّنَةَ على امتدادِ الأرض، تفترِشُ مساحاتها بالكامل، تَحيَا من باطِنِ الرمال التي لا يَقِلُّ سوادها. يسألهم عن تلك الأشواك، يُجيبونَ بأن الأرض تلفظُ أسنانها هنا كلما أتى حاكمٌ جديدٌ، وأنَّهُم لا يعلمونَ سَبَبًا لكراهيَّتِها تلك.

قال الذي تَوَرَّدَت وجنتاهُ من قبل:

«إننا هنا يا سيِّدي الأحمر نعملُ دونَ انقطاعٍ، منذُ أن أتانا المَلِكُ ذو الجَسَدِ المُدَوَّر. قال شيخُنا إنه لا يجوز أن يَحكُمنا أحدٌ من الخارج... كان يقول هذا... مع أول شخصٍ أتانا من خارجِ تلك البلدة، وكان وقتها شيخنا ليس بِشَيخ، ولونه أسودُ مثلنا. مع قدومِ أول غريبٍ إلى البلدة، هممنا نحاولُ الانقضاض عليه، كان هزيلًا، سَهل الهزيمة، وشيخنا أمرَ باحتجازه. بعدَ أيام، وجدناهُ مقتولًا، رأسهُ مُدَلَّى من رقبتِهِ يكادُ يُفارقها، أحدهم ذَبَحهُ».

انتابَ «آسنُ» القلق، حتى استكملَ القزم...

«وكُنا يا مَلِكنا الأحمر العظيم نبحثُ فيمن قام بتلك الفَعلةِ الشنعاء، إذ وقتها، كانت المرة الأولى التي تُراقُ فيها دماء أحد. في ذلك اليوم، صاحَ شَيخُنا بأن المهم هو أن تلك الدماء لِغَريب، وليست دماء أهلِ البلدة. طلبَ منَّا أن نصنعَ مركبًا، وجمعَ فيه من المؤنِ ما يكفيه للمدة التي قرر أن يبحث فيها عن أرضٍ جديدةٍ، أرض تحتوينا بعيدًا عن لعنةِ الدماء التي حطَّت علينا... أرض لا يدخلها غريبٌ... هكذا قال هو».

- ولكن لم تُجيبوني، هذه الأشواك...!!

رَدَّ قِـزمٌ آخـر: «منـذُ أن غـادر شـيخنا، لم تتوقـف وفـودُ الغربـاء مـن الخـارج، واحـدٌ تلـو الآخـر... أشـكالهم وأحجامهـم لا تُحـصى... لكننـا لم نتوقـف عـن تنفيـذ وصيـةِ شـيخنا التـي أوصانـا بهـا حتـى يعـود إلينـا»

- وماذا كانت؟!

نظـروا إلى بعضهـم البعـض، أطرقـوا رؤوسـهم لـلأرض، ثـم اقتربـوا مـن «آسـن» يهمسـون...

- نَذبَحُ كُل غريبٍ عنَّا...

❊ ❊ ❊

(٢٧)

البقاءُ على عرشِ النخيل، لفترةٍ، ليسَ بالأمرِ السَّيِّئ. البقاء على أي عرشٍ سيكونُ أفضلَ بكثيرٍ مما عاناهُ ببلدِ الرُّمَّان. لا يَمُر يومٌ على البلدة السوداء إلا وكان الآسِنُ يتساءلُ بِحَق، عما إذا كان يُفترضُ به البقاء كَمَلِكٍ يأمرُ وينهى، أم أن طريقهُ في البحثِ لم ينتهِ بعد. الأقزام يُفاجئونهُ بخدماتهم، يُقَبِّلونَ قدمَيهِ كُل يوم، يسجدونَ له ولا يعصونَ له أمرًا. الحياة بذلك المكان الأسود تليقُ بِمن مثله... أو... هكذا أقنعهُ الشيخ... لما سألهُ الآسِنُ عن الغريب الذي وُجِدَ مذبوحًا. الشيخُ دائمًا يحيدُ عن تلك السيرة، يستفسرُ على الدوام من «آسِن» عمن أخبرهُ بها، فلا يطلعهُ. أيُّ شيءٍ كان يُقَدَّمُ للمَلِكِ الجديد الأحمر، شريطةً أن يتوقف عن السؤالِ فيما لا يعنيه.

«الحياةُ هنا رغيدة، يتمناها كُل غريب، يتمناها كُل آتٍ من المهالكِ وكُلُّ باحثٍ عن مأوى... وكُلُّ عطشانٍ لِوَطَن»

قالها الشَّيخُ، الذي أخذَ مع الوقتِ يزدادُ لونهُ تَفَتُّحًا.

«آسِنُ» كان ينتظرُ ميعاد الجولة اليومية، التي يصطحبهُ فيها الحراس الأقزام على العرشِ المتنقل، ليسمع حكاياتهم. لم يتوقفوا عن سردِ الحكايات عن كُل سِرٍّ بالبلدة، لا يعيبهم إلا أنهم قومٌ جاهلون، لا

يعلمونَ بالفعلِ أي شيء خارج حدودها. كرر «آسن» سؤاله عن تلك الصخرة العطرة التي يتخذونها مرجعًا لرئيسهم...

قال أحد الأقزام: «لقد كُنا فقط ننفذ وصية شيخنا، هو أعلمنا وكان وقتها أكثرنا معرفةً بأولئك الغرباء، إذ كان يعيشُ على ضفةِ النهرِ... يُراقبُ من يأتون ويتبادل معهم البضائع. نحنُ لا ندري من تلك الأمور شيئًا، هو يعلمُ كُل شيء... لكن دعني أخبرك عن أمرِ سادنا..»

أسكتهُ قزمٌ آخر قبل أن ينطق، أمرهُ «آسن» بأن يتركهُ يُكمل، قال القزمُ بأنه لن يتكلم إلا إذا أمرهُ الملكُ بالكلام.

عاد يتحدثُ بصوتٍ خفيضٍ:

«لقد كُنا يا سيدي... مُلَوَّنين... أنا أذكر لوني، يُشبِهُ الضوءَ الساقط من الأعلى، وكان... كان هذا القزمُ بجانبي لونهُ فاتحٌ، كماءِ النهر... كنا يا مَلِكنا العظيم غير ما نحنُ الآن، لكننا بدأنا في ذلك السواد منذ أن بدأنا تنفيذ وصية الشيخ. مع كُل غريبٍ يدخلُ البلدة، ننقضُّ عليه، نُكَبِّلهُ... ننظرُ إليه بتمعن... لم يُشبه أحدهم الآخر، لكن... كانوا جميعهم طيبين، لا أذى يُرجى منهم، ولا شيء يدعونا لنخافهم. كانت رِماحُنا وسيوفنا ترتعِشُ بأيدينا، لكننا... كُنا ننفذُ فقط الوصية!»

- ولكن ما تفعلونهُ جريمة...

- جريمة؟! ما معنى جريمة؟!

- أقصد... حسنٌ لا عليك، أكمل:

«الأرضُ امتلأت بدماءِ الغرباء، ذابَت أجسادهم الميتة في تلك الرمال السوداء التي التهمتهم كما لم نرَ من قبل... والشَّيخُ...

الـذي لم يَكُـن شـيخًا وقتهـا... لم يَعُـد مـن رحلتـه. طـال غيابـهُ، لم نتوقـف عـن تنفيـذِ الوصيـة، شيءٌ مـا أخـذَ يتغـيَّرُ بنـا... لا لا يـا سـيدي... لم يَكُـن الأسـود... لقـد كانـت ألواننـا الأصليـة تَشِـفُّ... لم نَكُـن نعلـمُ وقتهـا أن تلـك كانـت التحذيـرات الأولى للَّعنـةِ السـوداء. اختفـت ألواننـا، وكُلـما توافـد إلينـا غريـبٌ جديـدٌ، كُنـا نذبَحـهُ تلقائيًّـا، لم نعـد ننظـرُ إلى وجوههـم كـما اعتدنـا أن نفعـل... مُجَـرَّدونَ مـن أي عقـلٍ، نَذبَحهـم ونـترُكُ دماءهـم للرمـال تتشرَّبُهـا، وأجسـادهم لتأكلهـا... كانـت الأرضُ تـزدادُ شراسـةً، تنمـو لهـا أسـنانٌ وأنيـابٌ شـائكةٌ، بينـما، تختفـي ألواننـا بالكامل، حتـى صرنا نُشـبِهُ بعضنـا تمامًـا... مجرديـنَ مـن الرحمـة... مُجَرَّديـنَ مـن الألـوان...!»

توقف القزمُ عن الحَكي، بكى بكاء شديدًا...

للمـرة الألـف يـرى «آسـن» السـائل الشـفاف الغريـب، ينهمـرُ بِغـزارةٍ مـن عَينَـيْ مخلـوقٍ آخـر...

انهـارَ الأقـزامُ الحاملـينَ للعـرشِ المتنقـل، قالـوا للآسـن إن تلـك الحكايـة لم يحكوهـا لأحـدٍ مـن الملـوكِ قبلـهُ، لا أحـد منهـم كان يهتـم، إذ كان حَكْيُهـا اليـوم ألمًـا كبـيرًا، يجعلهـم يُفَكِّـرونَ في تلـك الوصيـة اللعينـة. ربـتَ «آسِـنُ» عـلى كَتِـف القـزم الـراوي، هـدَّأَ مـن روعـهِ، طمأنـه بـأن مـا يقولـه أو يقولونـه جميعًـا لـن يخـرجَ مـن تلـك الدائـرة.

- ولكن، ما سبب اللون الأسود... لم أفهم بعد؟

ردَّ قـزمٌ آخـر: «لأننـا لم نَنتَـهِ عـما اعتدنـا عليـه، لم نتَّعِـظ يـا سـيدي... حتـى أتانـا غريبـان آخـران. كانـا أغـرب مـن أتونـا، أكثرهـم جـدلًا...»

- مَن؟!... كيفَ كانا؟!

«رجـلٌ وامـرأة... رجـلٌ يـرددُ كلامًا لم نفهمـه، يقـول إنـه كلامُ القدير... كنَّـا نضربـهُ بالسـياطِ حتـى يُخبرنـا عـن هـذا القديـر الـذي يتحـدث عنـه،

نُجبرهُ على أن يأتينا به، فيقول إنه بالأعلى... وامرأة لم نرَ في جمالها مخلوقًا، كانت تفوحُ منها رائحةُ الرُّمَّان، أسالَت لعاب كُل من بالقرية، اشتهَتها كُل امرأةٍ قبلَ الرِّجال. كانا يبحثانِ عن أحدٍ... عن صديقٍ، كما قالا... لَمَّا آذَيناهما بِشِدَّةٍ كي يتكلما، قالت المرأةُ ذاتُ النهدَينِ الممتلئينِ إنهما يبحثانِ عن رجلٍ كان سيتزوجها، وبأن ما تحملهُ ببطنها ابنه، وإن هذا الرجل بصحبتها هو صديقهُ الوحيد. لقد كانا يرجواننا أن نُساعدهما، لكننا يا سيدي كما قال صديقي كُنا قد اعتدنا على ذبحِ الغرباء... لكن هذه المرَّة... كان من بيننا قزمٌ قبيحٌ، مُشَوَّه، من الحرَّاس... اشتهى المرأة».

اضطربَ قلبُ «آسن»... دبَّت الدماءُ بجسدهِ، تندفعُ لتزيدهُ وهجًا. شَعَرَ بشعورٍ شنيعٍ، مقرفٍ، للمرةِ الأولى يغزوه... ليست برودة، ولا خوفًا، ليسَ غضبًا، ولا كُرهًا... شعورٌ زادهُ سوءًا ذلك الشيء الغبي الذي نبتَ خلفَ ضلوعهِ بسببِ «شمس». حافظَ على هدوئه، حدج القزم الذي يحكي بنظرةٍ قاسيةٍ، أمرهُ بأن يُكمل:

«أنا آسف يا سيدي... آسف... دعني أكمل لك. لقد... كانت المرأة بديعة، كانت تتحدثُ إلى الأقزام وتستنجدُ بهم ليبحثوا عن ذاك الذي تقول بأنه زوجها، لكنَّهم كانوا يتفحصونَ جسدها، يلتهمونَهُ بأعينهم، لم يَعوا من حديثها شيئًا، حتى صرخَت بهم، رَكَلَت أحدهم ببطنه... ركلت القزم القبيح. قامَ يصيحُ بها، يتألم من ركلتها، أرادَ أن يضربها، حتى سَمِعَ ذاك الرجل الآخر الذي أتى معها يقول: «القدير يعلم، القدير يرى... القدير أقربُ إليكَ منكَ فاحذر بَطشَهُ». تلك الكلمات أثارت غضب القزم القبيح أكثر، جذبَ الرجل من قدمَيهِ يَجُرُّهُ على الرمال السوداء، التي نبتت أنيابها تنتظرُ جسدًا جديدًا. كانت المرأة تصرخ، حتى أمسكَ القزمُ القبيح بِحَجَرٍ ضخمٍ، انهالَ بِهِ على

ساقِ الرجل يُهَشِّمُها... يتلذذ بصراخهِ وتألُّمِهِ، والمرأة تصرخُ... تترجَّاهُ أن يتوقف... والرجل الذي... ارتوت الرمال السوداء بدمائهِ... كان يُردد: «يا آسن... يا صديقي... أينَ أنت؟!... الناسُ بالبلدةِ يرقصون، وعن الألوانِ وصاحب الحَكَايا يبحثون... يا جميلَ العينَينِ يا من رأيتَ في الظلام حياة... لقد أصابَ مَرَضُكَ ابن الأخ الحنون، ليرقص بجنون... فخَرَجَ من كانوا بالأقفاصِ وبالسجونِ يبيتون... وكُتِبَ على كُل من مارَسَ البهجة «ليسَ بِمَجنون»...»

ما زِلتُ يا سيدي الأحمر أذكرُ تلك الكلمات، ما زلتُ على يقينٍ من أن كُل من شَهِدَ ذلك اليوم قد حَفِظها جيدًا... إذ إن الرجل لم يتوقف عن ترديدها وتكرارها، بينما هشَّمَ القزمُ القبيح عظامهُ بالكامل، فَظَلَّ يزحفُ على بطنه ويُكرر كلمات القدير هذا... حتى كانت آخر ضربةٍ على رأسِهِ... هَشَّمَته.

علا صراخُ المرأة ذات النهدَينِ الكبيرَين، وكان القزمُ القبيحُ قد فَرغَ من الرجل، هَروَلَ نحوها يريد أن ينقَض عليها. أوقفناهُ، جميعنا، لكنه حدجنا بنظرةٍ نعرفها جيدًا، كأنه يقول: «كلنا شركاء في ذلك، وتلك الوصية»... نعم... ربما كنا ننفذ وصية، لكنها تقتضي بأن نذبحَ فقط... لكن ما فعله القزم كان...»

– كان ماذا؟... ماذا فعل؟!!

«أمسكَ بالمرأة التي بالكاد كانت تتحرك، مزقَ ثيابها، فتبَدَّى لنا بطنها... الذي كان... كان منتفخًا! كانت تبكي وتصرخ، حتى خفتَ صراخها... قالت: «لا تؤذوا طفلي، لا ذنبَ له»... لكن القزم القبيح لم يتوقف عما كان يفعله، كان يهتكُ فَرْجَها بلا رحمةٍ، وكنَّا فَزعين، نراقبهُ مذعورين، وكُلما تقدمَ أحدُنا لإيقافه كان ينظرُ لأعيننا جميعًا ويصيح:

«لا... ليسَ اليوم يا حثالة الأرض... لا تدعوا الكرامة... لقد كنا معًا منذ البداية... ننفذ الوصية... وأنا من سينفذها اليوم، ألا يحق لي؟!!... لا تدعوا البراءة الآن، كلنا متشابهون، كلنا فقدنا ألواننا... إياكم أن تقتربوا!!»...

كانت تصرخُ، بينما يَدُقُّ هو رمحَهُ المُنتصبَ، يلهثُ، يريدُ أن يُنهي ما بدأهُ قبل أن يذبحها... وكُنَّا نشاهد... البلدة بأكملها تشاهد... نساؤنا تُشاهد... أطفالنا يشاهدون... كنا يومها نعلمُ بأن شيئًا خاطئًا يحدث، لا ندري ما هو... لكننا فقط اكتفينا بالمشاهدة..».

بَكى القزمُ الراوي، بَكى جميعُ الحاملينَ للعرش أمام «آسن»، حتى استكمَلَ قزمٌ آخر، قائلًا:

«وأنا.. أنا يا سيدي أيضًا كنتُ أشاهد، ترتجفُ قدماي، لم أشعر هكذا من قبل... ولكني شاهدتُ أيضًا الأقزام من حولي، الذين يتفرَّجون، كان الأسودُ قد بدأ يطلي جلودهم... نظرتُ إلى يدَيَّ، كانتا قد اسودَّتا، كان اللون الأسود بدأ يتسللُ إلى أجسادنا، كنا نبكي بكاء شديدًا على حال المرأةِ الجميلةِ، لكننا بكينا أكثر لما صرخَ القزمُ القبيح وهو يضربُ بطنها... كانت تُداري بطنها المنتفخ بيديها، تقول: «أرجوكم، لا تؤذوا ابني»... ويقول القزم القبيح: «هذا ابنك؟!... ابنكِ هذا يزعجني»... كان يضربُ ويركلُ بطنها المنتفخ وهي تصرخ، أطفالنا يصرخون... وكلما اقتربنا، كان القبيح يصيحُ فينا بألا نُعَرقِلهُ وإلا سيُخبِرُ شيخنا عند عودتهِ بأننا لم ننفذ الوصية... حتى... توقفت المرأةُ عن الصراخ... ماتت.

وقتها فقط، كان اللون الأسود قد أغرقَ بقاع أجسادنا كلها، لو بَحَثت عن بقعةٍ يا سيدي ما وجدت فيها إلا أسود... حتى صرنا...

مـرة أخـرى... نشـبهُ بعضنـا تمامًـا... كلنـا أسـود... لقـد أخرسـتنا الصدمـة... ومـا أخرسـنا للأبـد هـو أن الغريبَـيْن لم يُذبحـا... قَتَلنـا غَريبَـيْنِ بـلا داعٍ... قتلناهمـا قبـلَ تنفيـذِ الوصيـة».

«آسـنُ»... الـذي اشـتعلَ مـن داخلـهِ عنـدَ سـماعِ تلـك القصـة... صرخَ بأعـلى صوتـهِ، حتـى أفـزعَ الطيـور عـلى النخيـل، وأيقَـظَ الأقـزام السـود بالبيـوتِ الحجريـة والأكـواخِ البدائيـة، فَخَرَجـوا يُسرِعـونَ إلى الصـوتِ المتـألم. قَفَـزَ مـن العـرشِ المحمـولِ عـلى القـزم الـراوي، يَخنـق رقبتـهُ القصـيرة السـمينة بِيَـدٍ وحيـدةٍ قابضـةٍ، تأبـى أن تتركـه حتـى يَلفـظ أنفاسَـه. الحـراس الأقـزام يتقدمـونَ لمحاولـةِ فـض الاشـتباك، لكنهـم يتذكـرون أن المَلِـكَ لا يجـب منعـهُ مـن شيء، يبتعـدون تاركينـه ينهـال بالـضربِ والصَّفـعِ عـلى وجـهِ وجسـد القـزم الـراوي، والأخـير يبكـي ويُـردد بـألمٍ:

«أنـا آسـف... أنـا آسـف... أنـا آسـف... لم أقصـد إغضابـك يـا سـيِّدي الأحمـر... أنـا آسـف... أنـا آسـف»

«آسـن» يـصرخ، يـزأرُ و هـو ينظـرُ إلى السـماء، لونـهُ الأحمـر يتوهـج، قلبـهُ الجديـد النَّابِـت يضطـرب، مشـاهِدُ البِئـر والمحرقـة، الظـلام الدامِـس والشـعلات المرتعِشـة، البحـيرة المقدسـة والشـيوخ الاثنـي عـشر، «الأخ الحنـون» وبلـد الرُّمَّـان... جميعهـا تتخبـط بعقلـهِ المُشَـوَّش، يلتفـت ليجـد الشـيخ البديـن وقـد افْتَـحَّ لونـهُ أكثـر، حتـى صـار غريبًـا عنهـم، يربـتُ عـلى كتفـهِ، يُهَـدِّئ مـن روعـهِ، ينظـرُ للآسـنِ الغاضـب ويقـول:

– هذا وطنك... انسَ الماضي، أنتَ هنا مَلِك... تَفعَل ما تشاء.

ثم، اقتربَ أكثر من أذنِ «آسن»، يَهمِسُ بها...

– هنا... يُمكننا أنا وأنت أن نحكم...

***

(٢٨)

على منصَّةٍ حجريةٍ، مُزَيَّنَةٍ بأوراقِ نخيلٍ سوداء، وأحجارٍ خلَّابةِ الألوان، جلسَ «آسنُ» والشيخ يجاورهُ. خلفهما وحولهما حشدٌ كبيرٌ من أهل البلدة، أقزامٌ سودٌ تتباينُ أعمارهم وأشكالهم. ساحةٌ رمليةٌ فسيحةٌ، تتوسَّطُ البلدة، حيثُ يجتمعُ أهلها بأوامرِ الشَّيخ البدين كُل فترة، تُقامُ هناك مراسِم «تَعظيم الغريب الحاكم»... هكذا أطلقوا عليها. في تلك المراسم، تُقالُ الأشعار وتُقَدَّم رقصاتٌ خاصة للترحيبِ بالغريب الذي شابَهَ الصخرة السوداء العطرة على ضفة النَّهر، وتم اختيارهُ للحكم بمفارقةٍ قدريةٍ مع صخرةٍ مباركةٍ. «آسنُ» يتأمل أولئك القوم، الذينَ لا يعلمون، حتى هذه اللحظة، أنه هو ذاك الذي أتى من بلد الرُّمَّان، ذاك الذي أتى الاثنانِ يبحثانِ عنه. يتأملهم بوجهٍ حزينٍ، يشوبهُ شيءٌ من الرهبة، قتلوا أهلهُ، ويحتفلونَ به قائدًا... لكنه هدأ... وكان يهدأ دائمًا... كلما وقعَ بصرهُ على نُدبةٍ من تلك الندوب على جسده... الندوب التي حكَت ولا تزال تحكي عن تاريخه مع بلدته، عن أولئك الذين يحزنُ عليهم الآن وهُم أكثر من آذوه. ينظرُ إلى النُّدوب بباطن قدمَيه، ليتذَكَّر تلك «الرُّمَّانة» التي عرضَت عليه الزواج، ولما رفض، صاحت تَسُبَّهُ أمام أهل البيت الذي كان أصفر، فضربوه وألقوا عليه الزجاج فكسروه عليه وجرحوه، ليركض هاربًا،

يدوسُ على ما تبقى من زجاجِ فيرسم تلك الخريطة البديعة من النُّدوب على قدمَيه. يتذَكَّر صديقَهُ «ودود»، الذي بكى مما فعله به القزمُ القبيح... لكنه سرعان ما ينظرُ إلى مُلْكِهِ الآن... يبتسم، ويفكر...

- وماذا فعلَ لي صديقي الودود، وكتابه الذي ما نَفَعهُ عندما قُتِل؟!... الآن يُصَدِّقني؟!... بعد أن طردوني من بلدتي؟!... الآن يبحثون عن الألوان؟!... بلدتي طردتني شر طردة والآن تبحثُ عني؟!... ولكن... بلدتي؟!... أي بلدة؟! أنا لم أرَهَا بلدتي منذ اليوم الأول... لم تَكُن كذلك، ربما كُنتُ أنا فقط من بَحَثَ في المكان الخاطئ... بلدي هنا، حيثُ أستحِق أن أحكم... وطني هنا.

قَطَعَ شرودهُ في الماضي أبواقٌ ذات صوتٍ غريبٍ، ليسَت كأبواق بلدِ الرُّمَّان. أصواتها تنعر، عالية، يضطربُ لها قلبهُ. انتبهَ للأقزام الذين نزلوا الساحة، الشيخُ البدين يلكزهُ بِكَتِفِهِ ويوَجِّه بصرهُ إلى العرضِ. أخذَت الأقزام تُرَتِّل الأشعار في كُلِّ جزءٍ من جسدِ المَلِك... فهذا القزمُ النحيلُ يَصِفُ قوةَ جَسَدِ الآسن المفتول، يُعَظِّم من شأنهِ وجبروته... وذاك القزمُ الأقصرُ بينهم يسردُ القصص والحَكَايا عن تلك الذراع الواحدة، يتلو للمُتَفَرِّجين عن معركةٍ وهميةٍ، ابتدعها أمامَ ذهولٍ من «آسن»...

«وإنه يا سادة... كان في خضمِ عراكٍ مع عمالِيق الغرباء... يعيشُ على ضِفَّةِ النَّهرِ الأخرى التي لا نجرُؤ على تَخَطِّيها- نحنُ الأقزام الضِّعاف- وإلا قُتِلنا... سيِّدنا وحاكمنا الأحمر العظيم، الذي تركَ بلدتنا لفترة، باحثًا عن الأخضر، يعود إلينا، يُعارِكُ الوحوشَ التي قطَعَ أحدها ذراعه، تلك الذراع التي حملَت دِرع النخيل العظيم المنحوت من حجارةِ السَّلام. فَقَدَ ذراعهُ في حربٍ ضاريةٍ، مدافعًا عن بلدتنا... لكنه أبى الاستسلام، ضربَ بالذراعِ الأخرى حتى اقتلعَ الرِّقابَ وأسالَ الدِّماء... فلتمجِّدوا حاكمنا»

تعالت أصواتُ الهتافِ والتمجيد، بينما يرمقهم «آسن» بنظرةِ ذهول. الحكاية أعجبتهُ، تبدو أكثرَ إقناعًا مما حدثَ من أهلِ الدَّابَّةِ و«الأبيض العظيم»... تبدو أوقَع... يبتسمُ في سخريةٍ، الأقزام لديهم قدرةٌ لافِتةٌ على صُنعِ حاكم حقيقي... حاكم كـ«الأخ الحنون»، أو «الأبيض العظيم»... الأقزام رائعون...

ينظرُ إلى الشَّيخ البديـن الذي قد ابتعدَ لونهُ تمامًا عن الأسود، حتى ما عاد يُشبِههم. يرى بِعَينَيهِ المُصَوَّبَتَينِ إليه كُل شيء... يرى بأنه يعلمُ أن أمر الحُكمِ والجلوس على العرشِ قد أعجَبَهُ، يرى بأن هذا الشَّيخ يَعلَمُ ما لا يعلمهُ الأقزام، ولهذا تَغَيَّرَ لونهُ. قام أحدُ الأقزامِ على السَّاحة ببعضِ الرسومِ على الرمال السوداء، يستخدمُ رُمحًا يحفرُ به خطوطًا على الرمال. اكتملَت الرسوم، كانت كخَريطةٍ مُكَبَّرةٍ، بدأ القزمُ يحكي ويبتَهل...

«لَّما عادَ مَلِكُنَا الأحمر المَهيب من حَربِ الضِّفَّةِ الطاحنة، وجدنا على جسدهِ تلك الخطوط المحفورة والخنادق تملأُ بقاعَه... تأمَّلناها... نَقَلناها إليكم ها هنا... لِتَشهَدوا عَظَمَة الرحلة التي قام بها المَلِكُ الجبار... كُل نُدبةٍ أوجِدَت على هذا الجسدِ المُقاتل، تحكي عن موقفٍ وحربٍ خاضها للدفاعِ عنَّا...».

كان «آسن» يزداد انبهارًا بأولئك الأقزام، وبالحياة الرغيدة التي لم يَعتَدها من قبل. يستمعُ إلى حكاياتِ الاحتفال، يقِفُ ليروي لهم بعضًا من رحلته، وحينما يبدأ الحديث عن البحيرة المقدسة والأحجار الملونة التي فَتَّحَ عينَيهِ عليها أول ما وُلِد... يُغَيِّر الشيخ البدين الحديث... يدعوهُ ليأكل من المأدبة المقامة على شرفه، وأن ينسى ما مضى. سأله «آسِن» على غفلةٍ، بينما كانوا يَهُمُّون بالرحيل...

– سَمِعتُ يا شَيخ أن الحاكم الذي جاء قبلي قد ذُبِحَ...

– مَن قال لَك هذا؟!

– إياكَ أن تكذِب، وإلا أمرتهم بتقطيعكَ إربًا كما فعلوا معه... إذا كُنتُ سأحكمُ بحق، فعليَّ أن أعرف كل شيء.

ارتاب الشيخ، ابتَلَعَ ريقَهُ بصعوبةٍ، بينما يراقبهُ «آسن» الذي كان ينتظرُ إجابة...

– ماذا أقولُ لك؟... أنا لا أفهمك... أنتَ تسأل كثيرًا، من جاءوا قبلكَ لا يسألون، لكن، إذا كان هذا سَيُريحُك... فلتعلم أنه ذُبِحَ لأنَّهُ ارتكبَ فعلةً شنعاء...

– شنعاء؟!!... أتقصد أسوأ مما فعله الأقزام؟!... أسوأ من الوصية؟!

– مَن أخبركَ بهذا؟!

– لا يهِم!!... أكملْ وإلا أمرتهم أن يفعلوا معكَ مثلما فعلوا بالغريبَيْن الأخيرَيْن...

اعتَلَى القلقُ وجه الشَّيخ، حتى لاحقه «آسن» قبل أن يَرُد...

– أنسيت أنني أعلمُ ما بين الأحمر والأخضر؟!

ازدادَ قلقهُ، أجابهُ باقتضابٍ:

«لقد... أرادَ هذا الحاكم الخبيث أن... أن يُحَطِّمَ الصخرةَ السوداء العطرة!!... يومها، سمعنا طرقًا مُدَوِيًّا أيقَظَ أقزام البلدة... خرجنا من أكواخنا وبيوتنا... وجدنا اللعين يضربُ الصخرةَ بِحَجَرٍ صَلدٍ، يحاولُ أن يَشُقَّها»..

- ولماذا عساهُ أن يفعلَ ذلك؟

- اسألهُ هو... لا تسألني... لقد منعناهُ بالقوة، وما كان منا سوى أن نمنع تلك الجريمة!!

كان الجميعُ ينظرونَ للآسن، ينتظرونَ رَدَّهُ على كلامِ الشيخ الذي ابتسمَ بِخُبثٍ. امتنعَ «آسن» عن الرد، اكتفى بالأكل حتى أبدى شَهِيَّةً مفتوحةً فاجأت الجميع، يلتهِمُ كُل ما وُجِدَ على الطاولة العريضة، يتجنَّبُ النظرَ إلى الأقزام، بينما ما زالت بضعُ نظراتِ ريبةٍ وتَشَكُّكٍ تُصَوَّبُ تجاه الشيخ الخبيث... حتى أتاهُ أحد الأقزام، يَتَسَوَّلُ منهُ قِرشًا، وكانت عُملةُ البلدة من الأحجار الصغيرة. ألقى «آسنُ» إليه بواحدةٍ رخيصةٍ، نظرَ إليهِ القِزمُ وعيناهُ تدمعانِ، قال: «هذا لا يَكفيني حتى لأطعِمَ ولَدَيَّ». تذكَّرَ «آسنُ» بلدَ الرُّمَّان، تذكر عملات النقود التي نُقِشَ عليها «مَجِّدِ القدير»، وكيفَ أن تلك الكلمات كانت تُعِينُ أكثر الناسِ فقرًا على الصَّبرِ، لكنه تذكر أيضًا، أن أولئكَ الأقزام لم يتعرفوا على «القدير» عندما أخبرهم بِهِ «ودود»... نظرَ إلى الشَّيخ الذي لم يتوقف بعدُ عن تلك النظرات الخبيثة...

- اسمع... ابدأ من الغَدِ بِنَقْشِ تلك الكلمات على كُل الأحجار النقدية... اكتب «مَجِّدوني أنا، مَجِّدوا الأحمر العظيم»

❊ ❊ ❊

(٢٩)

في الجولـةِ الصباحيـة المعتـادة، أصر «آسـنُ» عـلى التجـولِ وحيـدًا، كلـما هَـمَّ الأقـزام يرفعونَـهُ ليضعـوه عـلى العـرشِ كان ينهـالُ عليهـم بالشـتائم، يلعنهـم ويلعـن ضعفهـم وذُلَّهُـم. الأقـزام يُذَكِّرونـهُ بأهـل الرُّمَّـان، كلاهمـا ارتـضى بالظـلام، ظـلامِ الفضيحـة وظـلامِ العـار... كلاهمـا ظـلام... كلاهمـا ضـلال. مهـما حاولـوا رَفعَـهُ عـلى العـرشِ المتحَـرِّك، ينـزل منـه قائـلًا: «أليـسَ لديكـم مـا تقومـونَ بـه هنـا سـواي؟!!... فارقـوني... اتركـوني أتجـوَّل، أود أن أرى معـالم مَملَكَتـي بنفسي... أنسيتم أنِّي مـن أعلـمُ مـا بـين الأحمـرِ والأخـضر؟!، لـن يؤذينـي شيء!». كانـوا يـردونَ بأنهـا أوامـر الشـيخ، فيَهتـاجُ «آسـن»، يركلهـم بقَدَمَيـه، يُكَسِّـرُ الأشـياءَ مـن حوله ببيتـه الجديـد... يصيـح: «أنـا هنـا مـن يَحكـم»... ثـم تَذَكَّـر أمـرًا... هَـدَّأ مـن ثورتـهِ، وطلـبَ مُرافقـة اثنَـينِ مـن الأقـزامِ الحُـرَّاس... أحدهمـا كان القـزم الـراوي الـذي كاد أن يقتلـهُ خنقًـا.

خرجـا مـن البيـت الكبـير، يتحسسـانِ طريقهـما عـبرَ سـلالم صخريـة غـير مسـتويةٍ، نـزولًا إلى أرضٍ مـن الرمـالِ السـوداء، تـكادُ تُكَشِّرُ عـن أسـنانها الشَّـوكِيَّة. يتأمَّـل «آسـن» زمـرة مـن الأقـزامِ يعملـونَ في باحَـةِ البيـت، ينقلـونَ أحجـارًا كبـيرةً ويضعونهـا في مـكانٍ آخـر غـيرَ مكانهـا، مـا إن ينتهـوا مـن نقلهـا، حتـى يحملونهـا مـن مكانهـا الجديـد ليُعيدوهـا إلى المـكان القديم.

- قُل لي... لماذا أمركم من قبلي بهذا العمل؟

- ليسَ من المُفترضِ أن نسأل يا سيدي الأحمر

- ولكن، ألا تتعبون؟!... ألا تُفَكرونَ حتى فيما تقومونَ به؟

- كُل حاكم يأتينا ويُشبِهُ الصَّخرة السوداء العطرة عليهِ أن يأمرَ ويُطاع... لقد أمرنا حاكمنا الأسبق بذلك العمل الشاق لما بدأنا نسأل..

- تسألون عن ماذا؟

قَرَّبَ القزمُ الراوي فَمَهُ من «آسن»، همس...

- نسألُ عن المسكوت عنه...

نظرةُ الرعبِ على وجوههم بادية، يتبادلونها بينَ بعضهم البعض، حتى يُكمل القزم الآخر...

- عندما بدأنا نسأل عن أمرِ الصخرة، عندما رمى أحدنا بِسؤالٍ عما يجعل شكل الصخرة يتغير...!

أمَرَهُما «آسن» باصطحابهِ إلى ضفَّةِ النَّهرِ، إلى حيثُ الصخرة. أسرعوا قبلَ أن يعرفَ الشيخُ بأمرهم، والقزمُ الراوي لم يَكُف عن الاعتذارِ لـ«آسن» عن ذاك اليوم عندما أغضبه. سامحهُ الحاكم الأحمر، على أن يُجيبهُ هو وزميله عن أي شيء.

الصخرة السوداء، لا تزالُ رائحةُ الأخشابِ العطرة تفوحُ منها، تدفعُ بالآسنِ للاقتراب واستنشاقِ تلكَ الرُّوحِ العَطِرة. قال القزمُ الراوي لـ«آسن» إن الحاكم الأسبق كان يفعلُ تمامًا مثلما يفعل، يتقَرَّب إلى الصخرة بِهيام، يحتضنها، يتحسسها كأنما يَحفَظ تفاصيلها بأناملهِ، يستنشِقُ عطرها، يبتسمُ طويلًا... لكنهُ ما يلبث أن ينظر للسماءِ كثيفةِ الغيومِ بالأعلى...

حتى يبكي، يَغسِلُ وجهَهُ الضوء البرتقالي الضئيل المُنْسَلُّ من بقايا الشمس، ثم يسري على جسدِهِ المُستَطيل الضخم ليرسم ملامحهُ، فيبدو مُشابهًا تمامًا لشكلِ الصخرة التي كانت مُستَطيلة. توقف القزمُ عن الحكي، بينما، أشارَ إلى سَفحِ جَبَلٍ مُجاوِرٍ للنهرِ. اطَّلَعَ عليهِ «آسن»، ليقرأ القزمُ الآخر السؤال بالعينَينِ الحمراوَينِ، ويُجيب...

– من هُنا يا سيدي... انجَرَفَ سيلٌ من الصخورِ أتت راكضة من أعلى الجبل. لا نعلمُ سببًا لها، ولم يَكُن زلزال وقتها، فقط، سَمِعنا الصخور والحجارة تتدحرجُ بِسُرعةٍ كبيرةٍ على الجبل، كأنَّها تعرِفُ وجهتها... إلى النَّهر!

– وماذا حدث؟!

– تقافزَت الحجارة والصخورِ بالنهرِ، لكنها كانت تتلاحَمُ بالصَّخرةِ السوداءِ العطرة، تضرِبُها هُنا وهُناك، تَخدِشُها تارة، وتُهَشِّمُ قِطَعًا منها تارة أخرى، حتى كان سيلُ الصخورِ والأحجار قد انصَبَّ كُلُّهُ بالنهر... يسبَحُ الخفيف منها باتجاهِ التيار، بينما يَغرَقُ الثقيل بالقاع...

«آسنُ» يستمِعُ إلى حديثِ القزم، بينما يتحسس الصخرة السوداء. لا تزالُ علامات الخدوشِ والقِطَعِ المُتَحَطِّمة ظاهرة، طرأ ببالهِ أن يسألهم عن الشيخ...

– ولكن أخبروني، إلى أينَ ذَهَبَ شيخكم خارج البلدة؟... وماذا حدثَ لِلَونِهِ؟!

– أمرهُ غريب... كما أخبرتُكَ يا سيدي الأحمر كان قد جمعَ المؤَنَ لِرِحلةٍ طويلةٍ، يبحثُ فيها عن بلدٍ آخر لم تُلَوَّث بعدُ بِلَعنةِ الدماء، وكُنَّا طوال غيابهِ نُنَفِّذُ وصيتهُ... لكنهُ عندما عاد... كان الكثيرُ قد تَغَيَّر بِهِ!!

- كيف؟!... تقصِد لونهُ؟

- اللـون لم يَكُـن أغـرب شيء... كان قـد افتَـحَّ لونـه... لكـن تلـك الأشـياء التـي قـام بِفعلهـا هـي مـا زادت هـروب الأسـود منـه... لقـد كان يحمِـلُ صُحُفًـا وجريـدَ نَخـلٍ مرسـومًا عليهـا أشـكال لم نفهمهـا... وألواحًـا وصفائـحَ حَجَرِيـةً منقوشًـا عليهـا ذات الأشـكال الصغـيرة، التـي علمنـا فيـما بَعـد أن اسـمها حـروف!!... وأن الحـروف تُشَـكِّل كلـمات، والكلـمات تُشَـكِّل جُمَـلًا. كان يحمِـلُ الكثـير الكثـير منهـا، بـل ربـما مـلأ بهـا المركـب الـذي كان يتنقـل بـه عـبرَ البـلاد. لم يـأتِ بِبضائـع كـما أخبرنـا قبـلَ سَـفَرِهِ، قايَـضَ كُل شيءٍ مـن خـيرات وكنـوز حملهـا معـه مـن بلدتنـا بتلـك الصفائح والحجـارة والجريـد. كُنَّـا نُلاحِظـهُ كثـيرًا ينعـزِلُ عـن الجميـع، ينظـرُ ويُدَقِّـقُ فـتراتٍ طويلـةً بتلـك الكلـمات والجُمَـل، نسـألهُ، فَيُجيـب بأنـه «يَقـرأ»!!... لم نفهـم الكَلِمـة، ولم نَعـرِف أبـدًا مـا تعنيـه تلـك الرسـوم أو الكلـمات كـما يُسَـمِّيها... لكنـه كان يفعلهـا عـلى الـدوام، وكلـما أنهـى صفيحـةً أو جريـدة كُلـما افْتَـحَّ لونُـهُ أكثـر ونمَـتَ لـه تلـك اللحيـة البيضـاء. كان يَعمَـلُ أشـياء يُسَـمِّيها «جـداول حسـابية»، يَحسِـبُ منهـا كُل المعامـلات التجاريـة، لم يَكُـن بِوسـعِ أحـدٍ أن يَسـرِقَ قرشًـا واحـدًا، حتـى الغربـاء الذيـن يأتـون لِتبـادلِ البضائـع، كان حكيـمًا للغايـة معهـم.

قاطعهُ «آسن»:

- مهلًا... وماذا عن أمرِ الصخرة؟!!

- هـو مـن أخبرنـا بهـا... تلـك الصَّخـرة لم تَكُـن بهـذا الشَّـكل... لم تَكُـن هُنـاك صَخـرة عـلى الضِّفـة!!... حدثَ زِلـزالٌ عظيـمٌ، أسـقَطَ أحـد الجبلَين... نسـيتُ إخبـارك يـا سـيدي الأحمـر... آسـف يـا سـيدي الأحمـر... هـذا الجبـل كان يُجـاورهُ جبـلٌ أصغَـر، عندمـا قـام الزلـزال ارتَجَّـت الأرض السـوداء، حتـى دَكَّـت الجبـل الأصغـر تمامًـا كأنـه لم يَكُـن... الجبـل كانَ أسـود!!...

كُل ما تَبَقى منه ظاهرًا هو تلك الصخرة السوداء التي كانت أطول وأضخم وقتها. تدحرجت حتى استَقَرَّت بِسُكُونِ الزلزالِ على ضِفَّةِ النهر. كانت واقِفة، شامِخة، ومن هنا، أتى الشَّيخُ الذي، كان يعلمُ أكثر منَّا، بتلك الفكرة...!!

- إن الصخرة العطرة هي الحَكَم في اختيارِ الحاكم...

- هو قال ذلك... وقد أرانا ذلك في الكلمات المكتوبة على الجريد والصَّفائح والألواح...

تأمَّلَ «آسنُ» حال القِزمَينِ، المذهولَينِ من سكوتِهِ. نظرَ حولَهُ، إلى مجموعةٍ أخرى من الأقزام، يمارسونَ عملهم المعتاد، حيثُ حملِ الحجارة صارَ بلا أدنى جهدٍ. ينظرُ إلى الجبلِ والصخرةِ والنَّهر، ينظرُ إلى حالهِ... وإلى تلك البلدةِ البائسة... تَتَسَوَّلُ الضّوءَ البرتقالي بالسماءِ، وترضى بِمُجَرَّدِ الفُتات منه... بلدةٌ ذليلة... لا تَستَحِقُّ عناءَ الحُكْمِ.

نَدَت منه ابتسامَة ساخرة، يُوَجِّهُ سؤالًا للقِزمِ الراوي...

- تقول إذن... إن الشَّيخَ قد أراكُم أمرَ الصَّخرةِ على تلك الألواح..

- نعم، لقد رأينا الكلمات... تَرَكَنا جميعًا نتَفَحَّصُ... قال: هنا يوجد كُل شيء، انظروا إن كُنتم لا تصدقوني...

انقَلَبَت ابتسامَتُهُ نَهرًا مُتَفَجِّرًا جاريًا من الضَّحِك، استلقى على الأرضِ يضحَكُ، لا يضَبْطِ نَفسَهِ. لم يَسَعهُم سوى مراقبته، حتى تزايَدَت أعدادُ من سَمِعوا ضَحِكاتِهِ المُجلجِلة، تَجمهَروا حولَه يرمقونَهُ بنظراتِ التَّعَجُّب، بينما كان الآسِنُ يضحَكُ ويُرَدِّد:

- ولكنَّكُم لا تَقرأون...!!

❋ ❋ ❋

(٣٠)

«إذن... كان يَعلَم!!...»

الأقـزام يحملـون الحجـارة، يلهثـونَ عَطِشـينَ إلى شربـةِ مـاءٍ مـن النَّهـرِ. يحملونهـا مـن أمـامِ بيـتِ الشَّـيخ إلى الضِّفـةِ، حيـثُ الصَّخـرةِ السـوداء العطـرة، التـي قاربَـت عـلى التَّحَـوُّلِ لِشَـكلها الجديـد بعـد أن ضَرَبَـت الريـاح المُحَمَّلَـة بالرمـالِ والحجـارة الأرض السـوداء. ريـاحٌ عاتيـة، رآهـا الأقـزامُ بأعـلى الجَبَـل، تَـضرِبُ بـلا سُـلطان كُل مـا يعـترضُ طريقهـا، تَحمِـلُ أطنانًـا مـن الحجـارةِ المُفَتَّتَـة التـي تسـبَحُ بِجوفهـا. كُلٌّ لَـزَمَ كوخَـهُ، قبـلَ أن تُسَـاويه الريـاحُ الغاضبـة بـالأرض... التَـزَمَ آخـرون بالغـارِ، اتَّخَـذوهُ مأمنًـا، بينـما كان الآسـنُ ينظـرُ بِعَينَـينِ قَلِقَتَـينِ إلى الريـح التـي أخـذت تُهَيـئ الحاكـم الجديـد، تنحِـتُ بِرَوِيَّـةٍ وعشـوائِيةٍ جَسَـدَهُ عـلى الصَّخـرةِ السـوداء، تَخـدِشُ وتَكـسرُ فيهـا، والأقـزامُ يَسـجدونَ لِتِلـك الريـاح التـي أرسـلتها السَّـماء الكَظيمـة... يَعلمـونَ بـأن نهايـةَ الآسِـنِ قـد اقتربَـت.

«آسـن» يختبـئ بالغـار، يبحَـثُ فيمـن حولـهُ عـن الشَّـيخ. يسـأل الأقـزام السـاجدين، يُخبرونـهُ بـأن في أوقـاتٍ كهـذه يتقَـرَّبُ الشَّـيخُ إلى السـماء، يطلـعُ لهـا راجيًـا أن تَقبَـلَ رَقصَتَـهُ لِتَتَوَقَّـف. قالـت زوجـةُ أحـد الأقـزام: «السـماء إذا غضبـت، انتقمـت... لا بـد مـن أننـا أغضبناهـا...

لا بد من أنك أنت أيضًا يا سيدي الأحمر أغضبتها، فأرادت أن تأتي بِغَريبٍ جديدٍ يَحكُمنا».

تأمَّلها «آسن»، تبدو واثقةً من حديثها. قال: «ولكنني لم أُؤْذِ أحدكم»... ردَّت الزوجة: «و لكنَّكَ لم تأمرنا بِمهام نعملها، كالسَّابقين... من العار يا سيدي أن نظل في حُكمِكَ نَحمِلُ الحِجارة لنضعها بِمواضِع أخرى... من العار أنك تركتنا نَعمَل ما أمَرَنَا بِهِ حاكمٌ قديم... السماء غَضِبَت منا جميعًا، في السابِق كانت رسائلها تأتي دونَ إيذاءِ أهل البلدة... الآن جَرَّدَتنا من أكواخنا وقتلت من أبنائِنا... في السابق كانت السماء تكتفي بِتَغيير الحاكم فحسب، أما اليوم... حتما قد أخطأنا بِشيءٍ فعاقبتنا أيضًا»...

تَدَخَّلَ زوجها مُقاطعًا حديثها، أخرَسَها بِصَرامَةٍ بينما كانَ يُقَبِّلُ قَدَمَي «آسِن»، يرجوهُ ألا يغضب من زوجته الحامل وألا يُؤاخذها على اندفاعها. تأسَّفَ على حال البلدة السوداء، حَذَّرَ «آسِن» من الأيام المُقبِلة، قال إنه لم يَرَ من السَّيِّدِ الأحمر العظيم سوى طيبة القلبِ والكثير من الحكايات عن العالمِ خارجِ البلدة... قال بأن القزم الراوي، الذي كان يُرافِقُه في كُل رحلة بالبلدة، سَمِعَ منه كُل كلمة، سَمِعَ ونَقَلَ للأقزامِ عن المحرقةِ العظيمة وعن البئر... سَمِعَ من السيد الأحمر عن أرضِ المروج، عن الأحجار المُلَوَّنة، عن القرصِ المُلتَهِب الكامِل بالأعلى، المُسَمَّى بالـ«شَّمسِ». قال الزَّوج: «سيدي الأحمر، لقد بحثنا بَعدَ حِكاياتِك عما بينَ الأحمرِ والأخضر... بحثنا عن تلك الحجارةِ الملوَّنة... لقد صدقناك، ولكننا... ما وجدنا أحمر ولا أخضر... لو كان الأمرُ بِيَدِنا، لأردناكَ معنا إلى الأبد... لكنها الصخرة...»

صاح «آسنُ» بِهِم:

- ولكنها صخرة!!... أنتم من رَضِيتم بها، وصدَّقتم قِصَّتَها... اسمعوا يا قوم، لا داعي للاستمرار هكذا، ألَستُ حاكمكم؟!... ألم تُصَدِّقوني من قبل في حكاياتي عن الألوان؟!...

- تقول هذا الآن... لأنَّكَ قاربتَ على الرَّحيل!

قالها أحدُ الأقزام، مُنزَوِيًا عن المجموعة، مُتَرَبِّعًا بِزاوِيةٍ مُظلِمةٍ في الغار. قالها مُقاطعًا الآسِن، علا صوتهُ ليَسمَع الجميع، بينما عَوِيلُ الرِّياح بالخارج لم يَهدأ بَعد...

- كُلّهم يقولون كلامًا كهذا حينما يَقتَرِبُ مَوعِدُهُم... حتى سَيِّد الألوان ها هُنا يُكَرِّرُها... لا تأمَل أن يُصَدِّقُكَ أحد... هنا يا سَيِّد أقلَعنا عن تَصديق أي شيء... كِدتُ أصَدِّقُك... حقًّا كِدتُ أفعل... لكنِّي تساءَلت، أتَذَكَّرْ هذا الغريب الآن ما يَبحَثُ عنه؟!!... أحقًّا ما زال يَذكُر؟!!... لقد كان أمامك كُل الوقت لتَهرب وتَبحَث عن ذلك العرَّاف كما تقول، لكنَّكَ نَسيت... شأنُكَ شأن كُل الغرباء الذين سَبَقوكَ إلى هُنا!!... الآن تتذَكَّر الألوان؟!

كان «آسِنُ» يقتربُ بِحَذَرٍ من القِزم الذي أخذَ يقولُ كلامًا لم يَسمَع مِثلَهُ من الآخرين، يَتَعَرَّف على ملامحِهِ التي ليسَت بِغَريبة عن زملائِه، استوقَفَهُ لونُ القِزم الذي... بدا أفتَح بِقَليل من الأسود... يُحمِلِقُ بِالسَّيدِ الأحمر، يقرأُ ذهولَهُ ويَفهَم ما يرمي إليه...

- أنتَ... أنتَ مُختَلِف... قرأتَ من الألواحِ والصُّحُف؟

- لا، شأني شأنهم، لا نقرأ... لكنَّ بعض الأمورِ يا سَيِّد الألوان لا تحتاجُ إلى ألواحٍ وصُحُف..

- اسمَع، أنا...

– أنتَ نَسِيت... كُلُّنا ننسى، لكن أرجوك يا هذا، لا تُخبرنا عن حُلمِكَ الآن... لا تُخبِرنا عن مسعاك... لو كُنتُ مكانك لتَرَكتُ كُل شيء وهَرَبت... بِكَرامةٍ... قبلَ أن تُحَدِّد مصيري سماء عبثية، وصخرةٌ لا حول لها ولا قوة، وقومٌ لا يَفقَهون سِوَى اللونِ الأسود..

هدأت الرياحُ عن النَّحيب، إلا من وشوشاتٍ مُتَقَطِّعةٍ. «آسِنُ» يُلقي نظرةً أخيرةً على الأقزام الذين قاموا من السجودِ يبتَهلون للسماء أن ترحَمهم. يسألهم عن مكان الشَّيخِ مرة أخرى، يَرُد القِزم الأفتَح لونًا بأنه لا يزالُ على قِمَّةِ الجَبَل... يؤدي رقصةَ الغُفران. هَمَّ الآسِنُ بالرَّحيل، كانوا يستوقفونهُ، يسألونَ عن وِجهَتِهِ، أخبَرَهُم بأن الرِّياح حينما ضَرَبَت بِعُنف، أرعَبَهُ صوتها... ولكن ما جَعَلهُ يَختَبِرُ شعورًا جديدًا... هو عندما تَذَكَّر أمر الصخرة... كان خوفًا... لكنه لم يَكُن ذلك الخوف كما كان في أرضِ الدَّابَّة... كانَ شيئًا آخر... كان يخشى أن يفقد شيئًا... وهو ما جعلهُ يبتسِم لهم، يخرجُ من الغارِ ناظرًا لأعلى الجبل...

– سامحوني...

الجَبَلُ شامِخٌ، صخورهُ عجوزٌ، مُجَعَّدةٌ، تَحتَضِنُ آلاف الحكايات، تحمِلُ تاريخَ الأرضِ التي جابَ أطرافها «آسن». يتأمَّل الصَّخرة، التي كانت لها ذراعٌ واحدةٌ تمتَدُّ داعيةً للأعلى... اختَفَت... صارت صخرةً بلا ذراع. ابتَسَمَ ساخرًا، تَلَمَّسَ موضِع الذراع اليسرى المقطوعة، تأمَّل ندوبَهُ المُوَزَّعة على بقاع جسده، يتلَمَّسُها، يَشعُرُ بالهواءِ من حولِهِ... يتحَسَّس الفراغ... الفراغات... يُفَكِّر... في تلك الفراغات التي قَطَعها منذ طَرْدِهِ من البِئر...

ربما هي مُجَرَّدُ فراغات...

نملأها، كي نَشعُر بالرِّضا...

نَقطَعُها، كي نَختَصِر مسافات بيننا وبينَ مصائرنا...

يُحَلِّقُ بِعَينَيه الحمراوَيْنِ، الذَّابِلَتَينِ، نحوَ قِمَّةِ الجَبَل. يَستَعِد للصعود، تاركًا كُل شيءٍ بالأسفَل، يبحَثُ من جديدٍ عن الألوان، يبحَثُ عن العرَّاف، الذي يعلَمُ الماضي ويصنَعُ الحاضر، فَيُعَلِّمهُ كيفَ يرى ما بين الأحمر والأخضر... ويعرفُ هويتهُ لَمَّا يرى المُستَقبَل...

«آسن» الذي تَعِبَ من الرَّحيل، تَعِبَ من البَحثِ... يتسَلَّقُ الجَبَلَ بِذِراعٍ يَتيمةٍ. يسقط، فيبحَثُ عن تجعيدةٍ يدب بها أصابعه، وعن أخدودٍ أو شَرخٍ تستنجِدُ بِهَ قدماهُ، فيَغرِزهُما ويتسَلَّق. تتساقَطُ الحِجارةُ الحادة على ظهرِهِ وكَتِفَيهِ، تبحَثُ عن فراغٍ جديدٍ على صفحةِ ذلك الجَسد المُزدَحِم بالندوب... فلا تَجِد فراغًا... تَنهالُ عليهِ من الأعلى، تَفتحُ نُدوبًا قديمةً، تُحيلها جروحًا، تَسقي بِدمائها الجَبَلَ العجوز. الآسِنُ يُجاهِدُ الصعود، والأصابِعُ الخَمس اهترأت من قساوةِ الجبل، لم تَعُد قادرة على التَّسَلُّقِ أكثر. يستلقي بِكَهفٍ صَغيرٍ محفورٍ بِباطِنِ الجبل، ينتَصِفُ المسافة للأعلى. يلتقط أنفاسهُ بصعوبة، بينما بَدَت البلدة من الأعلى أصغَرَ مما ظَن. يرى نِصفَها بِوُضوحٍ تام، تَحُدُّها الرمالُ الصفراء التي آذَى صفارها عينَيْهِ سابِقًا، والنَّهرُ يَمرقُ مُلامِسًا لها. يَخرجُ من الكَهفِ المُعَلَّق، يُكمِلُ الصعود... الصعودُ قاسٍ بِذراعٍ واحدةٍ... يتذَكَّر ما فعله المُلَوَّنون بتلك الذراع... يصرخ... يصرخ... يصرخ...تتقَطَّع حنجرَتُهُ حتى تتألم... يخبط رأسهُ بالجبل، لا يَنسى... لا شيء يُمحى من ذاكرته... وذلك القلب النابِت خلفَ ضلوعهِ يُضِيق صدرهُ، يُعَرقِلُ كُل شيء..

- لم أكُن هكذا من قبل!!... ماذا حدثَ لي؟!!

على الأرضِ السوداء، لم يَرَ «آسِن» نهارًا مُكتَمِلًا، مُبهِجًا... ولا ليلًا كامِل البهاءِ بِعباءتِهِ المُظلِمة. على الأرضِ السوداء لا شيء يَحكُم الوقت سوى عدد الغرباء الذين يَجيئون ويذهبون، وصعودُ الجَبَلِ طال، لا يَدري كَم من الوقتِ قد مَر. سَمِعَ صوتَ الشَّيخ، يتعالى كُلما اقتربَ من الصعود. ابتَهَج، تسارَعَت خطواته الصاعِدة، لم يَعبأ بألمِ أصابعِهِ المُتَقطِّعة، قدماهُ بالكادِ حملتاهُ باقي الخُطُوات.

على القمة، كان الشَّيخُ عريانَ، مُتَهَدِّل البَطن، فارِدًا ذراعَيهِ على الجَنبَينِ وإلى الأعلى، يُرَفرِفُ بِهدوءٍ، يحاوِلُ الطَيَران. يدورُ في دوراناتٍ سريعةٍ، حتى يتعَب، فيُبطِئ، ناظِرًا للسماء التي لا تَبتَهِج. يرتمي أرضًا، يسجد، يطلبُ من السَّماءِ أن تَهب البلدةَ حاكمًا جديدًا يليقُ بها، يدعوها بأن تَرْحَمهُ وتَقبَل رَقصَتَهُ، يدورُ من جديدٍ في دوراناتٍ عِدَّة... وقد قارَبَ صفاءُ لونِهِ على الأبيَض، حتى صارَ غريبًا عن أهلِ البلدة...

تَوَقَّف...

شَعَرَ بِوجودِ الآسِن...

ابتَسَم، قبلَ أن يُديرَ وجهَهُ إلَيه...

- أنتَ لا تَخاف..

- لماذا كَذِبت؟

- رأيتُهُ في عَينَيك، المُتَّقِدَتَينِ بالجَمرِ..

- كان يَعلَم، أليسَ كذلك؟!!

- أنتَ لا تخاف... تَقلَق، على الدوام... لَكنَّكَ لا تَخشى شيئًا..

- كان يَعلَم أن موعِدهُ قد شارَف... لم يَكُن يُدَمِّرُ قُدسِيَّةَ الصَّخرة... كان يُدَمِّرُ كذبَتَك!

– بـل كان يعـرفُ أكثـرَ ممـا ينبغـي... جميعكـم تأتـونَ إلى هُنـا حُثالـة، تهربـونَ مـن كُل شيء، تبحثـونَ عـن أشـياء لا يمكنكـم أن تنالوهـا...

– كان يَعلَمُ أن الصَّخرة ستتغَيَّر، وسَيَرحَلُ كالبَقيَّة!

– لقـد أراد الخلـود... بعـد كُل مـا فعلتـهُ مـن أجلـهِ ومـن سَـبَقوه... لم يَكتَـفِ بِزَمانِـهِ، أخَـلَّ بالاتفـاق، طمـعَ بِـكُلِّ شيء... هـل أنـا مُذنِـبٌ لأني لا أخِـل باتفاقـي أبـدًا؟!!

– أردتهـم مِثلـك... يذبحـون ويَـرْوُونَ الأرضَ بالدمـاء... ينفـذونَ وصيـةً كاذِبـةً!!

– ابـن العاهـرة، تَسَـلَّلَ إلى مخبئـي، قَـرَأَ صفائحـي وألواحـي، ابـن العاهـرة، الأسـود، الـذي كان قـد قـاربَ أن يُشـبِهَهُم، صـارَ يَـرى ويَعـي مِثـلي... وقتهـا فقـط بـدأ يبكـي كُلـما يَـرى الصَّخـرة... بـات يَعلَـم مـا ينتَظِـره... صدقنـي يـا هـذا، الأمـرُ يسـتلزِمُ فقـط أن تَعـي..

البلـدةُ مـن الأعـلى، دائِـرةٌ صغيـرةٌ، تَحـوي قومًـا يُتقِنـونَ حَمْـلَ الحِجـارةِ عـلى الـدوام. السـماءُ لا تُـوَزِّعُ سـعادةً مَجَّانِيـةً، الوقـتُ ذائِـبٌ عـلى تلـك الأرض، تُمحَـى كُل معانيـه مـع كُل غريـبٍ جديـدٍ يَصنَـعُ منـهُ الشَّـيخُ حاكمًا، وتؤَيِّـدهُ الصَّخـرة، وتَدعَمـهُ الريـاحُ الشَّرِسـة والـزلازِلُ الجبَّـارة. «آسِـنُ» يَمسَـحُ الأراضي بالأسـفل بِعَينَيـه، صفـارُ الرِّمـالِ الفسـيحة لا يَشـوبهُ سـوى بُقعـةِ البلـدة السـوداء، والنَّهـرُ خَـطٌّ أبيـض يُلامِسـها، يَشُـقُّ طريقَـهُ لاهِثًـا نحـوَ غُربَـةٍ جديـدةٍ... حتـى يُدَقِّـقَ النَّظَـرَ إلى وجهَتِـهِ... يـرى نهايتهـا... تَصُـبُّ في بُقعَـةِ أرضٍ لم يَـرَ للونهـا مثيـلًا... لـونٌ تَمتَـزِجُ فيـه الألـوانَ بأصفَـر الرِّمـال، تنصَهِـرُ درجاتهـا، تَـذوبُ الفواصِـلُ بـينَ فروقهـا، يُشـعِلُ أسـخَنُها أبرَدَهـا، ويُطفـئ أبردهـا أكثرهـا اشـتعالًا ووهجًـا... هُنـاك، حيـثُ ينتهـي النَّهـر.

– ولكنَّها صخرة... مُجَرَّدُ صخرةٍ، حتى لو كان قد دَمَّرَها لأتيتَ بِغَيرها!!

– صخرة؟!!... مُجَرَّدُ صخرة؟!... استَغرَقتُ عُمرًا بأكمله لإقناعِ أولئك الحمقى المَعزولين عما رأيتُ وسَمِعتُ بِرِحلَتي... كُل تلك الدِّماء التي سَقَت الأرض، كُل أولئك الذين التَهَمَتْهُم الرمال السوداء مَذبوحِين... أتظن أن هذا سهل؟!... فَلتَحتَرِق البلدة بالكامل... لقد ضاعَ عُمري بهذا الهراء أيها الغبي!!... أظَنَنتَ حقًّا بأنَّكَ تعلَم ما بينَ الأحمر والأخضر؟!!

أشارَ الشَّيخُ إلى تلك الأرضِ الترابية ذات الألوان الذائبة، من أعلى الجبل...

– هُناك، سَتَجِدُ من تَبحَثُ عنه...

نظرَ إليه، ساخِرًا، قبلَ أن يُغادِرهُ نزولًا إلى البلدة، يستَعِدُّ للغريبِ الجديد...

– لو أرَدتُكَ مَيتًا، لَدَفَعتُكَ من أعلى الجَبَل، وسيأتي غَيرُك... هُم دائِمًا يأتون، لا يَرَوْنَ ولا يُجادِلون، ولكن أنت!!... أنا حقًّا أُشفِقُ عليكَ يا فتى... أنتَ تُثِيرُ قَرَفي!

❋ ❋ ❋

«ترابي»

(٣١)

النهـرُ راكِـدٌ، يأبـى أن يرافقـهُ قـارب الآسِـن. تَسَـطَّحَت مياهُـهُ، خَلَـت مـن الأمـواجِ الصغـيرة، و الأقـزام يدفَعـونَ بالقـارِب نحـوَ وِجهَـةِ الأرضِ الترابيـة. الشَّـيخُ يُراقِـبُ الحاكـم الأحمـر يرحَـلُ بعيـدًا، وزُمـرةٌ مـن الأقـزامِ يكتمـونَ الدَّمـع، يتهَيَّـأون لغريـبٍ جديـدٍ، قصـير القامـة تمامًـا مثـل الصخـرة السـوداء التـي قَـصُرَت قامتهـا. الشَّـيخُ الـذي كان بانتظـارِ تلـك اللحظـة، كان يَحـتَرق مـن الداخـل، تتفَجَّـرُ بِجَوفِـهِ مائَـةُ شَـمسٍ حارقـةٍ، لهيبهـا يطفَـحُ بالأحمَـرِ عـلى جِلـدِ وجهـهِ الـذي بـاتَ أبيَـضَ مـن اللَّبَـن. يُتابِـعُ «آسـنَ» ينـزوي بعيـدًا بِقارِبِـهِ، تـاركًا لـه تلـك المُعضِلـة... حيـثُ صـارت الصَّخـرة قصـيرة القامـة تُشـابِهُ تمامًـا... ظَـنَّ أن الوقـت قـد حـان لِيَحكُـم أهـل البلـدة... حتـى تَأمَّـلَ لونَـهُ الـذي مـا عـاد يَمُـت للأسـود بِصِلـةٍ... فيغضَـبُ... وينتَظِـرُ غريبًـا آخـر.

«آسِـن» يُجَـدِّفُ بذراعِـهِ الواحِـدة، ينحَـرِفُ القـارِبُ عِـدة مـراتٍ عـن المسـار، يتخَبَّـطُ بالضِفَّـةِ اليُمنـى. يُسَـيطِرُ «آسـن» عـلى غضبـهُ، لا تُفارِقـهُ صـورةُ البلـدة السـوداء. الأقـزام كانـوا الأبـرع في سردِ الحكايـات، الأقـزام أعطـوا لِـكُل نُدبَـةٍ عـلى جَسَـدهِ المُهـانِ مَعْنَـى... الأقـزام سـيفعلونَ ذات الـشيء مـع غريـبٍ جديـدٍ وينسـونَ أمـرَ الحاكـم الأحمـر. يؤنِّـبُ نفسَـهُ عـلى تلـك المُزحـة، التـي صدقهـا أكثـر منهـم... إنـه حقًّـا الحاكـم الأحمـر،

الـذي يعلـمُ مـا بـينَ الأحمـرِ والأخـضر... كان ينعتهـم طـوال فـترةِ حكمـهِ بالمسـاكين، الذيـنَ يَتسَـوَّلونَ الشـفقة مـن السـماء فَتُعطيهـم مـا لا يكفيهـم مـن الضـوء البرتقـالي الباهـت... ويَتَسَـوَّلونَ الحُكـمَ والـذُّل مـن غربـاء لا يَمتُّـونَ بِصِلـةٍ لبلدتهـم... لكنـهُ سُرعـان مـا يبتسـم، يقـول: «ربـما كُنـتُ أنـا المسـكين هنـا... أنـا مـن أتسَـوَّلُ الاهتـمام منهـم... أنـا مـن أرَدتُ أن أشـعر لِـرَّةٍ واحـدة أننـي... أستَحِق!».

القـارِبُ يتباطـأ، ميـاهُ النَّهـرِ ثقيلـةٌ، بـاردة، تُعَرقِـلُ الآسـن عـن بلـوغِ الأرضِ الترابيَّـة. الغيـومُ بالأعـلى تنسَـحِبُ مـن المَشـهَد، يـرى الآسِـنُ، بِعَينَـينِ لم تَخلُـوان بعـدُ مـن الدهشـةِ، ضـوءًا أشـدَّ وهجًـا مـن تلـكَ الشَّـمسِ عـلى أرضِ المـروج، يَخـتَرِقُ السـحابات فـوقَ الأرضِ الترابيـة، يُذيبُهـا، يُخلِي السـماءَ مـن الضَّبـاب، يُعَـرِّي زُرقَتَهـا ويَكشِـفُ عـن صفائهـا. ينتصِـبُ «آسـن» واقفًـا، يُجَـدِّفُ بأقـصى مـا مَلَكَـت ذراعُـهُ المُتعَبـة، يهـربُ مـن الرمـالِ الصفـراء عـلى جَنبَـيْ النهـر العجـوز، ينـادي بِصـوتٍ جَهْـوَرِيٍّ:

- يـا عـرَّاف!!... يـا مـن أخرجتنـي مـن كُلِّ أرضٍ باحثًا عـن أسرارِك... أتيتُـكَ مـن بـلادِ الرُّمَّـان... أتَيتُـكَ أبحَـثُ عـن الألـوان... يـا مـن تعـرفُ مـا بـينَ الأحمـر والأخـضر... أصابَنـي أحمَـرُك، فَدُلَّنـي عـلى أخـضَرِك!!

النهـرُ الراكـد، الخامِـل، يأبـى مـن جديـدٍ وصـول الآسِـن. الميـاه تَلَوَّنَت، تُعَكِّرُهـا الأرضُ بالطِّـين كُلـما اقـتربَ القـارِبُ منهـا. يُجَـدِّفُ بِـكُلِّ قـوَّةٍ أوتِيَ بهـا، يُلقـي بالمجـداف ويَقفِـزُ بالنهـر، يـتركُ القـارِب العَـصِيَّ عليـه ويُكمِـل طريقَـهُ سـابِحًا نحـوَ الأرضِ الترابيَّـة.

الطِّـين يُتْخِـمُ المـاء، «آسِـنُ» يُجاهِـدُ للوصـول. يخـرجُ منـهُ، يسـتلقي عـلى شـاطئ طينـيٍّ مـن الألـوانِ المَيتـة، الباهتـة، تتصاعَـدُ منهـا رائحـةُ اللحـمِ النَّيـئ. تسـري حـرارةٌ بِجلـدِهِ، تـزدادُ بِمـرورِ الوقـت، يشـعرُ بأنهـا تتهـاوى عليـهِ مـن الأعـلى، تخـترقُ جلـدهُ المُبَلَّـلَ بـماءِ الطِّـين. يرفَـعُ وجهـهُ للسـماء

التـي كاد يُعمِيـهِ وهَـجُ الضـوءِ الأصفـرِ المُتَشَـبِّعة بِـهِ. خمـس كُـرات حارقـة، مُتباينـةِ الأحجـام، شـموسٌ صارخـةٌ بالأصفـر، تتلـذَّذُ بِحَـرقِ الآسِـن... تَحلِبهُ...فَيَنِـزُّ عَرَقًـا، وظِـلًّا باهِتًـا، سرعـان مـا يتبَـدَّدُ ظلامُـهُ عـلى الأرضِ الترابيَّـةِ الفسـيحة.

يَخطـو «آسـن» عـلى أرضٍ جافَّـةٍ، فرشُـها تـراب، تـزدادُ جفافًـا كُلَّـما ابتَعَـدَ عـن النَّهـرِ، تغزوهـا شـقوقٌ أقسـى، كُلَّـما عَطُشَـت الأرض البَعيـدة عـن ضفَّـةِ النَّهـر. يتَلَفَّـتُ حولَـهُ، تَلهَـثُ عينـاهُ الحمـراوَانِ في المُحيـطِ الشَّاسِـع حولَـهُ. أرضٌ فارِغـة مـن أي شيء، لا هويَّـة لهـا، لا مَلمَـحَ يُستَدَلُّ بِـهِ، ريـاحٌ شَـقِيَّة تلهـو مـن خلفِـهِ، تمـرقُ فجـأة لِتَلفَحَـهُ بأتربـةٍ تلتصِـقُ بالجَسَـدِ المُبَلَّـلِ فَتُجَفِّفهُ.

- يـا عـرَّاف!!... يـا عـالِمَ المـاضي وصانـع الحـاضِر... يـا مـن تَملـك مفاتيـح الأحمـر والأخـضر ومـا بينهـما..!!

صـاح، بِصـوتٍ مكتـومٍ يُحـاولُ الظهـور، يُجـادِلُ صـوت الريـح الـذي تعـالى، كأنهـا تـصرخ. يصيـحُ أكثـر، فيعلـو صوتهـا، تَمنَعـهُ مـن البَـوحِ...

- أظهـر لي نفسَـك... لقـد تَبِعتُـكَ مـن آخِـرِ بـلادِ الكـون... أعلـمُ أنـك تسـمَعني!!

يصيـحُ أعـلى، ورائحـةُ التربـة المُتَشَـقِّقة أسـفل قدمَيـهِ تسـتوطِنُ أنفَـهُ أكثـر، رائحـةُ لحـم نَيـئ يمتـزجُ بالدمـاء... رائحـة يعلمهـا جيـدًا، لَمَّـا أُلقِـيَ بالبِئـرِ أول مـرة، لَمَّـا نَبَتَـت لـه تلـك الكُـرة المُشَـوَّهةُ التـي صـارت أنفًـا... رائحـة اللحـمِ النَّيـئ أثـارت غثيانـه، ذَكَّرَتْـهُ بالظلمـة، بالوحشـة، بالجُثَـثِ التـي كان يدوسـها بالممـرِ المُظلـم الواصِـلِ بـينَ البئـرِ وكهـفِ البُحَـيرةِ المقدسـة. تَقَيَّـأ مـا بِجوفِـه، اسـتلقى عـلى ظهـرِه، يتـألَّمُ مـن الرائحـة، لا يقـدِرُ عـلى النَّظَـرِ إلى السـماءِ التـي كانَ أصفَرُهـا مؤذيًـا. يتقَلَّـبُ عـلى بطنِـهِ، يدفِـنُ وجهَـهُ بـالأرضِ الترابيـة، يشـعُرُ بِراحـةٍ عظيمـةٍ...

تَخبو ولولةُ الرياح، يهدأُ صفيرها...

يسمعُ الآسِنُ صوتًا...

يأتيه من بعيدٍ...

ضَحِكاتٌ رنَّانة، أصواتٌ تتراقَصُ بالجَوِّ لأطفال، بناتٍ وبنين...

أصواتٌ تلهو، تُزَقزِقُ أحيانًا...

ورائحةٌ دافِئة، مُسَكِّرَة، تدفَعُ بالآسِنِ لإخراجِ رأسِهِ من التراب...

البراحُ أمامهُ لا حدودَ له، وكثافَةُ الغبارِ تَحجِبُ الرُّؤية، لم تَخفت بعدُ رُغمَ سكونِ الرياح...

يتَتَبَّعُ الرائحة المُسَكِّرة، يتَّخِذُ من الأصواتِ الطفوليةِ والضَّحِكاتِ الشَّقِية طريقًا يسلُكهُ. يقتَرِب حتى تَغرِزُ قدماهُ، المليئتانِ بالندوب، في عُشبٍ أخضر... تزيحُ الشموس الخمس الغبار بِأضوائِها، لِيَتَجَلَّى كُل شيء...!

❋ ❋ ❋

(٣٢)

الضبابُ الترابيُّ ينقَشِع، الآسِنُ يَسعُل منه، يضَربُ الهواءَ من حولِهِ بذراعِهِ مُحاولًا إزاحةِ الغبار. صوتُ الأطفالِ يتوقَّفُ لِلَحَظات، يقطعهُ صوتٌ جَهْوَرِيٌّ، زئيرٌ مُتَقَطِّع، يبكي، يهدأ للحظاتٍ... تحل مَحَلَّهُ الضحكات الطفولية المائِعة، الخجول... يقطعها من جديدٍ الصوتُ الجهوري، يصرخُ بِألمٍ:

- أخرجوني من هنا!!... أرجوكم!!... لا تتركوني لَهُم!!

كانت ضحكاتُ الأطفال تتعالى أكثر كلما صرخَ الصوتُ بالزَّئير، بينما الآسِنُ الذي كان قد توقف عن المُضِي خُطوة للأمام، يحاولُ استيعاب ما يجري. ينقشعُ الضباب المُغَبَّر، ينسلخ من الجو مُعَرِّيًا قفصًا كبيرًا، قُضبانهُ أسنانٌ معدنيةٌ صَدِئةٌ، يحبِسُ بأحشائِهِ وحشًا يصرخ ويَركُل القُضبان، يَستنجِدُ بِـ«آسِن» فور أن رآه...

- أخرجني من هنا!!... أرجووك!!... آاااااه، لا تتركني، سَيَقتلني أولئك الوحوش!!!

يتأمَّلُ الآسِن، بِعَينَينِ مَرعوبَتَينِ، ذلك المَسخَ الذَّميم الصَّارِخ بالقَفَص...

يتأمَّلُ ذلك الرأس المُدَوَّر، الذي هو عينٌ واحِدةٌ كبيرةٌ، مَفتوحةٌ

عـن آخرهـا، لامِعـةٌ، يَظهَـرُ بِلمعانهـا شَـبَحُ صـورةِ «آسـن» التـي تنظـرُ صوبـهُ مبـاشرةً... تنبـتُ مـن جَنبَيهـا أذنـانِ كبيرتـانِ كالأجنِحـة، وتكسـوها بُقَـعُ شَـعرٍ مَتـوفٍ. يتأمَّـلُ الذراعَـينِ المَهولَتَـينِ في الحجـم والطـول، اليـدانِ اللتـانِ تَسَـلَّحَتا بِمَخالِـبَ تَحتَـكُّ بالقُضبـانِ الحديديـة فَتُوَلِّـدُ شرارًا. يتأمَّـلُ ذلـك المَسـخَ الـذي تنبَثِـقُ مـن عينـهِ الواحـدة أسـنانٌ حـادةٌ، لا يَحويهـا فَـمٌ، كأنَّهـا لِحيـة... وذلـك الجَسَـد العجيـب... الكَـرَويَّ الضَّخـم... يتعَلَّـقُ بِـه ثديـا امـرأةٍ كبـيران، ممتلِئـان... يتـدَلَّى منـهُ عُضـوٌ ذكـرِيٌّ عظيـم، بِحَجـمِ بَقَـرَة...

نَظَـرَ المَسـخُ إلى «آسِـن»، سَـكَتَ للحظـاتٍ، أعيـاهُ الـصراخُ وأهلَـكَ بَدَنَـهُ التخبيـط وركل القُضبـان. أطـالَ النَّظَـرَ إلى الآسِـن، حتـى تعالَـت أصـواتُ الضحـكاتِ الطفوليـة مـرَّة أخـرى، عـاد يـصرخ ويَهـز القَفَـص...

- لا تنظـر إليَّ هكـذا!!... أخرجنـي مـن هنـاااا.... قُلـتُ لـك سـيقتلونني... لا أطيـقُ يومًـا آخـر!!... أتوَسَّـلُ إليـك أيهـا القبيـح!!...

ارتمـى الأحمـرُ عـلى الأرض، جاحِظـةٌ عيناهُ، تعالَـت أصـواتُ الأطفـالِ مـن جديـدٍ، حتـى تَبَدَّلَـت ملامِـحُ المَسـخِ في القَفَـص... ينظـرُ للآسِـنِ مُرتَعِبًـا... يقـول: «هـا قـد أتـوا!!!»...

زُمـرةٌ مـن بنـاتٍ وبنـين، مُتباينـةٌ أعمارهـم، يـأتي أكبرهـم مشـيًا عـلى الأقـدام بينـما يَحبـو صغيرهـم فَيَجْـتَرُّ العُشـبَ. أطفـالٌ وجوههـم ضاحكـة، شـموسٌ صغـيرةٌ تلهـو بالحلـوى والسَّـكاكِرِ المُلَوَّنـة، يُداعِـبُ أكبَرُهُـم أصغرَهـم، يُدَلِّلـونَ الصغـار ويحملونهـم عـن الأرضِ بينـما يتقافـزونَ مـن أيادِيهـم يحاولـونَ الفـرار بِحَـماسٍ. جميعهـم بديعـو الجـمالِ، رَقيقـو الملامـح، بِيْـضُ الألـوانِ تـضرِبُ الحُمـرةُ وجناتهـم، عُـراةٌ إلا مـن بعـضِ أوراقِ شَـجَرٍ كبـيرةٍ مُلَوَّنـةٍ لم يَـرَ «آسـن» مثلـهُ في شـجرِ البـلاد.

تَجَمَّعوا حولَ القَفَصِ، يُشاهِدونَ المَسخ الذي انكَمَشَ حولَ نفسه، يُراقِبُ نظراتهم الضاحكة البريئة، تَذبَحهُ ذبحًا... بينما يقتربُ الآسِنُ منهم... يرى بِعَينَيْ المَسخ رُعبًا واستنجادًا بِهِ. الفتيات الصغيرات، اللاتي كُن يُجاهِدنَ في الوقوفِ على أقدامٍ بدينةٍ ممتلئةٍ، يَتَحَسَّسْنَ الخطوات في المَشْيِ، كُن يتَقَرَّبنَ من الآسِنِ. يَلْمسنَ جِلدهُ المُجَعَّد الجاف، يضحَكنَ من ذلك الغريب الذي يفوقهن طولًا، ينظُرْنَ للأعلى، لِوَجهِهِ، يتعلَّقنَ بِساقَيهِ ويَحتَضِنهُن... يَضحَكْنَ بِخَجَل... بينما تُخرِجُ إحداهُن بعضَ الحلوى المُلَوَّنة تُعطيها له. يَقبَلُ هَدِيَّتَهُن، يتناولُ الحلوى، يُذيبُ سُكَّرُها لسانهُ الجاف لِيَنزِفَ لُعابًا حُلوًا... يَشبَعُ بَطنُهُ الجائع منذُ زمن...

- أخرجني من هنا!!... أو اقتلني... أنهِ عذابي هذا أتوسَّلُ إليك!!

أفزَعَ صُراخُ المَسخِ الأطفال...

تَعَلَّقَت الفتيات بالآسِنِ أكثر...

اقتربَ عددٌ من الأطفال الأقل عمرًا، يَجْبونَ على بطونهم نحو القفص، والمسخُ يرتعِبُ منهم. يضحكونَ بِبراءةٍ، ما إن وصلوا على مشارِفِ مُلامَسَةِ القُضبان حتى مَدُّوا أيادِيهم الصغيرة المُدَوَّرة إلى داخلِ القفص، يفتحوها، ممتلِئة بالحلوى والسَّكاكِر...

يُقَدِّمونها للمَسخِ بِهدوءٍ، يبتسمون ويتحدثونَ بِلُغَةٍ مُدَلَّلةٍ، بِكلماتٍ لا مَعنى لها، أقرَبُ إلى الأصواتِ المُزَقْزِقَة:

- لا أريدُ شيئًا!!... ابتعدوا عني أيتها الوحوش اللعينة!!... أخرجووووني، ارحموني أرجووكم... لا ذنبَ لي!!...

صَرَخَ بِهم، علا زَئيرهُ حتى ارتَجَّت الأرضُ، ارتعبَت ملامِحهم، وتَبَدَّلَت وجوهُ الصغار أمامَ القَفَصِ من الضاحكة إلى السَّاخِطة...

انكَمَشَت... تَبكي وتُزَعِّقُ بِحُزنٍ لأن المَسخ لم يَقبَل هدية الحلوى. كانَ صوتُ بكائهم ونحيبهم يعلو، فَيَسُد المَسخُ أذنَيهِ الكبيرتينِ ويبكي... يصرخُ ويتدَحرَج على الأرضِ...

- صراخهم يقتلني!!... اجعلهم يسكتون يا هذا!!... آاااه!!!

تركت البنات الصغار «آسن»، اقتربنَ بِغَضَبٍ والآخرون، كُل من يمشي على قدمَينِ ومن يزحَف. التفُّوا حولَ القفص، عَملوا دائرةً كبيرةً، أغلقوها بِتَشابُكِ الأيدي، وبدأوا يُغَنُّون، بينما كانت الشُّموسُ الخمسُ بالأعلى تُنعِشُ البُقعة الخضراء من الأرضِ أسفلهم، وتَروِي الأزهار حولهم بالألوانِ أكثر...

- طيري يا عصفورة، فوق، في السحابة... طيري، طيري... طيري، عصفورة في السحابة... طيري... طيري، طيري... عصفورة، عصفورة... جميلة... طيري...

الأكبرُ سِنًّا يُغَنُّونَ ويَلِفّونَ مُتَشابِكِي الأيدِي حول القَفَص، يُكَرِّرونَ ما حَفِظوه فقط من كلمات، يتقافزونَ ويرقصون... بينما جَلَسَ الأصغَر سِنًّا على مؤخراتهم الصغيرة، يُصَفِّقون ويضحكون، تَضيقُ عيونهم الصغيرة اللامعة من الدَّمْعِ، يُغَرِّدونَ بأصواتٍ مَرِحةٍ... المسخُ يصرخ...

يتوقفون عن الدوران، يلتقطونَ الحلوى والسَّكاكِر من الأرضِ، يبتسمونَ بِوَجهِ المَسخِ المَذْعور... يُلقونَ بالحلوى عليه!!...

- توقفوا أرجوكم!!!....

- طيري... طيري... عصفورة سيئة...!!

يتحرَّك بِسُرعةٍ مضطربةٍ بداخلِ القفص، يُرَفْرِفُ بذراعَيهِ

الضخمَتَين، كُلما أصابَتهُ قِطعة حلوى أحرقتهُ... أذابَت من جَسَدِهِ تاركةً حرقًا مؤلمًا يُعَذِّبهُ، فَيُرَفْرِفُ بِذِراعَيهِ أسرع...

- طيري، طيري... طيري في السماء...

- ارحموني أرجوكم... لا أستطيع!!... أنا أحاول!!

- عصفورة سيئة... طيري... طيري...!

يُراقِبُ الآسنُ المَسخَ يتألَّم، لا يَفهَم. يبحَثُ بِعَينَينِ لا تزالانِ ذاهِلَتَينِ، هُناكَ... حيثُ الأرضُ عادت تُرابيةً جافَّةً.... إلا من طريقٍ بدت مخلوطةً بالماءِ فصارَت طِينيَّة! تَرَكَ «آسِنُ» البقعة الخضراء، لم يُفارِق أذنَيهِ صراخُ المَسخِ بالقفص يستنجِدُ بِهِ، راجِيًا ألا يَترُكهُ يومًا واحدًا بذلك الجحيم... لم يُفارق الصراخُ أذنَيهِ حتى كانت قدماهُ قد تلوَّثَتا بالطِّينِ على الطريق الجديد... الذي قادَهُ إلى طِينٍ أكثرَ رطوبةً، تَغرِزُ بِهِ الأقدام، بينما، بدا على جَانِبَيْ الطريق آثارُ أقدامٍ لِطينٍ جاف على الأرضِ الترابية... آثارٌ عديدة، لا حصرَ لها، تتَخَبَّطُ في اتجاهاتها خارج المسار، أحجامُها ومقاساتُها عِدَّة... كأنَّها تَهرِبُ من شيءٍ ما...

تلك الرائِحة...

يَعرِفها...

يَحُكّ أنفَهُ، يضطرِبُ قلبهُ من جديدٍ...

الرائحة لا تزول، تفوحُ حتى التصقَت بجِلدِهِ...

يَلمَحُ بابًا، خشبيًّا عريضًا، واقِفًا وحيدًا في فراغِ الأرض، ينتهي أمامَ عَتَبَتِهِ الطريقُ الطِّينيّ. لا تَحدّهُ حوائِطٌ ولا أسوار، يَتوَقَّف الآسِن أمامهُ. شيءٌ ما يُخبِرهُ بأنه لا يَجِبُ أن يتجاوز ما وراء الباب إلا عبرهُ... يجبُ ألا يتفاداهُ من الجنبَين...

يتحـرك الآســن حــول البــاب، مــا خلفــهُ أراضٍ ترابِيَّــةٌ شاسـعةٌ، ومــا حولَـهُ. يَعـودُ إلى أمـامِ البـاب، يَدفَـعُ إحـدى دفَّتَيـهِ... يتأمَّـل الطريـق الخَفِـيَّ إلى داخِـلِ الفـراغ...

يرتَعِب....

يَفـزَع!! يسـتلقي أرضًـا أمـام البـاب المفتـوح إلى جـوفِ بَهـوٍ فسـيحٍ بِقاعــةٍ مُظلِمــةٍ...

الرائحة، تزداد!!...

يُحاوِل أن يَتَذَكَّرها... يَخطرُ بِبالِهِ الرُّمَّان...

«ليسَت رُمَّانًا...!!»

هكذا قال، يتأمَّل الباب العجيب الواقِف في الفراغ...

يسـتجمِعُ قـواه، يُنـادي بِصـوتٍ خفيـضٍ: «يـا مـن تعـرِفُ مـا بـينَ الأحمــرِ والأخــضر»...

يتجـوَّلُ بِحَـذَرٍ في ظـلامِ البَهْـو، تـاركًا البـابَ مفتوحًـا، يتسـرَّبُ الضـوءُ منـهُ، يُهَيِّـئ لـه طريقًـا مـن نـورٍ...

يَشُلَّهُ صوتٌ بارِدٌ رخيمٌ، يُثلِجُ قدمَيْهِ ويُرعِشُ يَدَيْهِ، يسألهُ...

- لماذا تأخَّرْت...؟

❊ ❊ ❊

(٣٣)

بـرودةٌ تتـسَرَّبُ إلى أرضيـةِ البَهـوِ المُظلِـم، تُثلِـجُ قَدَمَـيْ «آسـن». البـاب الـذي دخـلَ منـهُ مـا زال مفتوحًـا، يهتـدي بالنُّـورِ القـادم عـبرَهُ، يَحفِـرُ في الظـلامِ نَفَقًـا نورانيًّـا لِبـابٍ آخـر، يـراهُ الآسِـن ويركـضُ نحـوهُ. يضطـربُ القلـبُ النابِـت خلـف ضلوعِـهِ، القلـبُ الـذي كان سـببًا في كُل تَـرَدُّدٍ وُضِـعَ فيـهِ منـذ أن نَبَـت... القلـبُ الـذي كانَ سـببًا في خوفِـهِ وذُعـرِه. يركـضُ هاربًـا عـبرَ النفـق النـوراني في الظـلام، صـوبَ بوابـةٍ خشـبيةٍ، بعيـدةٍ. يطرقُهـا، لا أحـد يُجيـب، يطـرقُ أقـوى...

تنفتح، على غُرفةٍ فسيحةٍ...

لا سَقفَ لها...

غُرفـةٌ كالوِعـاء الكبـير، تملأهـا الشَّـمسُ نـورًا، والسَّـماءُ الزرقـاء الصافِية تعلوهـا، لا حِجـابَ بينهما...

ورجلٌ طويلٌ، يتَّخِذُ من منتصفِ الغُرفَةِ مَوقِفًا...

يُديـرُ ظهـرهُ للبـاب، لا شـائِبة تشـوبُ الجِلبـاب الأبيـض الناصِـع الـذي يَكسـو جَسَـدَهُ العَفِـيَّ.

يقـتربُ الآسِـنُ، تَغـرِزُ قَدَمـاهُ بالطِّـين، الذي عـادَ من جديـدٍ... يمـلأُ أرضَ الغُرفَـةِ الفسـيحة. تُلَـوِّنُ الشـمسُ بالأعـلى، الجِلبـاب الأبيـض بالأصفـر...

تَشِفُّ قُماشَهُ عن جَسَدٍ غريبٍ أسفلهُ، جسدٌ غامِق، أسود، بينما الرأسُ أصلع لامع، والوجهُ أبيض، فاتح. ناداهُ «آسن»، لم يَستَجِب، اكتفى بإيماءةٍ باليَد. كان يَفعَلُ شيئًا بِيَدَيهِ، على منضدةٍ أمامهُ، يَكبِشُ بِيَدٍ من الطِّينِ بالأرض، يضعها على المنضدة، يعجِنُها بِيَدَيهِ عجنًا.

– لماذا تأخرت...؟!

لم يَرُد «آسن»، اقترب بِحَذَرٍ من الرجل الذي لم يتوقف عن عَجْنِ الطِّين على المنضدة. التَفَّ حولهُ يتفَقَّدهُ، بينما الآخر ساكِنٌ لا يلتفت. العينانِ البارِدتانِ على الوجهِ الأبيض المُشرِق، اللحية البُنِّية المُمَشَّطة التي تنتهي عند صدرٍ قويٍّ منحوتٍ، الرأسُ الأصلع صحراء ناعمة تَدهِنُ سَطحِها آثارُ الشَّمسِ... كُلها علامات حاولَ الآسِنُ قراءتها.

– قُلتُ له، إنِّي أقدِر... قالَ لي: ليسَ بِهَيِّن...

نطقَ الرجل من جديدٍ، كَرر تلك الكلمات التي حاول «آسن» أن يستفسرهُ عن معناها، لم يُعِرهُ اهتمامًا.

– أنتَ... ولكنَّكَ... لستَ عرافًا!... لا تُشبِه العرَّافين ممن رأيتهم في بلدتنا!

لم يَرُد الرجل، اكتفى بِنَظرَةٍ باردةٍ، لا يهتزُّ بها جفنٌ ولا يُحَرِّك لها حاجِبًا. النظرة أخافَت «آسن»، وجهٌ ملامحهُ بلا مَلمَح، حركاتهُ كأنَّها السكون ذاته. يجاهِدُ لِقراءةِ وجهِهِ، غيرُ قادرٍ على اقتناصِ ابتسامةٍ منهُ أو غضب... لا يُمكنهُ التنبُّؤ بأفعاله. يشعُرُ بِحالَتَينِ متناقِضَتَينِ، الطمأنينة والاضطراب، السكينة والزوبعة، القسوة واللِّين... الأحمر والأخضر.

– أنا الصَّانِع... انتَظَرتُك... جميعهم يأتون سَعيًا، لا يتأخرون...

– أنا...

– كانَ من المُفترَضِ أن تَصِلَني قبلَ أيام... لماذا تأخَّرت؟

الصوتُ البارِد يُقَشْعِرُ بَدَنَ «آسن» الجاف، تصطكّ أسنانُهُ، تطوفُ بِجَسَدِهِ رجفةٌ دامَت لِثوانٍ...

– بَحَثتُ عنكَ طويلًا... سألتُ عنك كُل من قابلتهم، جميعهم قالوا...

– أنتَ أغبى مخلوقٍ مَشَى على تلك الأرض... لا عَجَبَ في أنَّكَ تركتَ كُل شيءٍ خلفَك... تركتَ الوطن، الزوجة، الهوِيَّة والحَبيبة... تَرَكتَ المُلكَ والجاه...

– ولكن... كيفَ عَرَفت؟!

– لا أحد يَصِلُ إلى هُنا، إلا إن تَخَلَّى... لا أحد يصِلُ إلَيَّ إلا إن تَرَكَ وراءهُ كُل شيء... لكنَّها لَسَابِقة أن يأتِيني من تَخَلَّى أيضًا عن عقلِه...

الطِّينُ بينَ يَدَيهِ القَويَّتَينِ، طويلةِ الأصابِع، باتَ عَجينًا، يُقَطِّرُ عليهِ من ماءٍ بِقِدرٍ خشبِيٍّ أسفل المنضدة، يَعجِنُ من جديدٍ، بينما يُراقِبهُ الآسِنُ مذعورًا.

– ولكنِّي... بَحَثتُ عنك... تركتُ كُل شيءٍ لأنِّي بَحَثتُ عنك... لدي الكثير لأسألك بِشأنِه، لقد تَعِبتُ من البَحثِ يا من تعلم ما بينَ الأحمر والأخضر... تَعِبْتُ من وحشةِ الظلام... لا أبحَثُ عن وطنٍ وعَودة، ولكنِّي أنْهكتُ، لا أوَد المُضِيَّ أكثر... أنتَ من تعلَم الماضي، وتَصنَع الحاضِر، فعَلِّمني كيفَ أرى مُستَقبَلي... لأنِّي تَعِبتُ من البَحثِ...

– أنا لَستُ «هو»... لم أعلَم قط ما بينَ الأحمرِ والأخضر، مهما اجتَهَدت... لا تسألني عن ماضي، فماضِيَّ غير ماضيك، لن يُهِمُّكَ أن تَعرِف... ولا تسألني عن حاضِر، فالحاضِرُ ها هُنا أمامك، شخصٌ

آسِـنٌ بِـذِراعٍ مبتـورةٍ وأخـرى يتيمـة بائِسـة، يعتريـهِ البـؤسُ وتَنهَـشُ عِظامَـهُ الغُربَـة، يرسـمُ الزمـنُ نُدوبَـهُ عـلى جَسَـدِه حتـى أهلَكَـهُ وأفقَـدَهُ هُوِيَّتَـهُ، الحـاضِرُ أمامـي هـا هُنـا، تائِـهٌ آخـر يأتينـي، يطلـبُ منِّـي إصـلاح عاهاتِـهِ، كأنِّي أنـا مـن تسـببتُ بهـا... أنـا لسـتُ «هـو» لأعلـم مـا بـينَ الأحمـرِ والأخـضر... ولكـن... يمكننـي أن أعلِّمُـكَ المُستَقبَل... هـذا... إن اسـتَطَعتَ أن تَلحَقـهُ!

❊ ❊ ❊

(٣٤)

أنا لستُ ذاك الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر... أنا لستُ «هو»...

أرى بِعَينَيكَ الحمراوَينِ الكثير، أرى بِهِما الرَّيبة مما أقول... ألمَحُ شَبَحَ الأملِ بِهِما... الأمل الذي يتبقى دائمًا وأبدًا بِعيونِ كُل من أتوا إلى تلك الغرفة... يتخَلَّونَ عن كُل ما مَلَكوا، يَظَل فقط الأمل. هُنا لا سَقفَ يحمي من مطر... ولكن... لا مَطَر يهطل. هُنا لا سَقفَ من نورِ الحقيقةِ يَستُر... تراها تَصُبُّ بالغُرفة... جَلِيٌّ أمري، لا أختبئ... أنتظرُ تائهًا جديدًا... لكنَّ الذينَ يُشبِهونَك يُثيرونَ حنقي.

سامِحني إن كُنتُ خيَّبتُ ظنَّك يا أحمر العينَينِ... أو لا تُسامِح... لَستَ في وضعٍ يسمحُ لك باختيار. لكن اسمع، سأتلو عليكَ من أمري، سأتلو عليكَ من أمرِ الطِّينِ في الغُرفة... وبعدها... سأعَلِّمُكَ كيفَ تَرى مُستَقبَلَك. الأمرُ هَيِّن، أبسَطُ من الموت، أبسَطُ من إزهاقِ روح، كُنتُ أخبِرهُم بأن المستقبل بسيط، فَيَكون. كُنتُ أقول: «هو أبسط من أن تفهموا»... يبكون ويُقَبِّلونَ قدمَيَّ الشَّريفتَينِ... وأعيُنُهُم لا تزالُ تحمِلُ ذاك الشيء... الأمل.

أنا «الصَّانِع»...

الذي يَعجِنُ الطِّين...

أنا الصَّانِع...

الذي يَعمَلُ من الطِّينِ كهيئةِ العجين، يصهِرهُ بينَ أصابع ماهرةٍ...

يضعُ فيهِ من ماءِ النَّهرِ...

يَبصقُ فيه...

يَعجِن...

لِيَصْنَع...

لا تنظر إليَّ هكذا وإلا أحرقتك...

أتعلم؟!... صياغة الطينِ ليسَت بالأمرِ المُعجِز. نعم، هذا ما حاولتُ أن أخبرهُ بِهِ. قُلتُ له: «ولكن يُمكنني أن أعمل مثلما تعمل... يمكنني أن أعملَ من الطِّينِ كهيئةِ الطَّير... يمكنني أن أبصق فيه أيضًا... مثلك... وسيتحرَّك»

غَضِبَ مني...

أغضَبَتْهُ كلمة «أبصق»... تخيل؟... غفرَ لي الكثير من زلاتي، لكنَّ تلك الكلمة أغضَبَتْهُ... ولكن، كيفَ لكَ أن تتخيل!!

قال: «أنتَ لم تُخلَق لِتَخلُق... خُلِقتَ لِتَعبُد»

كلماتهُ قاسِيةٌ، تؤلمني، تُشعِرني بِعَجزٍ شديدٍ. أعودُ إلى ظلامي، أفَكِّر بِكُل كلمةٍ، أفكِّر بأن من صنعَ أهلَ الرُّمَّان وغيرهم لم يَقُم بالشَّيءِ العظيم...

أهلُ الرُّمَّانِ مَعيبون...

مَنقوصون...

يأتونني كُل يوم، كُلُّهم يأتون، يُقَبِّلونَ قدمَيَّ ويُقَدِّمونَ فروض المَحَبَّة، طالبينَ قَضاءِ الحاجة. أهل الرُّمَّان وغيرهم ليسوا كامِلين، وقد عَهِدتهم منذُ اليوم الأول.

لقد رأيته... «هو»...

رأيتهُ يومَ أن صَنَعَ أوَّلهم...

حَفِظتُ كُل حَرَكَة قامَ بها، بِتُّ أكبِشُ الطِّين مثلما يفعل، أُشَكِّلهُ تشكيلًا. «هو»، الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر، بديعٌ في تشكيل الطِّين، دقيقٌ بِمُكوناتِه، عارِفٌ بأسرارِه، عَليمٌ بِتكوينِه... «هو» من صَنَعَ الطَّين! لكنِّي كُنتُ مثله... دقيق... فَطِن... أعي تمامًا صياغة الطِّين.

صنعَ الزمرةَ الأولى منهم، وصَنَعتُ زُمرَتي...

نَفَخَ فيهم، شَهِقوا، قاموا مذعورين، يتخبطونَ من المَسِّ، حتى هدأوا...

فَعَلتُ مثلهُ، لكنِّي لم أكن أجيد النَّفخ... كنتُ أبصق... ليتحرك ما صنعت، تدبُّ فيه الحياة للحظاتٍ، ثم يَحتَرِق...!

مهما حاولتُ أن أشَكِّل وأنحت من الطِّين، كانوا يحترقون. أصنعُ ذات الأشكال، أفعلُ بهم مثلما يفعل، أبصق... فيحترقون. السنواتُ تَرمَحُ كالخَيل، تَمرقُ كالبَرق، أعمارٌ لا حاجةَ لِمَن مثلك بِحِسابِها، كُلها تَمُرُّ أمامي، أسعى فيها لِتَشكيلِ الطين، أسعى فيها لِتَطويعه، وكان يُراقبني!!. أعلم أنه كان يراقبني، ربما كان يصعبُ عليه أن يرى بديعًا آخر يُنافِسهُ... «هو» كان غريبًا... لم أفهَمهُ أبدًا مهما حَييتُ. في البداية يقول إنه صَنَعني... ثم يتباهى بِبَديعِ صُنعي أمام أولئكَ الذينَ حُرِّمَ عليهم القُرب من الطِّين أو حتى محاولة لمسه.

أتعلم يا وجه الندوب؟!... لقد أحببتهُ...

لا أنكر، أحببتهُ حبًّا شديدًا...

كان يتباهى بِي، يَذْكُرُنِي في كُل أمر، خُيِّلَ إليَّ أنه لم ولن يَصنَعَ مِثلي...

أعطاني تلك القُدرات الفائقة...

لكن عندما حاولتُ أن أنافِسَهُ في الصُّنع، آلمني بِكَلِماتِه...

«أنتَ لم تُخلَق لِتَخلُق... خُلِقتَ لِتَعبُد»

ليتَـهُ مـا صَنَعنـي!!... إذا كُنـتُ قـد «خُـلِ...» صُنِعـتُ لِكَـي أعبُـد، لِمـاذا أعطـاني كُل تلـك القُـدرات؟!... لِمـاذا لم يَجعَلنـي كالذيـنَ حُـرِّمَ عليهـم المُجادلـة في أمـرِ الطِّـين؟!!...

قُلتُ له: «أنا صانع مثلك... لكنِّي لن أصنعَ من هُم معيبون»

كانَ هادِئًـا، كَلِماتـهُ جـاءت هادِئـةً، كان بِوِسـعِهِ أن يمحِـوني... لكنَّـهُ لم يَفعَـل.

قال: «ليسَ الكَمالُ بالكَمالِ»

لم أفهَمهُ أبدًا...

ثُـرتُ يومهـا، أقسَـمتُ لـه بِـما لـديَّ أن أصنَـعَ مـن ذات الطِّـين مخلوقًـا كامِـلًا... بـلا عيـوب. كلماتـهُ لا تُفارقنـي... «ليـسَ الكَـمالُ بالكَـمالِ»... لكنِّـي عَجَنـتُ الطِّـين بِـماءِ النَّهـر، شَـكَّلتُ منـهُ أوَّلَ صُنعـي...

أوه... أعتقدُ بأنَّكَ تَعَرَّفتَ عليه...

البديع الذي حَبَسَهُ «هو» في القفص...

أردتُ أن أصنَـعَ المخلـوق الكامِـل، اختَزَلـتُ العينَـينِ بِعَـينٍ واحـدةٍ، كبـيرةٍ، بَصـيرةٍ، تَبلُـغُ بِرُؤياهـا عـرضَ الكَـونِ وطولَـهُ، تخـترقُ السـماواتِ وبواطِـنَ الأرض... شَـكَّلتُ مـن الطـينِ أذنَـينِ تسـمعانِ هسـيسَ الملائِكـة، الذيـنَ كانـوا يتسـحبونَ بِخِفَّـة، لِإلقـاءِ نظـرةٍ خاطِفـةٍ عـلى أوَّلِ الصُّنـع. شَـكَّلتُ مـن الطـينِ أسـنانًا تَقضِـمُ الجِبـالَ قضمًـا، وذراعَـينِ تَحمِـلانِ الأرضَ حمـلًا هَيِّنًـا... صَنَعـتُ مخلوقًـا لا هـو بِذَكَـرٍ ولا بِأنثَـى... هـو الاثنَـانِ...

يتوالَـدُ حتى آخرِ أيـامِ الأرض، يَرضَـعُ ويُرضِـعُ مـن ذاتِـهِ... لا يَجـوعُ أبدًا.

كان يقـول... مـن جديـدٍ... «ليـسَ الكَـمالُ بالكَـمالِ»... وكُنـتُ أقـول: «صُنعـك منقـوص، صُنعِـي كامِـل».

كانَ يُخَيَّـلُ إلَيَّ، أنـه كان يَصنَـعُ الخلـقَ ناقصـين، معيبـينَ بِنقـاطِ ضعفهـم تلـك... فقـط لِيَظَـل «هـو» الأبقـى والأعظـم، ليظـل هـو الكامـل...

لا... لا تَضحَـك مـن قـولي!!... لا تنظـر إلَيَّ هكـذا أيهـا الآسِـن البائِـس...

لقـد قُلـتُ لـه غاضبًـا منـه: «أنـتَ تخشـاهم... تَخشـى مـن صَنَعتهـم... تخشـى أن ينافسـوكَ كـما صنعتنـي أنـا ونافَسـتُكَ الآن... ولكنِّـي لا أخشـى شـيئًا... صنعـتُ مخلوقًـا كامـلًا!!»

كان هادئًـا... سـكونهُ يَبُـثُّ الذُّعـر بداخـلي، يُمَزِّقُنـي... لمـاذا لا يغضـب مـن كلـماتي؟!!... لمـا «هـو» هـادئٌ هكـذا...!

كُنـتُ أتأمَّـل مـا صنعـتُ، أتأمَّـل عمـلي الأوَّل عـلى الأرض، وأتأمَّـل صُنعَـهُ «هـو». شيءٌ مـا خاطـئ... شيءٌ مـا ناقِـصٌ بِصُنعِـي. أغضـب غضبًـا شـديدًا، أهتـاجُ ممـا أرى. جميـعُ مـا صنـعَ «هـو» دائـمًا مـا كان منقوصًـا... لا شيء كامـلًا... جميعهـم بِهِـم عيـبٌ... أهـلُ الرُّمـانِ كانـوا ضِعافًا، أجسـامهم أضعَـفُ مـن مخلوقـي، أعينهـم أضعَـفُ بـصرًا، يمرضـونَ ويتعبـون... يَموتـون... مخلوقـي أنـا كامِـلٌ... وضَعـتُ فيـهِ كُل الكـمال... فلـماذا هـو مَسـخٌ ذميـمٌ؟!!...

ألا يُفتَرَضُ بالكامِلِ أن يكونَ جميلًا؟!...

«خُلِقتَ لِتَعْبُد»...

تلـك الكلـمات تَحرِقُنـي، تَحـرِقُ بَـدَني... الآن يقولهـا لي لأنِّي خَـسِرت...

ومـا ذنبـي إن كان الطِّـين سـيئًا؟!!... أنـا صَنَعـتُ مخلوقًـا كامـلًا لا يعيبـهُ عيـب... إذن العيـبُ بالطِّـين... فكـرتُ بـأن أصنَـعَ مـن غـيرِ الطِّـين... لكنِّـي، لا أعـرفُ سـواه! حاولـتُ أن أصنـعَ شـيئًا يُشـبِهُ الطِّـين كـي أصنَـعَ منـهُ مخلوقـاتي...

صُعِقت...

وجدتُ نفسي عاجزًا...

خَارَ جسدي القوي أرضًا...

وجدتُ نفسي، رغمًا عني، أمامَ قدمَيهِ سَجَدت...

كانت أول مرة، وآخر مرة سَجَدتُ له... حتى هذهِ فعلتها مُرغمًا...

ألفَيْـتُ نفـسي هـا هنـا، في تلـكَ الغُرفـةِ التـي لا يدخُلهـا سـوى الضَّـوءِ. بـلا قُـدُراتي حُبِسـتُ هنـا، تحـت قدمَـيَّ الطِّـين، أعجِـنُ منـهُ مهـما عَجَنت... لا يتشَـكَّلُ الطَّـيْر.

(٣٥)

الشمسُ لا تغيبُ، الغرفة عارِيةٌ من سَقفٍ يحجِبُ عنها النُّور... والأصلع الطويل لا يزالُ للطِّينِ عاجِنًا، يستَمِعُ إليهِ الآسن، الذي بدا مَهمومًا. «آسنُ» الذي أثارَهُ حديثُ الرَّجُل، أخذَ يتأمَّلُ حالَه، يأمُرهُ الصَّانِعُ بأن ينظر إلى مرآةٍ مُعَلَّقَةٍ على أحد حوائِط الغرفة. يقترب منها بِتَرَوٍّ، يرتجف وينبِضُ القلبُ خلفَ الضلوع، يتوقف، يلتفت للصَّانِع لِتَجحَظ عيناهُ من الذُّعرِ...

وجهُ الصَّانِع بِلا عَينَين، ممسوحَتَيْنِ كأنهما لم تكونا...

يبتسم له، سرعانَ ما تنفَرِجُ الابتسامَةُ ضَحِكًا، كاشِفَةً عن صَفَّيْنِ من الأسنانِ المُكَوَّرَةِ كالخَرَز، صغيرة، مُتزاحِمة ومُزعِجة. يَعجِنُ الطِّين بِقَسوةٍ، يَصهَرهُ بينَ أصابِعِه، يقول للآسِن: «هل أنتَ خائِف؟... أنتُم تأتونني راجينَ المُساعَدة... لكنَّكم لم تَروا أنفسكم ولو مرَّة... ألهاكُم البَحث عن أشياء لن تمتلكوها أبدًا»

حَدجَهُ «آسن» بنظرةٍ حادةٍ، يتحدَّاه، تأمَّل حال هذا الصَّانِع الذي يتحَدَّثُ عن القدرات والخوارِق، بينما هو حبيسُ الغُرفَةِ تمامًا مثله...

– أنا خائِفٌ؟!... إذن لا تعرفني، لقد تركتُ كُل شيء، فقط لأبحث عن ذاتي، لأبحث عن شيءٍ آمنتُ بِهِ... عن الألوان... التي ما رآها أحدٌ سواي..

– وما أدراك ألا أحد رآها سواك يا وجهَ النُّدوب؟

– أنا أبحَثُ عمَّا أستَحِقه...

– إذن انظر... انظر في المرآة... أنت خائِفٌ مما سترى...

– بل أنتَ الخائِف، أنتَ الضَّعيف... محبوسٌ هنا بِغُرفَةٍ بلا سَقفٍ، تدَّعي أنَّكَ صانِعٌ، ومما أراهُ، أنكَ تَعجَزُ حتى عن إحياءِ بعضِ قِطَعِ الطِّين، تَعجَزُ عن الهروبِ من تلك الغرفة المفتوحة...

«آسِنُ» يصرخُ، يُنادي الذي يَعلَمُ ما بَينَ الأحمرِ والأخضر. يركُضُ بالغُرفَةِ الفسيحة، يناجيهِ بِكَلِماتٍ راجيةٍ، يرجوه بأن يظهر. يسد أذنَيهِ عن حديث «الصَّانِع»... الذي لم يَتَوَقَّف عن التَّفَوُّهِ بِكلماتٍ بارِدةٍ...

«أبناءُ الرُّمَّانِ وغيرهم، دائِمًا ما وجدتُ بِهِم تلك الثَّغَرات. جميعها ثغراتٌ وعيوبٌ يُمكِنهم إصلاحها أو تداركها... إلا واحدة... واحدة غبية لا يلتفتونَ إليها أبدًا، يرجونها ويبحثونَ عما يَدُلّهم إليها... ثَغرةُ «الأمل». قبلَ أن يَحبِسني «هو»، وكُنتُ أعلَمُ أن هذا اليوم آتٍ، طفتُ الأكوانَ طوفًا، أبحَثُ عن الأمل تمامًا مثلهم، وددتُ لو كان الأملُ شيئًا ملموسًا... أتعرف؟... سعِدْتُ أكثر عندما أيقَنتُ أن ذاك الشيء ليسَ بِمَلموسٍ... هو فقط... يحتاجُ أن تَخلُق له داعِيًا.

كان يقول لي: «لم تُخلَق لِتَخلِق»

ربما... ربما فقط... لم أستَطِع أن أخلُق من الطِّين... لكنِّي خلقتُ شيئًا آخر، شيئًا خالصًا، يُنسَبُ إلَيَّ وحدي...

خَلَقتُ حاجةَ أولئِكَ البؤساء إلى الأمل...

أبناء الرُّمان وغيرهم، يطمحونَ إلى الأفضل. يبحثونَ عن الأعلى، الأزهى، الأجمل، الأكثر خلودًا... وفي الطموحِ يا ذا العَينَينِ الحمراوَين... تبدأُ الرحلة... رحلةُ الخروجِ من النُّورِ إلى الظلمة، رحلةُ

تَـركِ الشّـمسِ بالأعـلى، بحثًـا عـن نـورٍ آخـر... لا يَنقَطِـعُ ولا يَغيـبُ، مِثـلُ شَمسِـهِم».

«آسِـن» يركـضُ بالغُرفـة، يـصرخُ، يُنـادي عـلى الـذي بَحَـثَ عنـهُ. يضطـربُ قلبـهُ، يتعـرَّق، يـضرِبُ الحوائِـطَ الأربعـة... بينـما تَضيـقُ الغُرفـة عـن مسـاحتها السـابِقة.

– لـن يَـرُد عليـك... لـن يَظهَـر لـك... أنـا فقـط مـن يَظهَـر، أنـا فقـط مـن لا يُخفِـي حقيقتـه عنـك، أقـفُ أمامـك صـوبَ عَينَيـك... أتـرانِي أتهَـرَّب؟

– اسـكُت... لا أريـدُ سـماعَك... يـا مـن تَعلَـمُ مـا بَـينَ الأحمَـرِ والأخـضر... أيـنَ أنـت؟!!... اسـكت أنـت لا تتكلـم!!... أنـتَ حبيـسٌ مثـلي... لا تَملِـكُ شـيئًا... لا تَملِـكُ أمـرًا ولا نَهيًـا...

يتـمادى فجـورُ ضحـكاتِ الصَّانِـع، الـذي كَبَـشَ بِيَدَيـهِ مـن الطِّـينِ بـالأرض، يَنشُـرهُ بالسـماءِ لِيَسـقُطَ عـلى الآسِـنِ المُرتـاب... ويقـول: «ليـسَ لَـكَ سِـواه... تَعَـوَّد عليـه». يتلَفَّـت «آسـن» حولـهُ، يبحَـثُ عـن شيءٍ يمسـكهُ ويَـضرِبُ بِـهِ ذاك الصَّانِـع الـذي قـرأَ بالفِعـلِ مـا يُقـدِمُ الآسِـنُ عليـه...

– أتَـوَدُّ أن تقتلنـي؟... بعـدَ كُلِّ مـا أخبرتُـكَ بِـه؟... إذن، لِمـاذا لا تُجَـرِّب أن تَعمَـلَ مـن الطِّـينِ سـيفًا تقطَـعُ بِـهِ لسـاني؟... أو رُمحًـا تَدُقُّـهُ بِقَلبـي؟... هـذا إن كانَ لي واحِـد!

خَـرَّ الآسِـنُ عـلى رُكبَتَيـهِ، يَكبِـشُ مـن طِـينِ أرضِ الغُرفـة. يُحـاوِلُ أن يصيـغَ مـا بـينَ يَدَيـهِ سِـلاحًا، يتفَتَّـتُ الطِّـين الـذي تبَخَّـر منـهُ المـاء، يتخَلَّـل مـا بَـينَ أصابِـعِ الآسِـن المُرتَعِشـة، بينـما يُـرَدِّدُ «الصَّانِـع»:

«أنتَ مُثيرٌ للشَّفَقَة، لم يؤنِسني في وحشَتي أحدٌ كما فَعَلت»

يصرخُ الآسِن: «اسكُت»!!!...

يُكمِلُ «الصَّانِعُ» حديثهُ البارِد...

«ألم تَفهَم بَعد؟!... حتى إن سَكَتُّ، ما عادَ شيءٌ يَمنَعني. أتُصَدِّقُ حقًّا أنِّي حبيس؟!... أنا هُنا... لكنَّ عَمَلي على تلك الأرضِ بالخارج... مخلوقي... مصنوعِي الأول والأكمَل. ذلك الجميل البديع في القفص، عندما أطلَقته على حُكَّامِ الأرض، الجائعين دومًا لا يشبعون، أرضَعَهُم من ثَدَيْهِ اللذَينِ لا ينضبانِ أبدًا... فَباؤوا بالخرابِ على بُلدانِهم. لو أرَدت أن أخلق الأمل، عليَّ أولًا أن أخلق الحاجة إلَيه... كُلُّ حاكِمٍ رَضَعَ من مخلوقِي، قامَ بِفَضيحة... الأمرُ يحتاجُ فقط إلى فضيحةٍ... فضائِح لا تنتهي، أشعَلَتِ النار، أحرَقَت البُلدان... حتى أخفى دُخانُها ورمادُها رائِحة الشَّمس.

لا أحد يستطيعُ أن يُخفي الشَّمس، لكن يُمكِنُكَ أن تعمي عنها الأبصار. عَمَلي على الأرض حُرٌّ طليقٌ، مخلوقي الأكمل، كانَ يطوفُ بالبلاد وأنا بِتِلكَ الغُرفَةِ سَجين... يبحَثُ عمن لديهِ ثأر، يَقتَصُّ ثأرَهُ بِيَدَيهِ القويَّتَينِ... يَبحَثُ عن جائِعٍ، يُرضِعهُ من ثَدْيِ الظلام... يبحَثُ عن جبارٍ عقيم ليسَ لديهِ ولدٌ، يتمَنَّى وريثًا، يملِكُ مفاتِيح الأرض من بَعدِه، ينكَحَهُ مخلوقي الكامِل، يَجلِب له «ابنَ ظلام»... وجميعهم يا هذا... جميعهم... لم يهتموا يومًا بِنَسَبِ هذا الطِّفل!

أنا حبيسٌ بتلك الغُرفة، لكنَّ عملي على تلك الأرض طليق...

تَعِبَ «آسِنُ» من الطِّين، استنفدَ سوائِلَ جَسَدِهِ من العرَقِ المُنهَمِر. استلقى يستَنِدُ إلى أحد الحوائِطِ الأربَعة، يُحَملِقُ بـ«الصَّانِع» الذي توقف عن الابتسام، ينتَظِرُ سؤال الآسِن...

- لماذا فَعَلتَ ذلك؟

– لأنَّني... أرَدتهم أن يَظَلُّوا بِحاجَةٍ إلَيَّ... تمامًا مثله «هو»... كُنتُ أحسِدهُ على ذلك الشعور... أنَّهُم دائِمًا بِحاجةٍ إليه... أنَّ الأمر دومًا ينتهي عندهُ... يفعلونَ كُل شيءٍ ثم يتذللونَ له فَيَفرَح... يَفرَحُ بِجبروتِهِ وقوَّتِه... لأنهُ «صانعهم». لكن، ألستُ أنا أيضًا صانع؟!!!... أقسَمتُ على أن أجعَلَهُم يتذللونَ إلَيَّ بدلًا منه... جَعَلتهم يُخفونَ شَمسَهم بِجرائِمِهم، هم من فعلوا وليسَ أنا... والآن... يستنيرونَ بالنار، كم أعشَق تلك الرجفة بداخِلهم عندما ترتَجِفُ نارُهُم وشُعلاتهم، يَخشَونَ أن تنطفئ فيَعودونَ للظلام...

وقتها...

يتذَكَّرونني، يحتاجونني..

لاحَت بِرأسِ الآسِن تلك الصُّوَر، عن بلدِ الرُّمَّانِ وأهله، عن «الأخ الحنونِ» والبيتِ الذي كان أصفر. لاحَت صوَرُ الدَّابَّةِ والقناديلِ المُلَوَّنة، الأبيض العظيم، النَّهر الذي كانَ حُلوًا... لاحت بِذِهنِهِ «الشَّمس»... المروجُ الخضراء... و«شَمس»... تَضحَك... تُداعِبُ الرِّيحُ الشَّقِية جَسَدَها تحتَ قماشِ السُّندُسِ الذي ألبَسَها إياه، تَنفَلِت منهُ ابتسامَة مُرهَقة.

يُصَفِّقُ «الصَّانِعُ»، نافِضًا بقايا الطِّينِ عن يَدَيه، مُنَبِّهًا الآسن. يُشيرُ بإصبَعِهِ إلى المِرآة، التي يتوجَّهُ إليها «آسِن» بِخُطى أسرع... يقول: «لا وَقت، أسْرِعْ»...

وقفَ أمامَ المرآةِ ينظُر، فَزِعَ مما رأى... صَرَخ. رجلٌ بالِغٌ، أعياهُ المَرَض، أتعَبَهُ السَّفَرُ والتجوال، خانَهُ البَحث والترحال. رأى رجلًا بِذراعٍ واحِدةٍ، أصابهُ الهزال، حتى شَفَّ جِلدُهُ عن العَظم، نَمَت غابةٌ من الشَّعرِ المُتَمَرِّد على ذقنِهِ، شعثاءٌ مُشجِرةٌ أكثر من الغابة الغامِضة

عـلى أرضِ المُـروج. رأى رجـلًا تفـوحُ منـهُ رائِحـةٌ لا يعلمهـا، لكنـهُ كانَ يَشُـمها في قلائِـل ممـن قابَلهـم. تأمَّـل شَـكلَهُ الـذي رآهُ للمـرة الأولى منـذُ أن وُجِـدَ بالكهـفِ، حيـثُ البُحَـيرة المُقَدَّسـة. تأمَّـل العينَـينِ الحمراوَيـنِ، المَكسـورَتَينِ، اللتَـين كان كُل مـن قابَلهـم ينادُونَـهُ بِهِـما...

«يا ذا العَينَينِ الجَميلَتَينِ»

لم يَجِـد فيهـما جمـالًا، لم يَجِـد فيهـما سـوى الحَـسْرَةِ عـلى كُل مـا رأتـاهُ وأبصرتَـاهُ جيـدًا ولم تُحافِظـا عليـه...

غيمـةٌ مـن الضَّبـابِ شَوَّشَـت عليـهِ الرؤيـة، أخـذَ ينفِـضُ رأسـهُ، تذهَـبُ الغيمـةُ وتَجيءُ عـلى عَينَيـهِ...

غيمـةٌ مـن الضَّبـابِ تجمَّعَـت أمـامَ عينَيـهِ، تَحجِـبُ رؤيـة صورتـهِ في المـرآة..

يَمسَحُ عينَيهِ لتتضح الرؤية... لِيَرَاهُما في المرآةِ تلمعانِ...

وسـائِلٌ شـفَّافٌ، ينسـابُ منهـما نهـرٌ جـارٍ، يَغسِـلُ بقايـا الطِّـينِ عـلى وجهـهِ، يُذيـبُ قَسْـوَةَ اللحيـةِ الشـعثاء... ذات السـائِل الـذي كان يتعَجَّـب حينـما يـراهُ ينـزِلُ مـن أعـيُنِ مـن مَـرُّوا بِرِحلَتِـهِ...

بَكَى... لأول مرَّةٍ...

❊ ❊ ❊

(٣٦)

«قُلتَ بأنَّ المُستَقبَلَ بسيط، أليسَ كذلك؟!»

قالها الآسِنُ، الذي بَكَى حتى بَردَت عيناهُ من الدَّمعِ وابْيَضَّت، انطفأَت حُمْرَتُها. ارتَجَفَت ابتسامة على وجهِ «الصَّانِع» ممسوحِ العَينَينِ، يَتَفَقَّدُ الأملَ المُتَوَهِّج في عَينَيْ الآسِن. دَفَسَ يَدَهُ بالطِّين، يُفَتِّشُ عن شيءٍ بِباطِنِهِ، يُخرِجُ حَجَرًا مِلء كَفِّهِ، يرفَعهُ أمامَ الآسِن...

– ذَكِّرني... لماذا كُنتَ تَبحَثُ عن الذي يعلمُ ما بينَ الأحمرِ والأخضر؟

– لأنِّي أرَدتُ أن أعرِف ما سِر تلك الألوان...

– ولماذا إذن تريدُ أن تتعلَّم قراءة المُستَقبَل ما دُمتَ قد أضَعتَ كُل هذا الوقت؟

– سابِقًا، لأنهم قالوا لي: «من يَعرِفُ المُستَقبَل، يَملِكُ خبايا الكَون»، اعتقدتُ أن سر الألوان الذي لا يَعلمهُ أحدٌ هو من تلك الخبايا...

– والآن؟!

– الآن أنا مُنهَك... لا تَحملني قدمايَ على المُضِيِّ خطوةً واحدةً... لن أوَد أن أخرُجَ حتى من تلك الغُرفة، كُل ما أريدُهُ الآن أن أعرف مستقبلي، نهاية رحلتي تلك!!

حَـرَّكَ «الصَّانِـعُ» الحَجَـرَ في يَـدِه، أمـامَ عَينَـيْ الآسِـن، يسـترعي انتباهَـهُ...

– سـأعَلِّمُك، لكـنَّ الأمـر أبسَـط مـن أن تفهَـم... أنـتَ لَم تُصنَـع لِتَفهَـم، وإنـما لِتَعبُـد... هكـذا كانَ سَـيُخبِرُكَ مـن بَحَثـتَ عنـه... ولكنِّـي بالطبـع لسـتُ مِثلـه... انظـر... أراهِنُـكَ عـلى أيِّ شيء... أيِّ شيء... أن ذاك الحجـر بِيَـدي سَيَسـقُط بعـدَ ثـوانٍ...

تَوَتَّـرَت قسـماتُ وجـهِ «آسـن»، ابتلـعَ ريقَـهُ، يسـتَعِدُّ لأعظَـمِ سِرٍّ بَحَـثَ عنـهُ وأضـاعَ عُمـرًا كامِـلًا في الرحلـةِ إلَيـه. مـا هـي إلا ثـوانٍ، حتـى تَـرَكَ «الصَّانِـعُ» الحجـرَ يسـقُطُ مـن يَـدِهِ، ليَسـتَقِرَّ عـلى الأرض...

– ولكن... ما هذا؟

– ماذا؟!... ألم أقُل لك سَيَسقُط؟

– أنتَ تَرَكتَهُ يسقط!!... ربما أكونُ مُتعبًا لكنِّي لستُ أعمى!!

قالهـا «آسِـن»، الـذي انفَجَـرَ بُركانًـا ثائِـرًا، يـصرخُ بِوَجـهِ «الصَّانِـع» بـألا يَخدَعـه. يَكبِـشُ «الصانِـع» مـن طـين الأرض، يَعـصرهُ بـينَ أصابِـعٍ مـن نـار ليتـألَّمَ الآسِـن، يعـصر أكثـر فيتـألَّمَ أكثـر، يتَلَـوَّى مـن الوجـع، بينـما تجتـاحُ الأعاصـير وجـهَ «الصَّانِـع»...

– ربما لا يسَعني أن أقتُلَك، لكن يَسهُلُ عليَّ أن أُؤلِمَك...

– أنتَ كاذِبٌ...

– كاذِبٌ؟!... في مـاذا؟... قُلـتُ لَـك في البدايـة أن الأمـرَ أبسَـطُ مـن أن تَفهَمـهُ!... راهَنتُـكَ عـلى أن الحَجَـرَ سَيَسـقُط في ثـوانٍ، وسَـقَط!!... أكَذِبـتُ عَلَيـكَ بِـشَيء؟!

– ولكن... أنا لا أفهم!!

– أتَذَكَّرتَ الآن أن تُفَكِّر؟... الآن؟ في تلك الغُرفة؟؟... أتَعرِفُ حتى أينَ نحنُ؟

الذُّعر على وجهِ «آسن»، شُلَّ لِسانُهُ، يبحَثُ عن مَخرَجٍ بالغُرفة. لا أسقُف بها، يركضُ نحو الحوائِط، يحاولُ تسلُّقها... والشَّمسُ بالأعلى ذهبِيَّة... كُلما وقعَت عيناهُ عليها دَمَعَتا. الشَّمسُ الآن كبيرة، قُرصٌ مُدَوَّر، أكبَرُ من عُقلةِ إصبَع، أكبَرُ من وجهِ «شَمس»... «شَمس»!!... «شَمْسِي»... يتردد اسمها، ترتَسِمُ صورة وجهها الصَّبوح، عيناها الممتلئتانِ بالحُزنِ...

«لا تَذهَب...»

يبكي حَسرَةً...

الشَّمسُ بالأعلى، باتت أكبَرَ من وجهِ شَمسِه التي تَرَكَها. لا يَذكُرُ كم من الوقتِ قد مضى، لا يَذكُرُ إن كان أحدهم قد أتاها من الغابةِ الموحِشة مرةً أخرى، آذاها، أو أنها هي من قد تكونُ حاوَلَت اللحاق بِهِ... مثلما فَعَلَ «ودود» و«رُمَّانة»...

– لا!!... لا يا شَمسي!!... إياكِ أن تكوني قد تَبِعتِني!!... لا يا شَمسي... إياكِ أن تكوني قد خَرَجتِ من أرضِ المروج!!...

عَصَفَت الأفكارُ بما تبقى له من عَقلٍ، بَكَى حتى جَفَّت آبارُهُ، بينما كان «الصَّانِعُ» يُرَدِّد...

– أشعُرُ بِك... بالطبع أشعُر... فأنا لديَّ مشاعِر، أنا حسَّاسٌ جدًّا... أنا فنان، أتَعلم ذلك؟!... لا أحد يَشعُر بِفنان يُمَجِّدُ الجمال ويُبَجِّلُ الألوان سوى فنانٍ آخر... والفنان «صانِع»... وأنتَ يا صديقي «صانع»... تمامًا مِثلي...

– لم أعُد أريدُ شيئًا...

- أوه، أنتَ فقط مُنهَك... بالطَّبعِ تُريد...

- أريدُ شَمسًا...

تَرَكَ «الصَّانِعُ» ما بِيَدِهِ من طين...

تَوَقَّف عن الحركة، ينظر إلى «آسن» بِوَجهٍ ممسوحِ العينَين...

- شَمس؟!..

- شَمسي... تَعرِفها؟!

- أذكُر تلك الصَّبِيَّة، التي لم تَطلُب مِنِّي شيئًا بَعد. أذكُرها، خَلَقَها «هو»... وكَسَرَ القالب... كَي لا يأتي في مِثلِ روعَتِها بَعدها مَخلوق...

- شَمس... عَلِمتُ أنَّها بديعة من اللحظةِ الأولى...

- تَختَبِئُ بأرضِ المروج، لم تَحتَجني بَعدُ... لكنَّها ستأتي يومًا...

وقفَ «آسِنُ» على قَدَمَيه، يصيح...

- أريدُ شَمسًا!!... لا أريدُ شيئًا سواها...

ابتَسَمَ «الصَّانِعُ» بِخُبثٍ.

تَحَرَّك من موضِعِهِ، من منتَصَفِ الغُرفة، يُقَصِّرُ المسافةَ بينهُ وبينَ الآسِن. يبتَسِم، يُشِيرُ إلى موضعِ الذراعِ اليُسرى المقطوعة، يُشيرُ بأصابِعِهِ صوبَ النُّدوبِ على جَسَدِ «آسِن»...

- يُمكنني أن أعِيدَ كُلَّ شيءٍ كما كان...

- أتُعيدُ ذراعي المقطوعة؟!..

- أي شيء

- أيُمكِنُكَ مَحْو كُل تلك النُّدوب؟!...

- لديَّ من الطِّينِ ما يَكفي لإصلاحِ أقوام... جميعهم يأتونني لأعيدَ كُل شيءٍ إلى أصلِهِ... لا تنسى أنِّي «الصَّانِع»...

- أنتَ الصَّانِع...

- أنا الصَّانِع يا فنان...

- أنتَ الصَّانِع...

ينفَرِجُ الخُبْثُ على شَفَتَيهِ...

- والصَّانِـع، بالتأكيـد، يَفعَـلُ ذلـك دونَ مُقابِـل... يَكفينـي فقـط... أنَّـكَ احتَجتَنـي...

- أنا أحتاجُك...

- جميـل... سـأعيدُكَ كـما كُنـتَ، سـأمحو كُلَّ خطاياك، وتلـك النـدوبَ القاسِية، سـتُصبِحُ جميـلًا كـما كُنـت يـا جميـل العَينَـينِ، سـأعيدُ تلـك الـذراع التـي قَطَعَهـا الهَمَـج...

- نعم، الهَمَج...

أشرَقَـت شَـمسٌ جديـدةٌ، عـلى وجـهِ «الصَّانِـع». يُحَـرِّكُ يَدَيـهِ في الفـراغ، يَرسـمُ أشـكالًا ودوائِـر في الهـواء... حتـى صـاحَ فيـهِ الآسِـنُ فجـأةً...

- ولكـن لا!!... انتظـر!!... توَقَّـف!... «شـمس»... «شَـمس» كانـت تُعجِبُهـا تلـك النـدوب، لأنهـا، لأنهـا تملِـكُ مثلهـا... لأننـا نُشـبِهُ بَعضنـا... انتَظِـر... كانـت تُعجِبهـا ذراعـي الواحِـدة... لأنهـا تعتقـد بـأني هكـذا لـن أضربهـا كـما فَعَـلَ الـذي أتاهـا قبـلي... انتظـر لا تفعَـل... لـو عُـدتُ كـما كُنـت، لـن تَعرِفنـي إن ذَهَبـتُ إليهـا!!!

غَضِـبَ «الصَّانِـع»، صرخَ حتـى ارتَجَّـت الجُـدران، حَمَـت حـرارةُ الغُرفـة حتـى بـدأ الطـينُ عـلى الأرضِ يَجِـف. قَبَـضَ «الصَّانِـعُ» عـلى رَقَبَـةِ الآسِـن، يَخنقـهُ بـلا رحمـةٍ، يُلقـي بِجَسَـدِهِ الضَّعيـفِ إلى الحائِـط، يَركُلـهُ بِقَدَمَيـهِ وينهـالُ عليهـا بالـضَّرب، يـصرخ...

– أعـرِضُ عليـكَ أن تعـود كـما كُنـت وترفُـض؟!!.... أيُعجِبُـكَ حالُـك هكـذا؟!... ألم تفهـم بعـد؟، أنـتَ عـلى مشـارِفِ الهاويـة، مـا زالَ جَسَـدُكَ طينيًّـا، أيُّ جـرحٍ آخـر سَـيَترُكُ أثـرًا... وأيُّ أثـرٍ سَـيَبقى كالباقـين... سَـيُغَيِّرُ شَـكلَك...

كان «الصَّانِـعُ» يـضرِبُ ويَجـرَح جسـدَ «آسِـن» بمخالِبِـهِ الحـادة، يُحـاوِلُ أن يُغَـيِّر مـن شَـكله... والآسِـنُ يقـاوم... وتلـك الرائِحـة، التـي اشـتَمَّها منـذُ دخولِـهِ عـبرَ البـاب العجيـب خـارِج الغُرفـة... الرائِحـة التـي يُحـاوِلُ أن يتذَكَّـر أيـنَ اشـتَمَّها مـن قبـل...

– تتحـاذَقُ عـلَيَّ... أقسِـمُ لَـك أنِّي سـأعمَلُ عـلى جَرحِـكَ حتـى تتغَـيَّر خلقَتُـك فـلا تَتَعَـرَّف «شَمسُـك» عـلى ملامِحَـك...!!

حـرارةُ الغُرفـة تـزداد، صَهـدٌ يَمـلأ الأرجـاء، يَشـعُرُ «آسِـن» بالطِّـينِ الـذي كانَ لَيِّنًـا تحـتَ قَدَمَيـهِ يـزدادُ قساوةً... ينقَلِـبُ حجـرًا مـع صهـدِ الغُرفـة...

يُمسِـكُ بِـذراعِ «الصَّانِـع»، بينـما الـذراعُ الأخـرى تَخـدِشُ وتُشَـوِّه بِجَسَـدِه. يَركُلُـهُ «آسِـن» بِـكُل مـا أوتي مـن قـوةٍ، يُطِيـحُ بِـهِ بعيـدًا عنـه، يبتَسـمُ، حينـما ينظـرُ إلى الطِّـينِ الـذي حَجَّرَتـهُ الحـرارة العاليـة حتـى مـا عـادَت قدمـاهُ تَغـرِزان... يُفَكِّـرُ، ناظِـرًا إلى ذلـك «الصَّانِـع» الـذي بـدا ضعيفًـا بعـدَ رَكلَتِـه...

– إذن... ربما يَسهُلُ عليَّ إيذاؤك أنا أيضًا...

– ولكن لم يتبَقَّ لك الكثير... أنت مُثيرٌ للشَّفَقة...

قالهـا، وجَلَـسَ بِجانِـبِ المِنضَـدةِ بالمُنتَصَـف، يتأمَّـل الآسِـن الـذي أذهَلَـهُ هـدوء «الصَّانِـع» وضحكَتِـهِ الخبيثـة، يُصَفِّـقُ بِيَدَيـنِ دَمَوِيَّتَـين، يُـرَدِّد...

– أحسَـنت، أحسَـنت يـا «آسِـن»... أحسَـنتَ بإضاعَـةِ الوقـت... هـذه

مُشكِلَتُك... أخبرتُكَ منذُ البداية أنِّي لا يُمكنني قَتلك، لم تُصَدِّقني... أحسَنتَ بإضاعةِ الوقت...

الأرضُ الطِّينية، حَجَّرَتها حرارةُ الغرفة الصَّهيدة بِغَضَبِ «الصَّانِع» البُركانِيِّ. «آسِنُ» يتأمَّل الطين المُتَحَجِّر، يتأمَّل جَسَدَهُ، يبتَسِم ساخِرًا... متألِّمًا...

- هي الحرارةُ إذن...

اشتَعَلَت ضَحِكاتُ «الصَّانِعِ» فجورًا، يُصَفِّقُ عاليًا، بينما الرائحة المألوفة تزدادُ ثِقَلًا، يَشُمُّها «آسِن»، يُحاول أن يتذَكَّر أين اشتَمَّ تلك الرائِحة النَّفَّاذة... الفَوَّاحة... العَطِنة...

تلك الرائِحة التي تزدادُ نتانةً، يعرفُها منذُ زمنٍ بعيدٍ...

جَحَظَت عيناه!!...

اضطَرَبَ قلبهُ، ملأ صدرَهُ بالرائحةِ الفَوَّاحَة النَّتِنة...

صاحَ...

- المَحرَقَةِ العَظيمة!!...

❋ ❋ ❋

(٣٧)

السُّكُون سادَ الغُرفة، الرائِحة افتُضِحَت، فاحَت، تَفَشَّى وضوحُهَا مُتَبَجِّحاً. يتلَفَّتُ «آسِن» حولَهُ، ما من أثرٍ لِمنضَدة، ما من أثرٍ لِصاحِبِ الجِلباب، «الصَّانِع». يرفَعُ رأسَهُ إلى السماءِ، إلى السَّقفِ الذي لم يَكُن موجودًا... لا شَمسَ بالأعلى!!... لا سماء... فُتحَةُ السَّقفِ بالأعلى، لم تَكُن مُرَبَّعة... رفعَ رأسَهُ للأعلى، يُدَقِّقُ بِبَصَرِهِ...

السَّقفُ فُتحَةٌ دائِرِيَّةٌ...

الظلامُ حولَهُ، لا يُضِيئُهُ سِوَى شُعلَةٍ بِلَهَبٍ مُرتَعِش...

الغُرفَةُ الفَسيحةُ، ذاتُ الأربَعة حوائِط...

أمسَتْ دائِرِيَّة...

اضطرَبَ قَلبهُ، اغرَورَقَت عيناهُ بِدموعٍ حارَّةٍ. يبحَثُ حولهُ عن البابِ الذي دَخَلَ منهُ..

لا باب...

يُمسِك بالشُّعلةِ التي كانت من العِظامِ، مَغروزةً بِحائِط البِئرِ الدَّائِرِي. يُحاوِلُ رَفعَ ذراعَه اليُسرى...

لا ذِراعَ يُسرى!!...

يُمسِك الشُّعلة باليُمنى، يبكي ويَبحَث بالضَّوءِ عن مخرج، يستوقِفهُ ذاك الشَّيء المُلقى على الأرضِ، تفوحُ منهُ رائحةٌ عَفِنةٌ...

يُقَرِّبُ إليهِ الشعلة، رائِحةٌ عَفِنةٌ، رائِحةُ لَحمٍ نَيِّئ مُتَعَفِّنٍ... رائِحةُ...

ذِراعٍ مَبتورةٍ، يَرقُدُ بِجانِبِها سِيفٌ اختَلَطَت الدماءُ على نَصلِهِ بالصَّدأ...

ارتَجَفَ جَسَدُهُ، سَرَت برودَةٌ بأوصالِهِ، ارتمى على الأرضِ ينكَمِشُ حولَ نَفسِهِ... يبكي كما لم يَبكِ من قبل. ينظرُ للأعلى من جديدٍ، إلى حيثُ فُتحَةِ البِئرِ الدائِرية... وضوءُ الشُّعلةِ الكبيرة النَّارِي، الذي يتسَلَّلُ عبرها...

ينظُر إلى تلك الدائِرة التي تُشبِهُ الشَّمس...

حمراء وصفراء الوَهَج...

يَمُد إليها يَدَهُ اليُمنى ويَبكي...

– آآاهٍ يا شَمسي... ليتَني بَقَيتُ مَعكِ، على أرضِ المروج... ليتني ما فارَقتُكِ يا حَبيبَتي... الظلامُ هنا يَقتُلني، لا يسمَحُ لِعَينَيَّ النَّارِيَّتَينِ أن تَرَيا سواكِ... الظلامُ هُنا يُهلِكني ويُزهِقُ روحي... اكتَفَيتُ منهُ يا شَمسي... اكتَفَيتُ من رائحةِ العَفَنِ يا حبيبتي، أشتاقُ لاستنشاقِ عِطرِ ليلِكِ المُمَوَّج، الذي ينسابُ بِرِقَّةٍ على وجهي حينَ أقَبِّلُكِ... أشتاقُ لِرائِحةِ الشَّمسِ يا حبيبَتي...

يَتَطَهَّرُ بالبُكاءِ، ناظِرًا إلى سَمائِهِ، التي ما كانَت سوى فُتحَةِ بِئرٍ دائِريةٍ، تملأُ فَراغَها نارُ شُعلةٍ كبيرةٍ، شَكَّلَت شَمسًا. يتحَسَّس النُّدوب على جَسَدِهِ، يتأمَّل السُّلَّم الذي كانَ قد صَنَعَهُ للصُّعودِ من البِئرِ. يَمسَح دَمعَهُ، يتمالَك نَفسَهُ، يَضطَرِبُ قلبُهُ أكثر من كُلِّ مرَّة... حينما يتذَكَّر شَمسَهُ...

– إن كانَت النَّار هي ما سَتَأخُذني إلَيكِ، فَلِيَكُن...

تَسَلَّق السُّلَّم، يُجاهِدُ الطُّلوعَ بِذراعٍ واحِدةٍ. تَقتَرِبُ الفُتحَةُ أكثَر... تَكبُرُ الدائِرةُ الوَهَّاجةُ أكثر...

– الآن تقتربين يا شَمسي... الآن أذهَبُ إلَيكِ...

يَصِلُ إلى قِمَّةِ البِئر، حيثُ كُلُّ شيءٍ ساكِنٌ، إلا من رياحٍ تشتاقُ إلى مُغامَرَةٍ ما في ذلك المكانِ الكَئيبِ، تَعبَثُ بالشُّعلةِ المُعَلَّقَة، تُراقِصُ نِيرانَها العَظيمة...

تتراقَصُ الشُّعلةُ على الجَنبَينِ، تَدلو بِأضواءِ نيرانِها الحمراء والصفراء هُنا وهناك، تَغسِلُ بُقَعَ الظَّلامِ العَنيدة، التي أبَت أن تُغادِرَ القاعةَ الفسيحة والمَحرَقةَ العظيمة منذُ زَمَن...

وصوتٌ أخذَ يتعالى بالخارج...

«زائرٌ جديد... لباسُهُ من جَريد... وقلبُهُ من حديد... يقفزُ إلى أحضان المحرقة!!»...

أصواتُ أهلِ البَلدةِ تتزايَد، يتجَمهَرونَ في كُل مرَّةٍ أسرَع من التي تسبِقُها. يتهافتونَ بِحماسٍ على رؤيةِ الزائِرِ الجديد الذي قَرَّرَ تَقديم العرضِ اليوم. يركُضُ الآسِن حتى تتقَطَّع أنفاسُهُ، يَتَسَلَّقُ الجِسر بِذراعٍ واحدةٍ، يَسقُط حتى كاد أن يَستَسلم. المُهَرِّجونَ بالأسفل يُلاحِظونَ سَأمَ الجماهير الذين بدأوا يفقدونَ صبرَهُم على ذلك الزَّائِر ذي الذراعِ الواحِدة، يتسَلَّق ويَسقُط. عندما حانت تلك اللحظة، التي قرر بها «آسِنُ» الاستسلام... دَفَعَ إليه المُهَرِّجون بِسُلَّمٍ خَشَبِيٍّ عظيمِ الطُّول، وضعوهُ مُلاصِقًا للجِسرِ الواصِلِ بينَ المِنَصَّةِ وفوَّهةِ المَحرَقة...

ينظرُونَ إلَيهِ من الأسفَل، يضحكونَ بِخُبثٍ ويُرَدِّدون:

«زائـرٌ جديـد... لباسُـهُ مـن جَريـد... وقلبُـهُ مـن حديـد... يقفـزُ إلى أحضـان المحرقـة!!»

يبتَسِمُ الآسِنُ ساخِرًا...

يتسَـلَّق السُّـلَّم، يَقِـفُ عـلى أوَّلِ الجِـسرِ، يتأمَّـل الصَّهـدَ المُتَصَاعِـد مـن طَريقِـهِ الوحيـد للخـلاص، طريقِـهِ الوحيـد للذهـابِ إلى شَمسِـهِ...

يُلقِـي نظـرةً أخيـرةً عـلى أولئِـك القـوم، يرفَـعُ يَـدَهُ مُحيِّيًـا إياهُـم. يبتَسِـم لهـم، يتحَـدَّثُ إلَيهِـم بصـوتٍ لم يَسـمَعوهُ مـن الهتـاف...

- أنـا أشـفِقُ عَلَيكُـم... جميعكـم... مـكاني لَيـسَ هُنـا، وسـطَ مَخلوقـاتٍ ضَعيفـةٍ، مَعيبـةٍ... أنـا فنـان... والفنَّـان «صانِـع»... أنـا آتٍ إليـكِ يـا شَـمسي...

يركـضُ بأقـصى سُرعـةٍ، تقـتربُ النَّـارُ منـه، يَشـعُرُ بالصَّهـدِ يَقـترب، يَنـشَرِحُ صَـدرُهُ....

يَنقَضُّ عَلَيهِ أحدهم..!!

- انتظر!!... ماذا تَفعَل يا مَجنون؟!!...

- مَن أنت؟!!

- أفَقَدتَ عقلك؟!!... تُريدُ أن ترمي بِنَفسِكَ في مَحرَقَة؟!

كانَ قـويَّ الجَسَـد، عريـض المِنكَبَـينِ، خاليًـا مـن النُّـدوبِ والجـروح... صوتـهُ بـدا حنونًـا، رقيقًـا، مُـتَرَدِّدًا...

تأمَّلَهُ «آسِن» طويلًا، والنَّاسُ بالأسفَل يَهتفون..

- دعهُ يَقفِز... أتينا لِنُشاهِد... دَعهُ يُنهي العَرض!!...

كانَ يَنظـرُ لِـ«آسِـن» كأنَّـهُ يَعرِفـهُ، عينـانِ حَمـراوَانِ... وجَسَـدٌ أبيَـض حليبـي، لم يَـزَل بَعـدُ مُحتَفِظًـا بِلَمَعانِـهِ...

– من أنت؟!!...

– لا أعـرف!!... لقـد... أتـوا بي إلى هُنـا، قُلـتُ لهـم إنِّي رأيـتُ عِجـلًا طائِـرًا، كانَ ذَهَبِـيَّ اللـونِ... استَمَعوا إلَيَّ في البِدايـة... لكِنَّهُـم قالـوا... إن أمثـالي يَجِـبُ أن يُقتَلـوا... لكنَّهُـم وَضَعـوني هنـا... أتُصَـدِّق؟!... قالـوا لي: «عينـاكَ الحمـراوَان سَـتُلائِمانِ المَحرَقـةَ والنَّـار»...

– أرجوك دعني... دعني أذهَب...

– كَيـفَ أدَعـك؟!... أأنـتَ مَجنـون؟!... انظـر، هُـم يَهتِفـونَ لَـك، يطلبـونَ ألا تَقفِـز... ألا تَسـمَع؟!...

– أنتَ لا تَفهَم شيئًا... أرجوك... أتوَسَّلُ إلَيكَ اتركني...

– ولكن... لماذا؟!...

– الألوان لم تَكُن كما ظَنَنت!!...

– عن أيِّ ألوانٍ تتكَلَّم؟!

– أتوَسَّـلُ إلَيـكَ اتركنـي... لقـد بَحَثـتُ عـن الـذي يَعلَـمُ مـا بَـينَ الأحمرِ والأخـضَر... فـما وَجَـدت أحمـر ولا أخـضَر... ولكنِّـي... ولكِنِّي...

– ماذا؟

– وَجَـدت «شَـمسي»... جَسَـدي يَتَغَـيَّر، أرجـوك اتركنـي... اتركنـي ألحَـق «شَـمسي» قبـلَ فـواتِ الأوان...

كلـماتُ الأسِـنِ صَعَقَـت ذاك الأبيَـض الجَديـد، أخـذَ يتأمَّـل قَسَـماتِ وجهِـهِ المُرهَـق، المُتَوَسِّـلِ إلَيـه. أحدهـم بالأسـفَلِ، أمسَـكَ حَجـرًا أبيَـض، قذَفَـهُ نحـوَ الاثنَـينِ بالأعـلى... أصـابَ الأبيَـض، بِـأوَّلِ جـرحٍ، سَـيَنقَلِبُ لِأوَّلِ نُدبَـة...

أفلَتَ الأبيَضُ «آسِنَ» من بينِ يَدَيه، ليركُضَ الأخيرُ مُبتَهِجًا، مُبتَعِدًا عن الأبيض، مُقتَرِبًا من فُوَّهَةِ المَحرَقة، ترتَسِمُ على وجهِهِ شَمسٌ تُنيرُ ما بَينَ أحمَرِهِ وأخضَرِه.

يَقِفُ على الحافَّةِ السَّاخِنة، يلفَحهُ الصَّهدُ من الأسفَل...

يلتَفِتُ التفاتَةً أخيرةً، نحوَ الأبيَضِ الجديدِ، ذي العَينَينِ الجَمِيلَتَينِ... ويَبتَسِم...

- شُكرًا لك...

❊ ❊ ❊

شكرٌ خاصٌّ...

أبي وأمـي، أهديكـما إبداعِـي الرَّابِـع، ومـا زِلـتُ لم أوفِيكُـما حَـقَّ قَدْرِكـما...

إلى أبٍ وعَـمٍّ غَـير الأب والعَـم... الصَّديقَـيْنِ الرائِعَـيْنِ، المُبدِعَـيْنِ عـن حَـق... «محمـد عـلي إبراهيـم» و«مصطفـى جُوهَـر»... أعلَـم أن اختـزال الشُّـكْرِ بِكَلِمـةٍ واحِـدة لـن يوفيكُـما حقَّكُـما... ولكِنِّـي أثِـقُ بِصِدقِهـا... هـذا العَمَـل هـو شُـكرِي الحقيقـي عـلى مـا عَلَّمتُـمانِي إيـاه... «شُـكرًا لكـما»...

أخـيرًا... إلى كُل شـمسٍ... بِبَلدَتِنـا... تَبَسَّـمَت لِتُربَـةٍ آسِـنةٍ... فأنبَتَـت قَلبًـا..

نبذة عن الكاتِب:

مُحمد ناجي عبد الله عبد العال...

طبيب وجرَّاح الفَم والأسنان..

كاتبٌ، لـه ثلاثة أعمال منشورة... رواية «قاب قوسَينِ من الياسمين» عن دار نهضة مصر، رواية «مَهيب الرُّكن»، كتاب ساخِر «أشيَك واد ف شبرا»... ومجموعة قَصَصِيَّة تحت الطَّبْعِ «اسمي بُلبُل»...

فنانٌ تَشكِيلي، شارَك بالعديد من المعارِض الجماعِيَّة، لـه معارِض فرديَّة...

مصوِّر فوتوجرافي محترفٌ، شارَك بالعَديد من المعارِض والمسابقات داخل وخارج مصر، لـه معارِض فردية...

موسِيقي بِدار الأوبرا سابِقًا، عازِفٌ لآلَتَي الجيتار والكمانجة...